جامعة الجزائر

معهد اللغة والادب العربي

اللانســـــونيـــــة

وأبرز أعلامها في النقد العربي الحديث

رسالة لنيل درجة دكتوراه الدولة في الادب العربي

« تخصص : أدب مقارن »

من إعداد الطالب :
عبد المجيد حنون

إشراف الاستاذ الدكتور :
أبو العيد دودو

السنة : 1991

المقدمة

المقـــدمـة

ترجـع صلتي بـاللانسونية (المنهج التاريخي) الى السنة الدراسية 1975 م / 1976 عندما حضرت دروس السنة الأولى من الماجستير ، بقسم اللغة العربية ، جامعة القاهـرة مع الدكتور عامر عطيـة ، ضمن مقـرر مادة " المنهجيـة " حيث درس لنا طيلـة السنـــة الدراسيـة المدرستيـن النقـديتيـن : التـأثـرية و التـاريخيـة ، من خلال علميهمـا : جـول لـومتـر (Jules le maitre) و غوستاف لانســون (Gustave lanson) .

كنت وقتذاك متذبذبـا بين المدرستين ، تدفعني نحـو الأولى عاطفتـي و تحمس أستاذي لهـا ، و اعجـابه بنزعـة "لـومتـر" الى الحرية فيالأدب بأوسع معـانيها . فالأدب خلـــق و ابداع فني ، ولا قانـون يحكـم الابـداع خلقـا و تذوقـا. ومن ثمة . فالمبـدع حـر في ابداعه لا يقيـده قيـد ، و المتلقي حـر في تذوقـه ، يعجب بما يلائـم ذوقـه ، و يمـج ما لا يلائمـــه دون أن يكـون لذلك أثـر على غيـره ، فللنـاس فيمـا يعشقـون مـذاهـب . و يدفعني الـــى الثـانية عقلـي المعجب بـ " لانسـون " و نزعتـه التـوفيقية بين الذوق و المعرفـة و دقتـــه في البحـث و التنقيـب ، فالابـداع ـ عنده ـ ليس ضـربا من الخلـق من عدم ، وانما ثمرةلعدة عـوامل تاريخية و اجتماعية و ثقافيـة و قـدرات شخصية ، وبذلك لا يستطيع الذوق بمفرده أن يكشـف عن كـل جـوانب الظـاهرة الأدبيـة ، ومن ثمة فان الجمـع بين الذوق و المعرفة أمــر لا منـدوحـة عنــــه .

لما انتهت السنـة الدراسيـة ، و انشغلـت بالبحـث ، خـف اهتمامـي بالموضوع شيئـا فشيئـا حتى كـاد يطـويـه النسيـان .

عنـدما عزمـت على التسجيـل لاعـداد الدكتـوراه ، شـرعت في البحـث عن مـوضـوع فـــي الأدب المقـارن ـ حبـا مني لهذا التخصص بالذات ـ فلاحظت وجـود دراسـات مقـارنة بيـــن الأدب العربي و الآداب الأجنبية شـرقية و غربيـة ، بصفـة خاصة في المجـالات التـالية ...

منهـا على سبيـل المثـال :

1 ـ القصـة : مثـل دراسة الدكتـور حسام الخطيب : سبـل المـوثـرات الأجنبيـة فـي القصـة السوريـة (دمشـق 1974 م) .

2 ـ الروايـة : مثل رسـالة الدكتور سهيل ادريس : الروايـة العربيـة المعاصرة (1900ـ 1940) و المـوثـرات الأجنبيـة . و رسـالة كـوثر عبد السـلام البحيـري : أثر الأدب الفرنسـي في الروايـة العربية (بالفرنسيـة) . و دراسة سعيـد علـوش : الرواية العربيـة و الايديـولـوجيـة .

3 ـ المسرحية : مثل رسـالة عطيـة أبو النجا : الأصـول الفرنسية للمسرح المصـري، و سـالة تسعديـت آيـت حمـودة : أثـر الرمـزية الغربيـة في مسرح توفيق الحكيم ، و دراسـة الدكتور أحمد عثمـان : المصـادر الكـلاسيكية لمسرح توفيق الحكيـم ، و دراسة الدكتور عبـد الحكيـم حسـان : أنطونيـو و كليوبطـرا بين شكسبير و شـوقـي .

4 ـ الشعـر: مثل رسـالة منـاف منصور : أثر الرمـزية الفرنسيـة في الشعـر العربـي الحـديث (بالفرنسية) ، ورسالة الأخضـر بن عبد الله : شـوقي و أثر الآداب الأجنبيـة فـي شعـره (بـالفـرنسيـة) .و دراسة عبد الالـه ميسـوم : تـأثيـر المـوشحـات ـ ـر التـروبـادور ، ودراسـة الدكتـور عثمـان موافي : التيـارات الأجنبيـة في الشعر العربـي منذ العصـر العبـاسي حتى نهـاية القـرن الثـالث الهـجـري .

5 ـ النثـر : مثل رسـالة الدكتور محمد غنيمي هلال : أثر النثـر العربي في النـثـر الفـارسي خلال القرنين الخـامس والسادس للهجرة ، و دراسة الدكتور صلاح فضل : تأثير الثقافـة الاسـلامية في الكوميديا الالهية .

6 ـ دراسـات عـامـة : مثل دراسة الدكتـور احسان عبـاس : مـلامح يونـانيـة في الأدب العـربي ، و دراسـة لويس عوض : أثر الثقـافة الفرنسيـة في فكر طه حسين ، و دراسة محمـود مكـي : أثر العـرب والاسـلام في الحضارة الأوروبيـة ، و دراسة الدكتور غنيمي هلال : الحـب ـ ـا

العاطفيةبين العذرية و الصوفية : دراسة مقارنة في الأدبين العربي و الفارسي حول موضوع ليلى و المجنون ، ودراسة خوان فيرني (Juan vernet) : " ما تدين به الثقافة لعرب اسبانيا " (بالاسبانية ومترجم الى الفرنسية) .

7 - أما النقد : فعدا اشارات عابرة في دراسات أدبية عامة و مقالات الى تأثر النقد العربي الحديث بالنقد الأوروبي أو الفرنسي ، دون بحث دقيق ، أو تبيان لأوجه التأثر أو التأثير و مصادره ، لم أعثر الا على ثلاثة عناوين تبدو دراسات مقارنة للنقد هي:

أ - النقد الجمالي و أثره في النقد العربي ، لروز غريب ، درست فيه المؤلفة مفهوم الجمال (Esthetique) و نشأته عند الغربيين، ثم مفهومه عند العرب ، وبذلك تكون دراستها هذه في النقد الجمالي بمعناه الواسع ، ولا تتعرض للنقد الأدبي الا في اشارات عابرة و من ثمة نستطيع اخراج هذه الدراسة من الدراسات النقدية المقارنة .

ب - في النقد التطبيقي و المقارن للدكتور محمد غنيمي هلال ، جمع فيه الناشر بعد وفاة المؤلف - مجموعة من المقالات المنشورة في المجلات و الصحف ، جلها دراسات نقدية لآثار أدبية معينة ، أو دراسات أدبية عامة ، و لذلك نستطيع القول ان عنوان الكتاب لا يتطابق و محتواه .

جـ - طه حسين ، نقده و مصادره الفرنسية ، لمفتاح الطاهر . هذه الدراسة رسالة جامعية قدمها صاحبها في جامعة ستراسبورغ ، استعرض فيها نقد طه حسين و تأثره بالمدرستين النقديتين : التأثرية و التاريخية ، و أثبت فيها تأثر الرجل بالمدرستين السالفتي الذكر الا أنه لم يبين بوضوح نتائج ذلك التأثر على الأدب العربي من خلال دراسات طه حسين النقدية .

من هنا بدأت أتساءل : لقد عرف العرب أواخر القرن التاسع و أوائل العشرين

تأثرا بمختلف الأجناس الأدبية الأوروبية - استنادا الى نتائج الدراسات المقارنة - أفلا يكون للنقد نصيب من ذلك التأثر ؟ وهنا تذكرت دروس الدكتور عطية عامر عن " لانسون" والمنهج التاريخي وسيطرته على البحث الأدبي في الجامعة الفرنسية طيلة النصف الأول من القرن العشرين ، وما نتج عنه من دراسات أدبية قيمة في الآداب الأوروبية قديمها وحديثها ، كما تذكرت دراسة مفتاح الطاهر ، فتساءلت مرة أخرى : لقد كانت -ولا زالت - السوربون قبلة العديد من الطلبة العرب ، أولم يتتلمذ فيها على " لانسون " نفسه أو على تلاميذه، طلبة عرب غدوا الساحة النقدية العربية بعد ذلك مثل طه حسين ؟ فاذا كان الجواب ايجابا : من هم هؤلاء النقاد المتأثرون ؟ وماهي سبل تأثرهم وأوجهه؟ وكيف يتجلى ذلك التأثر ؟وماهي نتائجه على الأدب العربي ؟انها جملة من التساؤلات دفعتني الى الاهتمام بموضوع " النقد العربي الحديث " وتأثره بالنقد الفرنسي بصفة عامة ، والنقد التاريخي الجامعي (اللانسوني) بصفة خاصة ، وقادتني قراءاتي الأولية الى الاقتناع بوجاهة الكثير من التساؤلات عندما وجدت أن العديد من النقاد العرب المحدثين يكوّنون سلسلة مترابطة بدايتها طلبة عرب درسوا في مطلع القرن العشرين ، وحلقاتها مترابطة بعد ذلك مابين الجامعات العربية . وتحدد الموضوع حول " المنهج التاريخي " والنقد العربي الحديث . وتفاديا لأيّ غموض أو لبس،فالمقصود بالمنهج التاريخي ، ذلك المنهج الذي

يدرس الأدب دراسة داخلية وخارجية اعتمادا على علوم ومعارف مساعدة حسب مفهوم الاستاذ " غوستاف لانسون " ، وبذلك يتحدد الموضوع أكثر ليكون " اللانسونية في النقد العربي الحديث " .

أسرعت ، بعد ذلك ، لعرض الموضوع على أستاذي الدكتور أبو العيد دودو ، فكان قبوله الموضوع ، ورضاه عنه ، دليلا وتأكيدا على سلامة المسلك . فجاءت هذا الموضوع للاجابة عن التساؤلات السالفة الذكر ، قصد اجلاء مصدر من مصادر نقدنا الحديث وتبيان الخلفيات النقدية التي جعلت البعض من نقادنا المحدثين يأتون بمناهج تبدو للقارئ العربي غريبة أو جديدة لجهله بمؤثراتهم النقدية ، ثم لأدفع الباحثين الى الاهتمام بهذا المجال في الدرس الأدبي المقارن .

كنت أعرف أن الدراسات المقارنة للنقد العربي قليلة جدا - كما هو مبين سابقا - ولما بحثت عن دراسات مقارنة للنقد العربي ضمن موضوع " المنهج التاريخي " ، لم أجد شيئا يذكر عدا دراسة مفتاح الطاهر عن طه حسين السالفة الذكر ، فعقدت العزم على الاعتماد على الآثار النقدية للنقاد العرب وحدها لاستخلاص منها مظاهر التأثر ، ولكن دهشتي كانت أعظم عندما بحثت في النقد الفرنسي عن دراسات حول " اللانسونية " - الظاهرة النقدية التي شغلت الجامعة الفرنسية ما يزيد عن نصف قرن ، وألفت اعتمادا عليها العشرات من المصنفات النقدية - فلم أجد أبحاثا مخصصة لهذا الموضوع ، عدا اشارات مبعثرة هنا وهناك ، لا تقدم اللانسونية كلا متكاملا ، نشأة وتطورا وانتشارا ومفهوما ، فزادت صعوبة البحث ، الا أنها زادتني حماسا لهذا الموضوع البكر في الدرس الأدبي المقارن للنقد العربي وحتى الفرنسي

ومن الطبيعي أن أتبع في هذا البحث " المنهج التاريخي " ما أمكنني ذلك ، وحسب طبيعة الموضوع ، انه سيكون الجانب المعرفي أبرز من الجانب الذوقي ، تماشيا وطبيعة الموضوع المعرفية وبعده عن النص الابداعي ، حيث انني سأدرس ظاهرة النقد التاريخي الجامعي أو اللانسوني الذي عرف أوج تطوره في مطلع القرن العشرين

بفرنسا ، ثم تأثيره في النقد العربيالحديث ، بوساطة الطلاب العرب الذين تتلمذوا على "الانسون " أولا ، ثم على تلاميذه بفرنسا ثانيا ، و أخيرا الذين تتلمذوا ، بعد ذلك، على الطلبة العرب بعد رجوعهم الى الجامعات العربية ، ونشروا دراساتهم ذات المنهج التاريخي أو دعوا لتطبيقه . و بمعنى آخر ، فانني سأحاول التأريخ لهذه الظاهرة في نشأتها و تطورها ، ثم تأثيرها في النقد العربي الحديث ، و البحث عن نتائج تطبيقها في الأدب العربي ، معتمدا في ذلك على المصادر الأساسية للمنهج التاريخي من جهة ، و الدراسات النقدية العربية الحديثة من جهة أخرى .

سيشمل البحث اذن ، النقد العربي الحديث في تأثراته التي تعد من أخصب مجالات التأثر عند العرب - قديما و حديثا - محاولة مني للاجابة عن البعض من التساؤلات ، و لفت نظر الباحثين لهذا الميدان المهمل على أهميته بالنسبة لتطور الأدب ، حيث ان الكثير من الأفكار و الآراء و المقاييس النقدية الأدبية ليست وليدة الأدب العربي ، و انما جاءته من آداب أجنبية لتصبح المقياس الذي يقاس به الابداع الأدبي العربي بكل ما ينتج عن ذلك من صواب و خطا في الأحكام و النتائج .

ان الموضوع واسع جدا ، لأنه يشمل النقد الفرنسي في أزهى مراحله ، و خلال فترة تقترب من القرن ، أي منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين ، عندما بدأت اللانسونية تضعف و تستعين بمناهج جديدة تغير من طابعها الأساس ، كما يشمل بصفة خاصة أزهى مرحلة عرفها النقد العربي الحديث ، وهي فترة ما بين العشرينات و السبعينات من القرن العشرين .

و بديهي أن دراسة كل النقاد العرب - الذين لهم صلة بالمنهج التاريخي - الذين ظهروا في الفترة المذكورة أعلاه ،و في بحث واحد ، أمر من الصعوبة بمكان بالنسبة لباحث واحد ، لا يعيش في بيئة تتوفر فيها الشروط الضرورية لبحث مثل هذا

الموضوع ، ولذلك سأركز جهودي على تحديد المنهج التاريخي كما يتجلى عند لانسون من خلال مقالته الشهيرة عن " منهج تاريخ الأدب " التي نشرها سنة 1910م بعد أبحاث و كتابات نظرية و تطبيقية خلال ما يقارب العشرين سنة ، لتصبح بمثابة دستور "اللانسونية" ثم أبحث عن تأثيرها في أشهر النقاد العرب من خلال دعوتهم أو تطبيقهم لها ، لأبين دخولها الى الجامعات العربية و أدلل على مصادرها . فيسهل بذلك تتبع " اللانسونية " في النقد العربي الحديث مستقبلا عند الأجيال التالية لجيل الرواد في دراسات أخرى .

من هنا يتحدد الموضوع ليكون (اللانسونية و أبرز أعلامها في النقد العربي الحديث)، و أتبع فيه المنهج التاريخي حسب المراحل التالية :

1 - المدخل : أتتبع فيه بايجاز العلاقات العربية الفرنسية منذ بداياتها الأولى حتى القرن العشرين عندما تعددت مجالاتها، لأستخلص العلاقات الأدبية عموما ، و النقدية بصفة خاصة، لأنطلق بعد ذلك في دراسة العلاقة العربية الفرنسية حول المنهج التاريخي في دراسة الأدب .

2 - الباب الأول : أدرس فيه اللانسونية و صاحبها ، حيث أتتبع الرؤية التاريخية في دراسة الأدب منذ بداياتها الأولى ، ثم تطورها و مفهومها عند لانسون و انتشارها عند تلاميذه الفرنسيين ، لأنتقل بعد ذلك الى البحث عن مظاهرها في النقد العربي من خلال أبرز الأعلام مثل :

3 - الباب الثاني : أحمد ضيف و اللانسونية ، على اعتبار أنه أول عربي تتلمذ على لانسون و " اللانسونية " ، أوضح العلاقة التاريخية بين أحمد ضيف و اللانسونية من خلال الترجمة له و الكشف عن الصلة التاريخية بين الطرفين . ثم أبحث في كتابات أحمد ضيف عن اشادته بالمنهج التاريخي لأختم الباب بابراز محاولة أحمد ضيف تطبيق المنهج و نتائج ذلك .

4 ـ الباب الثالث : طه حسين و اللانسونية : أدرس في هذا الباب العناصر نفسها التي بني عليها الباب الثاني ، أي البحث عن الصلة التاريخية فالدعوة للمنهج ، ثم تطبيقه و نتائج ذلك .

5 ـ الباب الرابع : محمد مندور و اللانسونية ، و أتبع في هذا الباب المراحل نفسها المتبعة في الأبواب السابقة ، فبعد اثبات الصلة من خلال الترجمة للرجل ، أبرز دعوته للانسونية لأخلص بعد ذلك الى تطبيقاته ، و نتائج ذلك .

6 ـ الخاتمة : أشير فيها الى انتشار اللانسونية في الجامعات العربية عند تلامذة هؤلاء الأعلام من جهة ، و تلامذة تلاميذ "لانسون" من جهة أخرى ، ثم نتائج البحث و الدراسة لآثار أولئك الأعلام الذين سيبنى عليهم البحث .

أعتقد أنني تمكنت ، باتباعي لهذه الخطوات ، و اعتمادي على المنهج التاريخي بنسبة ، على الكثير من صعوبات البحث المتمثلة في سعته من جهة ، و ندرة مراجعه - حتى لا أقول انعدامها - و صعوبة الوصول الى مصادره العربية و الفرنسية التي أصبحت بعد الآن من الوثائق القديمة ، لا وجود لها الا في المكتبات المتخصصة من جهة أخرى ، و أعتقد كذلك أنني أجبت على تلك التساؤلات التي كانت أساس هذا البحث ، فكشفت عن مصدر هام من مصادر النقد العربي الحديث ، و فسرت بعض القضايا النقدية التي شغلت النقد العربي الحديث دون أن يعرف القراء خلفياتها ، ثم لفتت الأنظار الى مجال ثري من مجالات الدرس الأدبي المقارن . فان وفقت الى هذا الغرض ، فذلك هو المرام ، وان أخفقت ، فحسبي أنني حاولت .

و مهما كانت نتائج هذا البحث ، فانني أتقدم بخالص شكري الى أستاذي المشرف الدكتور أبو العيد دودو ، على صبره معي ، وترحابه بي ، و تحمله معي لكل ظروف هذا

البحث - رغم ظروفه الخاصة - حتى اكتمل على هذه الصورة .

كما أشكر كل من ساهم من قريب أو من بعيد في هذا البحث ولو بكلمة طيبة خففت عني بعض العناء .

المدخل

العلاقات الأدبية العربية الفرنسية في القرن التاسع عشر

أولاً : العلاقات العربية الفرنسية عبر بداياتها حتى القرن التاسع عشر

عرفت العلاقات العربية الفرنسية تطورا منذ آماد طويلة . وأستطيع القول أن تلك العلاقات بدأت في شكل صراع ديني مسلح مع الفتوحات الاسلامية لجنوب فرنسا فيمطلع القرن الثامن الميلادي، الثاني للهجرة ، حيث اجتازت الجيوش العربية الاسلامية جبال البرينيه بقيادة السمح بن مالك الخولاني(ت 102)،زمن خلافة عمر بن عبد العزيز. حاول العرب خلال تلك الفتوحات نشر الدين الاسلامي واللغة العربية في ربوع فرنسا المفتوحة ، فشرعوا في بناء المساجد ، وتزوج البعض منهم بفرنسيات . (1) وعندما انكسرت الجيوش العربية الاسلامية في معركة بواتيي بقيادة عبد الرحمن الغافقي سنة 732 م أمام الجيوش الفرنسية المدعمة بالقبائل الجرمانية، استمر التواصل العربي الاسلامي مع الفرنسيين (الافرنج) بقدوم البعض منهم - من حين لاخر- للتعلم في الحواضر الأندلسية أو المغربية . ثم جاءت المرحلة الثانية من العلاقات العربية الفرنسية ضمن صراعهما الديني المسلح ، في رد المسيحية على الاسلام ، بما عرف في التاريخ بالحروب الصليبية التي شارك فيها العديد من الأمراء الفرنسيين وأتباعهم ، فعرفوا أقواما ومجتمعات وحضارة لاعهد لهم بها .

بعد فشل الحروب الصليبية ، وعوده من شارك فيها من الفرنسيين (الا فرنج) يحملون ذكريات وقصصا وخرافات عن الشرق والاسلام والعرب، لم تتطور العلاقات العربية الفرنسية لتتعدي رواسب الصراع الديني، فبقيت الأحكام المسبقة راسخة عند كل طرف ، عن الطرف الثاني،حتى نهاية القرن الثامن عشر حيث عرفت فرنسا تغيرات جذرية تتمثل في ثورتها الشهيرة على الثالوث المقدس (الكنيسة، الملكية ، الاقطاع) لتنتقل بذلك من مجتمع ديني الى مجتمع مدني .

---

1)- رينو (جوزيف): الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطاليا وسريسرا (ترجمة د.اسماعيل العربي) ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر) ، دار الحداثة (لبنان) 1984 ص47 - 69 .

تغيرت رؤية فرنسا نحو العالم ، ومنطلقاتها في التعامل معه ، بتغير المجتمع الفرنسي وتطامه عقب الثورة الفرنسية ، وهكذا ، بدأت تتطلع - تحت حكم نابليون بونابرت الطموح جدا 1769 - 1821 م - لفرض نفوذها على الامم الاخرى ، لنشر فكرها وتأمين موارد وأسواقا لمنتجاتها . وكانت مصر هدفا من أهداف نابليون ، فينتعش الصراع الفرنسي العربي مرة أخرى ،ولكنه صراع بأسلوب جديد هدفه خدمة فرنسا وحضارتها، وبذلك يبدأ الفكر الفرنسي في التسرب الى الوطن العربي بوساطة العوامل التالية :

1 - الارساليات التبشيرية :

لم تنقطع الصلة الروحية بين المشرق والغرب منذ اعتناق روما للمسيحية ونشرها في ربوع امبراطوريتها .فلما انتشر الاسلام عرف الشرق والغرب صراعا دينيا مسلحا بين الايمان والكفر على حد تعبير الطرفين فعندما فشلت الحروب الصليبية في كسر شوكة المسلمين، غيرت الكنيسة أسلوبها في الصراع، وبدأت تعمل على تمتين صلتها الروحية بالمسيحيين الشاميين وتستقطب بطارقتهم ومطارنتهم وقساوستهم الى " روما" لزيادة مقر البابوية وتلقي العلوم الدينية ، فكثر تبعا لذلك العارفون باللغتين الفرنسية والايطالية من الكاثوليك الشاميين .(1)

صارت الطائفة الكاثوليكية كتلة دينية لهاوزنها في الشام (سوريا، لبنان ،فلسطين)، تجلب اهتمام الكنيسة الكاثوليكية والبعض من الدول الاوروبية ، مثل فرنسا التي استطاع ملكها سنة 1649م أن ينتزع من الخلافة العثمانية حق حماية الكاثوليك الاوروبيين بكنائسهم وكهنتهم في الاراضي العثمانية ، ليتوسع ذلك الحق تدريجيا حتى شمل الكاثوليك العثمانيين والارساليات الاوروبية .(2)

---

1)- د . الشيال (جمال الدين) : تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1950 ، ص 51 - 52

2) - حوراني (ألبرت) الفكر العربي في عصر النهضة (1798/ 1939) ترجمة كريم عزقول دار النهار للنشر ، ط 3 ، بيروت 1977 ، ص 58 .

استقطاب الكاثوليك العرب بالفاتيكان الى اهتمام العديد من الدول الأوروبية بهم ، وحلول العديد من الارساليات التبشيرية الكاثوليكية بالمشرق منذ القرن السابع عشر لمساعدة الكاثوليك الأوروبيين أولاً والعرب ثانياً ورعاية شؤونهم الروحية وحمايتهم ، فصارت الطوائف المسيحية العربية ثمة مميزة في العالم العربي : ((وعدد من الطوائف المسيحية التي أنشأتها أو عززتها الارساليات فريق من المثقفين ، وكانوا عالم أوروبا الجديدة بل اعتبروا أنفسهم ، بمعنى من المعاني جزءاً منه))(1) ومع مرور الزمن ، وتطور الدولة العثمانية وتجهزتها في الشام ، أصبح هؤلاء المثقفون الشاميون المسيحيون : ((طائفة من المدنيين المثقفين وجدوا مجالاً لمواهبهم في دواوين الحكام المحليين ..)) (2)

لقد أبدى الجيل الاداري العثماني في توظيف المسيحيين العرب من خريجي مدارس الارساليات التي تزايد اقبال المسيحيين عليها ، فكثفت بالتالي نشاطها في المشرق العربية ((وقد انجلى نشاط هذه الارساليات على تنوعها عن الاسهام في نشر التعليم من الابتدائي الى الجامعي ، على المنهج التربوي الحديث ، وعن تثقيف الطلاب بالثقافة التي كانت بلغتها اوجها في أوروبا وأمريكا ، بالاضافة الى الأدب العربي (.....) الا أن سيطرة تلك المؤسسات التعليمية في لبنان " المسيحية ومسيحية طائفية " تبين مدى اقبال الطلاب عليها من سائر الأديان وسائر الأقطار العربية ..)) (3)

لقد أقبل العرب على تعليم أبنائهم في مدارس الارساليات التبشيرية المنتشرة في العديد من البلدان العربية مثل الفرنسيسكانيين الذين نزلوا فلسطين ومصر ولبنان مع الحملات الصليبية ثم استقروا هناك مؤسسين الأديرة والكليات الدينية ، ثم اليسوعيين الذين قدموا لبنان في القرن السابع عشر مؤسسين عدة معاهد أشهرها كلية القديس يوسف التي تحولت الى جامعة القديس يوسف اليسوعية وهي الآن تسمى جامعة ليون

---

(1) حوراني (ألبرت) : المرجع السابق ص 77

(2) حوراني (ألبرت) : المرجع السابق ص 78

(3) العقيقي (نجيب) : من الأدب المقارن ج 2 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1976 ص 14 - 17

الفرنسية - مع العديد من المؤسسات الثقافية و العلمية كالمطبعة الكاثوليكية الشهيرة التي طبعت العديد من المؤلفات العربية المدرسية و العلمية و الأدبية بالاضافة الى العديد من المعاجم و القواميس على الطريقة الأوروبية ، و المكتبة الشرقية و مجلات عديدة . كما أسسوا مدارس ابتدائية و ثانوية للبنات و البنين في لبنان و سورية و الاسكندرية و القاهرة .

عاد الكرمليّون الى الشرق في القرن السابع عشر ، فشيدوا المدارس الابتدائية و الثانوية و المهنية في لبنان و فلسطين و سوريا و بغداد . و حل بالشرق في القرن نفسه الدومنيكيون ، مؤسسين مدارس و معاهد في كل من الموصل و القدس و القاهرة التي أنشأوا فيها معهدا للدراسات الشرقية و مكتبة قيمة ، لا زالا قبلة الباحثين و طلبة الدراسات العليا في القاهرة .

و حل الآباء البيض ، كذلك ، بالجزائر و تونس و المغرب مع دخول فرنسا الجزائر ، فأسسوا في تونس معهد الآداب العربية و مطبعة عربية لا زالت أعمالها تصدر حتى الآن ، أهمها مجلة المعهد الشهيرة (IBLA). و لحقت بهذه الارساليات الكاثوليكية - التي كانت تعلم الفرنسية - الارساليات الأرثوذكسية بمساعدة من روسيا القيصرية ، فحلت بفلسطين و سوريا و لبنان . ثم لحقت في القرن التاسع عشر بالارساليات السالفة الذكر ، الارساليات البروتستانتية في كل من لبنان و مصر ، مؤسسة المدارس و المعاهد أشهرها حتى يومنا هذا الجامعة الأمريكية ببيروت و القاهرة .[1]

لقد انتشرت مدارس الارساليات التبشيرية المختلفة في فلسطين و سوريا و لبنان و مصر و العراق ، و أخيرا المغرب العربي ، لمساعدة المسيحيين ، أوروبيين و عربا ، و رعاية شؤونهم الدينية و الفكرية ، فكان لزاما عليها أن تؤسس المدارس و المعاهد الدينية

---

1) - العقيقي (نجيب) : المرجع السابق ، ص 14 - 17 .

لتعليم شؤون دينها ، و بالتالي لغتها ، و شيء من المعارف و العلوم حتى ترفع مستوى المتعلم فكريا ليفهم دينه أكثر ، رغبة منها في تسهيل العملية التعليمية . علمت تلاميذها اللغة العربية و آدابها تعليما حديثا ، فكونت بذلك ، انسانا مشرقيا جديدا يتمتع بمحصول فكري يخوله القيام بأعمال و وظائف ادارية و ثقافية جديدة و((قيض لهم ، في ستينيات القرن التاسع عشر ، أن يكتسبوا ، بوصفهم أول صحفيي العالم العربي، قوة جديدة)) .(1)

لقد قامت مدارس الارساليات التبشيرية بدور فعال في نقل الفكر الغربي الى الفكر العربي ، لطول مدة عملها - من القرن السابع عشر حتى يومنا هذا - و تبنيها الناشئة العربية بالتعليم في مدارسها - مسيحيين ثم مسلمين - و تزويدها بالكتب المدرسية على الطرق الحديثة ، و المعاجم و القواميس المساعدة ، و الكتب الأدبية مترجمة أو مؤلفة ، ثم بتأسيسها المطابع و دور النشر و المجلات و المكتبات و مراكز البحث .

و هكذا عرفت الحياة الثقافية العربية أفكارا جديدة في القرن التاسع عشر ، في مصر و سوريا و لبنان ، اذ : ((بينما كانت لآثار الأدبية التي ظهرت في أوائل ذاك القرن مجرد استمرار للعصور التي سبقت ، كان تيار من الفكر الغربي ، و الفرنسي منه بوجه خاص يتسرب الى عقول فئتين من تلك الجماعة ، في مركزين متباعدين هما مصر و سوريا .))(2)

لقد قامت مدارس الارساليات التبشيرية بمختلف أنواعها ، بغض النظر عن أهدافها و موقف العرب منها ، بدور الوسيط بين الثقافة الغربية بوجه عام و الفرنسية بوجه خاص و بين الثقافة العربية ، وحملت الى العرب أنماطا تعليمية و فكرية و لغات لا عهد لهم بها ، فكانت من الأسباب في تفتحهم تفتحا مقصودا أو غير مقصود .

---

1) - حوراني (أليرت) : الفكر العربي في عصر النهضة ، ص 89 .

2) - جب (هاملتون) : دراسات في حضارة للاسلام (ترجمة احسان عباس و آخرون) دار العلم للملايين ، ط3 ، بيروت 1979 ، ص 320 .

2 حملة نابليون على مصر :

عرفت فرنسا ، أواخر القرن الثامن عشر (1788 - 1789) تغيرات جذرية في بنية نظامها الاجتماعي و القانوني و السياسي ، نتيجة لأحداث الثورة التي قامت بها الطبقة البرجوازية (حرفيون ، تجار ، صناع ، مثقفون ... الخ) على ثالوث الحكم المقدس وقتذاك : الكنيسة و الملكية والاقطاع . و أحدث سقوط هذا الثالوث أثرا عميقا في المجتمع الفرنسي ، و أدى الى اتساع آمال فرنسا و طموحها . و غذى تلك الآمال و المطامح وصول الجنرال نابليون بونابرت (الشاب الكورسيكي) الى القيادة العامة للجيوش الفرنسية بطموحه الجامح ، فبدأ يفكر في توسيع نفوذ فرنسا في العالم لمزاحمة بريطانيا عدوها التاريخي و منافسها في مطامعها الاستعمارية في اطار الحمى التوسعية الاستعمارية التي بدأت تحرك الدول الأوروبية النامية وقتذاك ، و الخارجة حينئذ بفضل عصر التنوير و أفكاره - من العقلية الدينية الى العقلية المدنية المادية .

كان الشرق الأقصى بصفة خاصة ، و الشرق بصفة عامة مصدر الخيرات ، و السوق العامرة ، فتركز لذلك حوله الصراع الاستعماري بين الانكليز و البرتغاليين الهولنديين ليلحقهم الفرنسيون بزعامة نابليون .

استطاع نابليون القائد أن يقنع ، في هذا الاطار ، حكومة الديريكتوار بأهمية احتلال مصر ، المحطة الاستراتيجية في طريق الشرق المسيحي أولا ، و الشرق الأقصى ثانيا . و هكذا استفاقت مصر المملوكية سنة 1798م على مدافع الحملة الفرنسية ، التي احتلت الاسكندرية بسهولة ، (1) ثم تقدمت نحو القاهرة . و هناك : ((التقى المماليك على خيولهم المطهمة ، بجنود نابليون في عدتهم و نظامهم أواخر القرن 18 . لم تغن عنهم سيوفهم و لا أسلحتهم العتيقة شيئا و أدركوا - و أدرك معهم عرب مصر و الشام - أنهم يعيشون عهدا قد انقضى ، و يواجهون حضارة جديدة لعلهم قد اتصلوا بها من قبل على نحو أو آخر

---

1) - الجبرتي (عبد الرحمن) : عجائب الآثار في التراجم و الأخبار (تحقيق حسن محمد جوهر و عمر الدسوقي) لجنة البيان العربي ، الجزء الرابع ، القاهرة 1965 ، ص 284- 285

لأنهم لم يدركوا مدى ما بلغته من تقدم في العلم و الثقافة و المدنية حتى اصطدموا بهما في ذلك اللقاء الحربي غير المتكافئ))(1) .

جاءت حملة نابليون لاستعمار مصر بتنظيم محكم ، فقد اصطحب معه مترجمين و علماء و فرقة مسرحية و مطبعة ، قصد مساعدة الحملة على التواصل مع الشعب المصري بسهولة . و بدأ المترجمون عملهم قبل رسو الأسطول في ميناء الإسكندرية ، حيث قاموا بترجمة منشور نابليون إلى الشعب المصري و طبعه و توزيعه على الأهالي لمنادي ر خاطبهم . و كان لنابليون ما أراد ، فقد أقنع المصريين بمنشوره ذلك الذي استهله بالبسملة و بتوحيد الله ، ثم شرح للمصريين أهدافه المتمثلة في أنه جاء و جيشه ليخلصهم من ظلم المماليك الذين حكموا البلاد بغير وجه حق ، ثم سلموها لهم و ليحكموا أنفسهم بفضل العلماء و كبار القوم ، و بذلك يعيد لمصر مجدها الغابر ، و تتخلص إلى غير رجعة من ظلم المماليك أعداء الله (2) .

خاطب نابليون المصريين في هذا المنشور باعتبارهم أمة و قومية مستقلة لها تاريخها و حضارتها ، ثم دعاهم إلى الحرية و المساواة مهاجما السلطان الإقطاعي المتمثل في المماليك الذين حكموا البلاد باسم الدين دون أي وجه حق ، و أخيرا وعد المصريين بتأسيس " حكومة مصرية " ، و بمعنى آخر ، هدف هذا المنشور إلى نقل مبادئ الثورة الفرنسية إلى مصر .

كان منشور نابليون غريبا على المصريين بمضمونه أولا ، ثم بشكله ثانيا ، فقد كان مطبوعا في المطبعة التي رافقت الحملة ، و التي كانت أول مطبعة تدخل أرض مصر ، فكانت مطبوعاتها شيئا جديدا على المصريين ، و ما كان لهذه المطبعة أن تعمل و تبهر المصريين لولا جهود المترجمين .

---

1) _ القط (عبد القادر) : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، دار النهضة العربية ، بيروت 1978 ، ص 3 .

2) _ الجبرتي : عجائب الآثار ، ج 3 ، ص 288 _ 289 .

أعجب المصريون ، كذلك ، بأولئك العلماء الفرنسيين الذين جاءوا لدراسة مصر من مختلف جوانبها ، لافادة الحملة بنتائج دراساتهم ، فجاءوا بأدوات ، و قاموا بأعمال تشبه أعمال السحرة ، و من أبسط الأمثلة على ذلك انبهار الشيخ عبد الرحمن الجبرتي - معاصر الحملة و مؤرخها في الجانب المصري - بمكتبة الحملة التي أقيمت في " المجمع العلمي الفرنسي " ، فرأى الكتب مرصوفة في صفوف ، بينما كان يراها مكدسة ، و لكل قارئ كرسي يجلس عليه و طاولة يقرأ عليها ، بينما تعود على رؤية القارئ متربعا فسر الحصير يقرأ على ركبتيه ، و المشرفون على المكتبة يستقبلون القارئ بترحاب و يمدونه بما يشاء من كتب ، بينما تعود على رؤية القارئ يسعى بكل الطرق حتى يستعير من كريم كتابا .

شاهد المصريون ، في تلك المكتبة ، كتبا عديدة حول مختلف العلوم و الفنون و اللغات ، كما شاهدوا مختبرات الفلكيين و المهندسين و الكيميائيين و الجراحين فشاهدوا أعاجيب لا عهد لهم بها.(1)

أما الفرقة المسرحية ، فحضرت أساسا لتسلية أعضاء الحملة . ... فرنسيين ، يقدمون مسرحيات فرنسية باللغة الفرنسية أمام جمهور فرنسي ، و قلة من الضيوف المصريين ، الا أنها قدمت للمصريين الذين كانوا يشاهدون عروضها من بعيد مشاهد غريبة لا عهد لهم بها كذلك .

أدت كل هذه العوامل الثقافية ، اضافة الى نظام الحكم الذي أراد نابليون غرسه في مصر - نظام المجالس و الدواوين -(2) الى اعجاب المصريين بالفرنسيين لدرجة أن خليفة بونابرت في مصر - جاك مينو - تزوج بامرأة مصرية مسلمة .(3)

---

1) - الجبرتي (عبد الرحمن) : المرجع السابق ، ص 348 - 352

2) - د. عوض (لويس) المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث ، معهد البحوث و الدراسات العربية العالية ، القاهرة 1963 ، ص 30 - 51 .

3) - الجبرتي : عجائب الآثار ، ج 5 ، ص 185 .

و انسحبت الحملة الفرنسية من مصر سنة 1801 م ، بعدما أنهكتها الأوبئة و الفتن الداخلية و حصار الانكليز ، فحمل الفرنسيون معهم مطبعتهم و وثائقهم و علماءهم و فرقتهم المسرحية ، الا أنهم تركوا في أذهان العديد من المصريين صورة لنظام جديد عسكريا و اداريا و قضائيا و سياسيا ، كما تركوا في أذهان المصريين و المصريات صورة لحياة اجتماعية و ثقافية جديدة عليهم ، و بذلك أصبحت فرنسا فيما بعد ، نموذجا للتقدم و التطور في ذهن الكثير من المصريين . و على هذا الأساس نستطيع القول أن حملة نابليون على مصر أثارت ذهن المصري ، بقصد أو غير قصد ، و بغض النظر عن أهدافها و مراميها الحقيقية ، الا أنها كانت محفزا للمصريين .

3 ـ محمد علي و جهوده التعليمية :

عرفت مصر ، بعد خروج الحملة الفرنسية منها سنة 1801 م ، فوضى عمت البلاد كلها ، و بلغت ذروتها في القاهرة ، فقد كانت أحداث الشغب يومية بين الأمراء و الضباط والمماليك و الباشا ممثل السلطة العثمانية ، و المشايخ و الصوفية ثم القبائل فكان السكان يعيشون خوفا دائما ، نظرا لغياب السلطة التي صارت محط نزاع الأطراف الراغبة فيها .[1] و مع ذلك استطاع أحد الضباط المماليك ، من الفرقة الألبانية أن يبرز، في هذا الوضع ، و يجمع حوله مجموعة من الضباط الصغار و العساكر ، ولاحظ بثاقب بصره أن أهم عناصر الصراع هي الانكليز و السلطة العثمانية، و أن: ((هناك وراء الستار ـ قوة كامنة ترابة ثلاثة قرون ، وقد أيقظتها هذه الحملة الفرنسية ، وأن المستقبل لهذه القوة اذا وجدت من يأخذ بيدها و يقودها الى الخير.))[2] و هكذا

---

1) ـ أنظر في وصف هذه الحال كتاب الجبرتي(عجائب الآثار) الجزء السادس ، لجنة البيان العربي 1966 .

2) ـ د.الشيال (جمال الدين) - تاريخ الترجمة و الحركة الثقافية في عصر محمد علي، دار الفكر العربي ، القاهرة 1951 ، ص 5 .

[illegible] محمد علــي ، [illegible] و [illegible] [illegible] الرجال ، [illegible] الثورة على [illegible] - ممثل السلطة العثمانية - و [illegible] محمد علي واليا على مصر سنة ١٨٠٥م بمساعدة [illegible] من [illegible] العثمانية .

[illegible] محمد علي [illegible] من [illegible] : (1) [illegible] أولاً ثم [illegible] وضع المخطط للاصلاحات المختلفة ، التي [illegible] - التي [illegible] ، [illegible] في مصر ، و[illegible] ، [illegible] القديم و [illegible] له ، [illegible] الأولى بأن الاصلاح [illegible] من الغرب ، ولكنه في الوقت نفسه لم [illegible] عن الغرب [illegible] . (11)

[illegible] محمد علي [illegible] من [illegible] من الأمراء [illegible] ، [illegible] [illegible] ، [illegible] الاقاليم التي [illegible] من [illegible] و [illegible] على مصر ، [illegible] [illegible] من [illegible] - [illegible] ابراهيم باشا - [illegible] و [illegible] الجزيرة العربية [illegible] .

[illegible] محمد علي [illegible] على [illegible] في [illegible] و [illegible] [illegible] [illegible] الزراعة [illegible] و [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] التي [illegible] [illegible] من [illegible] و [illegible] من [illegible] و [illegible] [illegible] على [illegible] في [illegible] ، [illegible] التي [illegible] علمي و ثقافي [illegible] و [illegible] في [illegible] [illegible] ، [illegible] الذي كان [illegible] [illegible] أو [illegible] و [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ثم [illegible] الذين [illegible] من مدارس [illegible] ، ثم [illegible] من [illegible] في [illegible] ، و [illegible] [illegible]

---

(11) [illegible] (جمال الدين) : المرجع السابق ، ص ٥ .

الأوروبية الى العربية ثانيا . وعندما لاحظ أن هوءلاء الموظفين يكلفونه عبئا ماليا ثقيلا ، فهم يتقاضون رواتب مرتفعة ، ومنهم من لايجيد العربية اجادة تامة ولا بد مساعدته بالترجمة ، بالاضافة الى أن جلهم يجهل الوضع المصري ، فقرر تكوين نخبة من المصريين تكوينا علميا عاليا وعصريا ليتولوا بعد ذلك التدريس في المدارس الفنية ، وترجمة الكتب العلمية ، وادارة الادارة ، كان السبيل الوحيد للوصول الى هذا الهدف هو ارسال نفر من أبناء البلد النجباء الى أوروبا (1) فكانت بعثات محمد علي لاعداد الاطارات اللازمة لبناء دولة عصرية اتجهت في أوائل عهدها الى ايطاليا ، فسافرت الأولى سنة 1809 م . وتبعتها الثانية سنة 1813 م ، ثم تتالت بعد ذلك ، وترجمت بعض الكتب لايطالية الى العربية .(2)

تألم الفرنسيون كثيرا للمكانة التي وصلت اليها ايطالية واللغة الايطالية في بداية عهد محمد علي ، فراح القناصل والخبراء الفرنسيون القلائل في مصر يحثونه - هم من جهة والحكومة الفرنسية من جهة ثانية - على التعاون و :(.نجحت فرنسا في حلبة هذه المنافسة وألغيت اللغة الايطالية شيئا فشيئا من المدارس المصرية ، واستغني عن الضباط والمدرسين الايطاليين واستعيض عنهم بضباط ومدرسين فرنسيين ، وعدل عن ترجمة الكتب الايطالية ، وألغيت البعوث الايطالية ،فغدت ترسل - في معظمها - الى فرنسا ، وفي كلمة واحدة لقد تحولت مصر عن النقل عن الثقافة الايطالية الى النقل عن الثقافة الفرنسية ، وسيكون لهذا أثره الملحوظ كما ذكرنا ، فستظل مصر طول القرن التاسع عشر مصطبغة بالصبغة الفرنسية في شتى نواحيها التفكيرية ..) .(3) فأرسل في السنة التالية - 1826 م - بعثة ضخمة الى فرنسا تضم جملة من الشباب ، لعبوا فيما بعد دورا في بناء مصر ، منهم رفاعة الطهطاوي . .

---

1) - د. الشيال (جمال الدين) : المرجع السابق ص8-9

2 ()-د. محمد فوءاد شكري وآ رون : بناء دولة مصر محمد علي . دار الفكر العربي القاهرة 1948 ص100 -101

3)- د. الشيال (جمال الدين) : الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمدعلي ص 14..

4) -رفاعة الطهاوي الوسيط بين الثقافيين الفرنسية والعربية :

ا- حياته :ولد رفاعة بدوى الطهطاوي بقرية طهطا الصعيدية سنة 1801 - سنة خروج الحملة الفرنسية - تعلم في كتاب القرية ، وأوصله ذكاوءه الى الأزهر فتخرج منه " عالما" . ودرس في الأزهر على العديد من الشيوخ ، الا أن الأستاذ الوحيد الذي أثر فيه أثر بعيد ومهدله طريق الانفتاح على الثقافة الأوربية هو الشيخ حسن العطار الذي تعامل كثيرا مع نابليون في المجلس ، فكان أقرب تلاميذه اليه ، وألصقهم به وكانا يلتقيان خارج أوقات الدروس لتدارس علوم لم تكن انداك ضمن الثقافة الرسمية كالتاريخ والجغرافية والأدب .

لما طلب محمد علي من الشيخ حسن العطار - شيخ الأزهر انداك - أن يرشح لمواعظ الأول بعثة الى فرنسا ، رشح له تلميذه النجيب الطهطاوي الذي كان يتوسم فيه الخير ، فسافر الطهطاوي الى فرنسا اماما واعظا للبعثة المصرية ، متفتح الذهن لمعرفة الحياة الفرنسية التي حدثه عنها شيخه العطار .(1)

ب - الطهطاوي في فرنسا : سافر الطهطاوي الى فرنسا سنة 1826 م واعظا لأول بعثة مصرية الا أن ذكاءه وطموحه دفعاه الىالاستفادة من هذه السفرة ، فبدأ في تطبيق نصائح وارشادات شيخه العطار :((فلما رسم اسمي في جملة المسافرين ، وعزمت على التوجه أشار علي بعض الأقارب والمحبين ، لاسيما شيخنا العطار ، فانه مولع بسماع عجائب الاخبار، والاطلاع على غرائب الاثار ، أن أنبه على ما يقع في هذه السفرة ، وعلى ماأراهوماأصادفه من الأمور العربية والاشياء العجيبة ، وأن أقيده ليكون نافعالي كشف القناع ، عن محيا هذه البقاع التي يقال فيها أنها عرائس الأقطار ، وليبقى داليلا يهتدى به الى السفر اليها طلاب الأسفار خصوصا وأنه من أول الزمن الى الان لم يظهر باللغة العربية - على حسب ظني - شيءفيتاريخمدينةباريس

1) - استقيت ترجمة الطهطاوي من الكتابين التاليين :

- د. الشيال(جمال الدين) : المرجع السابق ص 120 -146

- د. حجازى (محمود فهمي) : أصول الفكر العربي الحديث عند الطهاوي . ص 5 -33 .

كرسي مملكة الفرنسيس و لا في تعريف أحوالها و أحوال أهلها .)) (1)

ورأى في فرنسا العجب ، وبخاصة في باريس :((مدة الاقامة في هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية والفنون والعدل العجيب والانصاف الغريب الذى يحق أن يكون من باب أولى في ديار الاسلام وبلاد شريعة النبي صلى الله عليه وسلم)). (2)

لقد رأى أمورا خليق بها أن تكون في أرض الاسلام ، وهذا دليل على شدة اعجابه بفرنسا ، ذلك الاعجاب الذي جعله يصف باريس وأهلها فوصف النظام السياسي ودستورهم . ثم وصف المساكن والمأكل والمشرب والعادات والملابس ، والمتنزهات، واعتناء أهل باريس بأبدانهم وبالعلوم وفعلهم الخير ، وتقدمهم في الفنون والصنائع ، فكانت عبارات الاعجاب بما يرى تتوالى .ثم انتقل الى الحديث عن البعثة ونظامها وبرنامجها الدراسي ، ليشرع بعد ذلك في الحديث عن نفسه وعن تعلمه ، فيسرد العلوم التي قرأها ، وعلى من قرأها : من لغة فرنسية الى تاريخ وفلسفة وجغرافية ، أما في الأدب فيقول :((وقرأت كثيرا من كتب الأدب فمنها مجموع نويل ومنها عدة مواضع من ديوان ولتير وديوان رسين وديوان رسو خصوصا مراسلاته الفارسية التي يعرف بها الفرق بين آداب الافرنج والعجم وهي أشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية . (...) وبالجملة فقد اطلعت في آداب الفرنساوية على كثير من موءلفاتها الشهيرة .)) (3)

درس في باريس العديد من العلوم والفنون ، كما درس الكثير من الموءلفات الأدبية الشهيرة وشرع -هناك - في ترجمة العديد مما قرأ من المؤلفات. وكانت اقامته بباريس نقطة تحول في حياته ، فقد تعلم اللغة الفرنسية ، كما تعلم الكثير من العلوم والفنون ، ودرس العديد من الموءلفات الأدبية الشهيرة ، فعاد الى مصر سنة 1831 م بعقل جديد ورغبة في التغيير

---

1) - الطهطاوي : تخليص الابريز في تلخيص باريز . منشور ضمن كتاب الدكتور محمود فهمي حجازي : أصول الفكر العربي الحديث عند الطهاوي . ص 140 - 141

2)- الطهطاوي :المرجع السابق ص 165

3)- الطهطاوي : المرجع السابق ص 334

مزودا بتلك المعارف ومعجبا بفرنسا مجتمعا ونظامـــا .

جـ نشاطــه : حظي الطهطاوى برضى محمد علي لجده واجتهـــاده في التعليم بفرنســـا واتقانه اللغة الفرنسية ، ومكنه ذلك الرضى من تنفيذ مشاريع أهمها :

1ـ في الترجمة : فور عودته عين سنة 1831 م مترجما من اللغة الفرنسية بمدرســـة الطب بأبي زعبل ثم بمدرسة المدفعية بطره ، فترجم العديد من المؤلفات العلميـــة في المعادن والهندسة والجغرافية ... الخ.وترجم أيضا رواية الأب فينيلون بعنوان :" مواقع الافلاك في حوادث تليماك" فيقدم بذلك أول أثر أدبي فرنسي للقارىء العربي سنة 1850م .

2ـ التعليم : تعددت جهود الطهطاوي التعليمية ، فمن ترجمة الكتب المدرسية الى تعليم العديد من العلوم واللغتين العربية والفرنسية والترجمة ، الى الاشراف على العديد من المدارس وتأسيس البعض منها مثل مدرسة الألسن (1835م) لتكون مدرسة المترجمين ، الى تأليف الكتب المدرسية مثل كتاب " جغرافية عمومي في كيفية الأرض " وكتاب " التحفة المكتبية لتقريـــب اللغة العربية " وكتاب " المرشد الأمين للبنات والبنين " فيكون أول مؤلف للكتـــب التعليمية على الطرق الحديثة ، كما يكون أول مهتم بتعليم البنات ، كما هو واضح من عنوان كتابه " المرشد الأمين للبنات والبنيـن ".

3ـ الصحافة والتأليف :

الى جانب الأعمال السالفة الذكر ، تولى الطهطاوى سنة 1841م الاشراف على القســم العربي من مجلة الوقائع المصرية ، فعمل على تعريبها كلية بكتابة العديد من المقـــالات أوترجمتها الى العربية . كما ألف العديد من الكتب في مختلف المجالات الفكرية مثل " تخليـــص الابريز في تلخيص باريز الذى يعد صورة لفرنسا ونظامها ، مع ترجمة نص دستورها . وكتـاب " منهاج الألباب المصرية في الاداب العصرية " ضمنه مقالات في الفكر السياسي والاقتصـــادي والاجتمـاعـي .

وأسس سنة 1870م مجلة "روضة المدارس " - وهي نصف شهرية - لتثقيف المعلمين والطلبة ، فنشر فيها المقالات العديدة من تأليفه أو ترجمته ركز فيها على تقديم العلوم والحياة العصرية لقرائه ، فكانت هذه المجلة من أهم المعالم الثقافية المتفتحة في القرن التاسع عشر. وكانت وفاة الطهطاوي سنة 1873م ، بعدما خلف العديد من المدارس والكتب بين موءلفة ومترجمة ومجلة نصف شهرية ، وتلاميذ معجبين بشيخهم يعدون بالالاف ، سيعملون على انجاز أفكاره ، فيوءسسون - بالاضافة الى الشاميين المسيحيين - المطابع و المجلات الخاصة ، و ينشطون الترجمة ، و يعملون على تاسيس موءسسات تعليمية حديثة ، مثل مدرسة الحقوق و مدرسة دار العلوم لتكوين المعلمين على الطرق الحديثة ، و التي لازالت قائمة حتى يومنا هذا، مع نزوعها التاريخي الى الاعجاب بالثقافة الفرنسية ، و الدليل على ذلك أنها رائدة الأدب المقارن في الوطن العربي ، فمنها تخرج الدكتور محمد غنيمي هلال و فيها درس ، بعدما أكمل دراسته في فرنسا .

خلاصة القول أن الثقافة الفرنسية بدأت تتسرب الى الوطن العربي منذ قرنين على الأقل ، عن طريق منافذ عديدة أهمها :

الارساليات التبشيرية منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر (1649)، و الحملة الفرنسية على مصر ، بما حملت معها من أفكار و نظم و وسائل ثقافية كالمطبعة و المجمع العلمي و استعانتها بالبعض من المسيحيين المصريين أو الشاميين خريجي مدارس الارساليات، و محمد علي بدولته العصرية التي نحا في تأسيسها و تنظيمها منحى الدول الأوروبية فأسس المدارس و ترجم العلوم و الفنون ، و أرسل البعثات الطلابية للتعلم في أوروبا بصفة عامة و فرنسا بصفة خاصة . و أخيرا رفاعة الطهطاوي الذي أعجب كثيرا بفرنسا فحاول طيلة أربعين سنة من التعليم و الترجمة و التأليف أن يحتذي النموذج الفرنسي في العلم و الثقافة .

و كانت نتيجة كل ذلك،أن تأسست مطابع عديدة في الشام و مصر ، و صدرت مجلات و جرائد ، و احتاجت المطابع و المجلات و الجرائد الى مادة للنشر ، فظهرت كتب

عديدة علمية و أدبية ، نسبة كبيرة منها مترجمة عن الفرنسية . كما تأسست مؤسسات تعليمية مدنية حديثة . وهكذا تعددت الوسائط و مصادر الثقافة الفرنسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في مصر و الشام ، و بدأ المثقف العربي يطلع باستمرار على الثقافة الفرنسية ، ليتجلى ذلك الاطلاع في تأثر الأدب العربي الحديث بالأدب الفرنسي في مختلف فنونه كالنقد ، حيث ستظهر أسماء لنقاد عرب بدأت أصداء النقد الفرنسي تظهر في كتاباتهم منهم : الشيخ نجيب الحداد و محمد روحي الخالدي و قسطاكي الحمصي .

ثانيا :

أصداء النقد الفرنسي في النقد العربي أواخر القرن التاسع عشر

1) - الشيخ نجيب الحداد :

حياتـه وآثـاره :

ولد نجيب سليمان الحداد ببيروت في 25 فبراير 1867م من أسرة كاثوليكية شهيـرة وتوفي بمرض السل في الاسكندرية 1899م . (1) وتربى في أسرة الحداد الكاثوليكية وأسرة اليازجي المعروفة بعلمها ، من جهة أمه ، ودرس في مدارس الفرير الكاثوليكية العربية والفرنسية . وعنـد انتقال أسرته الى الاسكندرية واصل تعلمه في الأجواء نفسها حتى أجاد اللغتين ، وأبدى منذ صغره ذكاء وميلا أدبيا واضحا ، فاستدعاه سليم تقلا مؤسس الأهرام سنة 1884 م للعمل محررا فـي الجريدة ، فعمل بها محررا طيلة عشر سنوات كاتب مقالة صحفية ومترجما وشاعرا ، ليؤسس بعد ذلك مع أخيه " أمين" جريدة " لسان العرب " ومع غالب طليمات ، بعد ذلك ، جريدة " السلام"، وتكون مجلة (أنيس الجليس) النسائية آخر مجلة يشارك في تحريرها سنة 1898 م .

كتب الحداد طيلة خمس عشرة سنة في مختلف الأجناس الأدبية ، فكتب المقالة بمختلـف أغراضها في الجرائد والمجلات التي ساهم في تحريرها : (فأنتجت منها قريحته روائع وطرائـف طارت شهرته وبعد صيته) (2) وأصبح علما من أعلام المقالة ، وجمعت مجموعة منها في كتـاب بعنوان " منتخبات الحداد " : (طبعت مرات لتهافت الناشئين عليها . كانت مثالا لنا في ذلك الزمن نطبع على غراره ، أما موضوع هذه المقالات فمعظمه أدبي اجتماعي ، لأن معالجة القضايا الأخلاقية كانت أغلب في ذلك العصر . وفيها أيضا مقالات عديدة ، سياسية وفيها حكايات وملـح ، وقصائد معربة عن الفرنسية ، وكلها ذات مغزى ترمي الى غرض أدبـي اجتماعي) (3)

1 - حول ترجمة نجيب الحداد أنظر :

- العقيقي (نجيب) : من الأدب المقارن ج 2 ص 245 - 246

- عبود (مارون) : رواد النهضة الحديثة ص 192

- د. الحسيني (اسحاق موسى) : النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين ص15

- سامي سبانخ اليافي (ادوار) : نجيب الحداد المترجم المسرحي ص 16 - 21

2) - عبود (مارون) : رواد النهضة الحديثة ص 192

3) - عبود (مارون) : المرجع السابق ص 194 .

طرق الحداد في مقالاته مواضيع اجتماعية ، فتحدث عن الفقر والغنى ، والطبقيـــــة وأضرار الخمر وعن المودة وتحرير المرأة ... الى غير ذلك ، وكتب في مواضيع سياسية ،فحمل حملات شعواء على الانكليز ، ممجدا الفرنسيين ، حاثا العرب على التحرر من النير العثماني فكان بذلك من رواد فكرة القومية العربيـة اقتداء بالفرنسيين ونمطهم في بناء قوميتهم ودولتهم العظيمـــة .

وكتب كذلك عن موضوعات أدبية ، فكتب عن الأدب وأهميته ودوره في المجتمع وعن الصحافة والمسرح والتجديد في النثر والشعر ، ضاربا أمثلة بالأدب الفرنسي الذي كان معجبا بـــــه شـــــــــديد الاعجاب لدرجة قوله بأن فيكتور هيغو : ((وصف معركة واترلو ما لا يقـــدر شاعر عربي على الاتيان بنظيره .)) ، [1] وتصريح مثل هذا ، في أمة تعتبر نفسها أشعــــر أمة ، وفي أواخر القرن التاسع عشر بالذات ، لدليل قاطع على مدى اعجاب الحداد بالأدب الفرنسي ، حتى لا نقول التعصب له .

كان اذن ، يصدر في مقالاته عن اعجاب بالثقافة الفرنسية ، فترجم منها الكثير مـــن النصوص الأدبية أهمها تلك المسرحيات التي تناهز العشرين مابين معربة ومترجمة من أصــــل لغوي واحد هو اللغة الفرنسية (2)

وكتب القصة ، فألف وعرب وترجم العديد من القصص مثل الفرسـان الثلاثـة ، و جـــل قصصه المعربة أو المترجمة من أصل فرنسي أيضا كما كتب العديد من القصائد الشعريـــة ، منها المنشور في مختاراته ، وجلها منشور في ديوان بعنوان (تذكار الصبا . الاسكندريــــة 1899م) .يحس قارىء آثار الحداد بمدى تأثره بالأدب الفرنسي ، وتتجلى ذروة تأثره في

1)ـ الحداد(نجيب): مقابلة بين الشعر العربي و الشعر الافرنجي ، منشورة ضمن كتاب " مختـارات المنفلوطـــي ، ص 137 .

2) ـ حـول هذا المـوضوع يـراجـع :

ـ نجم (محمد يوسف) : المسرحية في الأدب العربي الحديث، دار الثقافة بيروت ط3 1980

ـ الحداد (نجيب) :مسرحياته (اختيار وتقديم د. محمد يوسف نجم) دار الثقافة بيـروت

ـ سامي سبانخ (ادوار) : نجيب الحداد المترجم المسرحي. معهد البحوث والدراسات العربية

مقالته الشهيرة : ((مقابلة بين الشعر العربي و الشعر الافرنجي)) .

الحداد و النقد الفرنسي :

لم يكن الحداد ناقدا ، بل كان كاتب مقالة أولا ، و كاتبا مسرحيا و قصصيا ثانيا ، وشاعرا في الأخير ، و لكن كتابة المقالة جعلته يتعرض للعديد من الموضوعات . وفي هذا السياق كتب سنة 1897م مقالته السالفة الذكر ، و نشرها في مجلة " الجنان " بطلب من خاله ابراهيم اليازجي : ((و قد سألني من لا تسعني مخالفته أن أستعين بما توصلت اليه من قراءة الشعرين العربي و الافرنجي على وضع مقالة أبين فيها المقابلة بينهما و أتكلم عن الفرق بيننا و بين أهل الغرب في معاني الشعر و أنواع ايراده و أذواق ناظميه وطرائق البيان في مآخذه ، و ابراز المقاصد منه الى ما يتصل بذلك من قواعد نظمه اللفظية و المعنوية عند كل من الفريقين ، هو ولا شك مطلب عسير و نية بعيدة تقف دون غايتها سوابق الأقلام .)) (1)

طلب منه خاله أن يكتب هذه المقالة ، في هذا الموضوع الصعب ، لعلمه بملكة و قدرة ابن أخته الشعرية ، و تمكنه من اللغتين العربية و الفرنسية . و ذلك ما يؤكده الحداد نفسه : ((و لقد أولعت بهذا الفن منذ الصبا و صرفت له من أوقات الفراغ برهة طويلة قرأت فيها دواوين العرب و نظم المجيدين من شعرائهم ، ثم قرأت كثيرا من شعر الفرنسيين و شعر غيرهم منقولا الى لغتهم)) (2) . و يستجيب الحداد لمطلب خاله ، فيكتب المقالة موازنا فيها بين الشعرين العربي و الفرنسي ، بادئا بتعريف الشعر قائلا :

((الشعر هو الفن الذي ينقل الفكر من عالم الحس الى عالم الخيال . و الكلام الذي يصور أرق شعائر القلوب على إبدع مثال . و الحقيقة التي تلبس أحيانا أثواب المجاز . و المعنى الكبير الذي تبرزه الأفكار في أحسن قوالب الايجاز . و أخفى وجدانات النفس تتمثل للمرء فيحسبها سهلة و هي منتهى الابداع و الاعجاز . بل هو الأنة التي تخرج من قلب الثكلان . و النغمة التي يترنح لترديدها الطروب النشوان . و الشكوى التي تخفف لوعة الشاكي

(1) ـ الحداد (نجيب) : مقابلة بين الشعر العربي و الشعر الافرنجي ، ص 121 ـ 122 .

(2) ـ الحداد (نجيب) : المرجع السابق ، ص 121

ويأنـس بها المحب الولهان . بل هو الحكمة يجدها الحكيم فيبرزها بما يليق بها من محاسن اللفظ ، ويوازن بين أجزائها موازنة تحبب ورودها على الأذن وتقرب منالها من الحفـظ. والجمال تراه العين فتحب أن تحفظ ذكراه فتبقيه صورة ماثلة يراه من لم يكن قدرآه .)) (1)

من التمعن في هذا التعريف، أو هذه التعاريف نلاحظ أن المضمون هو أساس حد الشعر عند الحداد، فالشعر عنده : فن وتصوير لشعائر القلوب وأنه ونغمة وحكمة وجمال . وهـذه التعابير جمعاء لا تخرج عن المضمون ، وهو مضمون جديد بالنسبة للتراث الشعري العربـي أو النقدي العربي الذي تعود على تسميات أخرى للمضامين الشعرية كالرثاء والوصف والمـدح والهجـاء ... وغيـر ذلـك .

كما نلاحظ أنه لم يحفل كثيرا بالشكل الذي أولاه التراث الشعري أو النقدي العربـي اهتماما كبيـرا .

ونلاحظ أيضا أن مضمون الشعر عنده يرشح بروءبـة رومـا نتيكية ، فهـو فن الانتقـال من عالم الحس الى عالم الخيال ، وتصوير أرق شعائـر القلوب ، وأخفى وجدانات النفـس وأنة الثكلان ، ونغمة النشوان ، ولوعة الشاكي والمحب الولهان ، والجمال الذي تحـب العين أن تحفظ ذكراه . انها تعابير عاطفية جديدة ، وظفها الحداد لتعريف الشعر ، فجـاء تعريفه روما نتيكيا ، نقل الشعر من وظيفة النظم والاطراب الى وظيفة التعبير عن الاحاسيـس والشعور ، وبذلك يقدم مفهومـا جديدا للشعر ، وبالتالي مفهوماجديدا للشاعرية ، تنتـج عنهما بالضرورة مقاييس جديـدة لدراسة الشعر والعملية الشعرية ، أي مقاييس نقديـة جديدة في التعامل مع النص الشعري .

ومن هنا بدأت تظهر شيئافشيئا مصطلحات نقديـة جديـدة في التعامـل مع النـص الشعري مثل : الصورة الشعرية: الصورة النفسية ، وحدة الموضوع ، وحدة المضمون ، الصـدق

---

1) _ الحداد (نجيب) : المرجع السابق ، ص 120 121 .

الفني ، الصدق الواقعي ... الخ وكلها مصطلحات تهدف أولا الى دراسة المضمون. ويتعرض بعد ذلك الى قضية ترجمة الشعر أو نقل المعاني الشعرية الى قوالب نثرية ضمن عمليـة الترجمة ، فيبرز صعوبة العملية ، وأثرها السيء في افقاد المعاني والصور الشعرية ، اذا مارست العملية بين لغتين لا تنتميان الى أصل لغوي واحد. اذا كان قصده من هذه الاشـارة الاعتذار المسبق ، والحيطة للنقص الذي قد يلحق عمله هذا عند موازنته بين الشعرين العربـي والافرنجي ، ونقله معاني شعرية افرنجية ومقارنتها بالمعاني العربية ، فقد أشار بذلـك قضية مهمة جدا في الدرس الأدبي ، هي قضية الترجمة في الشعر ودورها في افقاد الصـور والمعاني الشعرية اثر الترجمة من لغة الى أخرى ، اللهم الا اذا كانت اللغة المترجم اليها من أصل لغوي واحد للغة المترجم منها فتشتركان في البناء اللغوي العام ، فتتقارب التراكيب اللغوية بينهما ، الأمر الذي يسهل نقل المعاني أو الصور من بناء ووضعها في بناء مماثل في اللغة المترجـم اليهـا .(1)

بعد هذا التعريف الجديد للشعر ، والاعتذار المسبق عما قد يشوب حديثه عن الشعر الافرنجي من ثغرات أساسها صعوبة نقل المعاني الشعرية بين لغتين مختلفتي الأصل ، ينتقل الـى تحديد أصل الشعر ومراحله عند العرب والافرنج: ((ودرجات ارتقائه في سلم الكمال من حيث نشأته الى هذا العهد وماتقلب عليه من أحوال المعاني وشؤونها بتقلب الأيام على أصحابه من الشعوب ، اذ هو مرآة الأخلاق وتاريخ ماكانت عليه الأمم في مراقي تقدمها وحضارتهـا الى الآن . وأبدأ من ذلك بما يقوله الافرنج عن أصل الشعر عندهم)).(2) ويذكر أن الشعـر الافرنجي مر بثلاث مراحـل :

المرحلة الأولى وتمثل عهد الأولين عندما كانت البشرية تعيش أسرا في حياة مشاعيـة بسيطة ، شعرها غنـاء .

---

(1) - الحداد (نجيب) : المرجع السابق ص 123

(2) - الحداد (نجيب) المرجع السابق ص 124

المرحلة الثانية ، وتمثل مرحلة انتقال البشرية من النظام الأسري البسيط الى النظام القبلي ، فاحتل الامير أو الملك منصب رب الأسرة ، وقامت الحروب بين القبائل والممالك فصور الشعر تلك الأحداث والوقائع وصار بذلك تأريخا وخرافة ، وكان الشعر الملحمي .
المرحلة الثالثة وهي مرحلة النصرانية التي ارتقى فيها عقل الانسان من حال الى حال ، وانت الشعر عنده من دائرة الوهم الى حد الحقيقة ، فأصبح الشعر تصويرا للواقع الانساني[1] منتقلا بذلك من شعر ملحمي الى شعر درامي أما الشعر العربي فهو : ((شعر منفرد في نفسه نشـ في بلاد العرب بخصوصها و أجراه الله على ألسنة العرب وحدهم دون غيرهم لم يأخذوه عن أحد متسلسلا كما أخذ الافرنج شعرهم عن اليونان و الرومان و من قبلهما و لم يأخذ أحد عنهم كما أخذ عن غيرهم ، بل بقي منحصرا فيهم فتناولوه ارثا عن الطبيعة في بداوتهم و لم يورثوه أحدا من غير قبائلهم و الناطقين بلسانهم (...) و كان شعرهم في أول أمره مقصورا على حوادث أنفسهم و الابانة عما يكنه الشاعر من شكوى أو وجدان أو حكاية واقعة غرامية أو حماسة يبرزون المعاني الشعرية في ذلك كله كما تصور لهـ نفوسهم مجردة عن الاختلاق ودعوى غير الحقيقة وحكاية حوادث وهمية .)) (2)

نشأ الشعر العربي اذن في البيئة العربية أرثا عن الطبيعة إ فلم يرثـ العرب عن غيرهم ،ولم يورثوه أحدا ، فتلاءمت هذه النشأة مع طبيعة الشعر العربـ النابعة من طبيعة البيئة العربية الصحراوية ، فكان شعراواقعيا محسوسا ، لا يحفـ بالمجردات أو الغيبيات ، ومن ثم لم يتطور تطورا ملحوظا شكلا أو مضمونا لا رتباطـه بالبيئة العربية التي لم تعرف هي الأخرى تطورات كبيـرة .

---

1) ـ الحداد (نجيب) :المرجع السابق،ص 124ـ 127. *Hugo(victor) : cromwel (Preface). GFlammarion(GF) Paris 1968-PP 68- 67 .*

2)ـ الحداد (نجيب) : المرجع السابق ص 128 ـ129.

من دراسته أصل الشعر العربي والافرنجي وتطورهما ، رأى الحداد أن الفرق الفاصل بين الشعرين نوعان : لفظي ومعنوي .

1) - الفرق اللفظي بين الشعرين ويكمن في بنائهما الموسيقي ، حيث يتكون وزن الشعر عند الافرنج من أهجية لفظية أساسها النبرة الصوتية المؤلفة من حرف مد منفرد أو حرف مد مقترن بحرف صحيح ، ويسمون تلك النبرات الصوتية " أقداما " ، فالبيت الشعري الافرنجي يتألف من مجموعة أقدام أطولها البحر " الاسكندري " ذو الاثني عشر هجاء وأقصرها من هجاء واحد .وفي وسع شاعرهم أن ينتقل في قصيدته بين عدة بحور حسب الإرادة ، كما أن القافية عندهم متعددة في القصيدة الواحدة ، الأمر الذي يتيح للشاعر الافرنجي الكثير من حرية التصرف في بناء قصيدته ، عكس الشاعر العربي ، الذي يقيده وزن واحد وقافية واحدة في القصيدة الواحدة .

2)- تتمم هذه الفروق اللفظية بين الشعرين فروق معنوية ، فالافرنج : ((يلتزمون الحقائق في نظمهم التزاما شديدا ويبعدون عن المبالغة والاطراء بعدا شاسعا ، فلاتكاد تجدلهم غلوا ولا اغراقا ولا تشبيها بعيدا ولا استعارة خفية ولا خروجا عن حد الجائز المقبول من المعاني الشعرية في جميع وجوهها ومقاصدها فهم من هذا القبيل أشبه بالعرب في جاهليتهم اذا مدحوا لم يبالغوا واذا وصفوا لم يغربوا وإذا شبهوا لم يبعدوا في التشبيه واذا رثوا لم يتعدوا صفات المرثي وأخلاقه في المعاني السهلة المقبولة .))(1)

ومن العيوب المعنوية أيضا ، أن الافرنج لا يقدمون شيئا بين أيدي أغراضهم الشعرية ، ويتجافون عن الفخر في قصائدهم ولا يستعملون المدح في كلامهم بل يعدونه عيبا ونقصا . كما أنهم ينفردون دوننا بنظم الروايات التمثيلية ، ويعدونها من أبواب الشعر وأسمى درجاته ، ففي نظم الروايات الشعرية من الدلالة على الفضل والابداع أكثر مما في نظم الديوان من القصائد والمقطعات .(2)

---

1) - الحداد (نجيب) : المرجع السابق ص 133

2) - الحداد (نجيب) : المرجع السابق ص 135 - 136 .

ان كل هذه الفروق -وتمثل خصائص الشعر الافرنجي - تؤدي الى فرق جوهري بين طبيعة الشعر العربي والافرنجي له أهميته البالغة في المجال النقدي ، اذ صارت طبيعة الشعر منطلقا نقديا للعديد من النقادفي دراسة الشعر العربي ، يتلخص حسب قول الحداد في :

((أننا نفوقهم في وصف الشيء وهم يفوقو ننا في وصف الحالة ، أي أننا اذا وصفنا الأسد أو الفرس أو القصر أو الفتى الجميل أو الغادة الحسناء أتينا في ذلك بأحسن مما يأتون به وتوسعنا فيه توسعا لا يقدرونهم على الاتيان به . وأنهم اذا وصفوا حالة من قتال رجلين أومعركة جيشين أو مقابلة محبين أو غرق سفينة أو مصاب قوم جاءوا في ذلك بأحسن مما نجيء به وتوسعوا فيه بما لا نقدر أن نسبقهم بمثله - ومثل ذلك أن المتنبي وصف الأسد بما لا يقدر افرنجي على وصفه بمثله ؛ وهيجو وصف معركة واترلو بما لا يقدر شاعر عربي على الاتيان بنظيره فهم بذلك أقدر على تصوير الوقائع ونحن أقدر على تصوير الاعيان .)) (1)

أدرك الحداد العلاقة النفسية القوية بين الشاعر الافرنجي وموضوع شعره ، لدرجة أنه أقدر من غيره على تصوير مشاعره وأحاسيسه ازاء موضوعه الشعري ، وبذلك تكون قيمة الشعر الافرنجي في مضمونه .أما علاقة الشاعر العربي النفسية بموضوعه الشعري ، فهي أضعف ، لدرجة أنه يركز على وصف عناصر موضوعه الخارجية وعلى اجادة البناء اللفظي البلاغي ، وبذلك تكون قيمة الشعر العربي في بنائه الفني أي في شكله ، وليس في مضمونه . لقد أورد الحداد في مقالته كل هذه الأفكار النقدية السالفة الذكر ، في نهاية القرن التاسع عشر ، وفي وقت كان النقد الأدبي لا يتعدى المماحكات اللغوية والبلاغية في الأزهر والمعاهد الدينية (2)

---

(1) - الحداد (نجيب) : المرجع السابق ص 137 .

2) - د. الأمين (عزالدين) :نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر، ص 44 .

مستوحيا أفكاره تلك من النقد الفرنسي : ((وأبدأ من ذلك بما يقوله الافرنج عن أصل الشعر عندهم وكيفية تدرجه ووصوله اليهم على سلسلة أول حلقاتها بدء الشعر في العالم منذ عهد آبائنا الأولين وآخرها ماصار اليه على عهد شعرائهم في هذا العصر نقلا عن فيكتور هيجو أكبر شعراء الفرنسيس وأشهرهم .))(1)

تأثر الحداد بفيكتور هيجو كثيرا ، فترجم له المسرحيات ، وأخذعنه فكرة ارتباط الادب بالمجتمع وتطورهما المترابط في مراحل :((حيث ان الشعر ملتصق دوما بالمجتمع ، فاننا سنحاول أن نبين من خلال شكل المجتمع طابع الشعر في هذه العهود الثلاثة الكبرى للعالم : العصور البدائية ،العصور القديمة / العصور الحديثة .)) (2)كما أخذعنه بقية الأفكار النقدية التي قدمها للقارىء العربي ، مع النموذج الشعري الافرنجي وخصائصه ، مع تبيان محاسنه الكثيرة ومساوئه . وأهم الافكار النقدية الجديدة ارتباط الشعر بالمجتمع وصدوره عنه ، فاستنتج من جراء ذلك أن الشعر العربي مادي يصور الاشياء ولا يصور الحالات . ولما كانت الاشياء جامدة فان الشاعر العربي تغلب على ذلك الجمود بالصنعة اللفظية ، فجاء شعره يحفل بالشكل على حساب المضمون . وبين كذلك أن البناء الموسيقي للشعر العربي قيد يحده بقيود الوزن والقافية ، ولذلك لم ينظم العرب المطولات والملاحم ، فبيئتهم جرداء تحد الخيال ونظامهم الشعري يختنق ما تجاوز البيئة الجرداء .

انها جملة من الافكار النقدية كان لها أثرها في النقد العربي في الدراسات اللاحقة وهي في مجملها ، وبغض النظر عن موقفنا منها ،ثمرة من ثمار تأثر الحداد بالنقد الفرنسي، فأصبح بذلك وسيطا بينه وبين النقد العربي . وبذلك نستطيع القول أن الحداد غذى النقد العربي الحديث بمصطلحات ومفاهيم نقدية رومانتيكية نقلها من النقد الفرنسي ضمن انبهاره

---

(1)- الحداد (نجيب) : المرجع السابق ص 124 -125

2)- hugo(victor) : Cromwell Preface(G. Flammarion. Paris1968 P.63

بالثقافة الفرنسية بصفة عامة والأدب بصفة خاصة ، مبينا ضيق آفاق الشعر العربي الابداعية ، مقارنة بآفاق الشعر الافرنجي ، فدفع بذلك من والاه من العرب الى الاقتداء بالشعر الإفرنجي ، كما دفع من خالفه الى اعمال الفكر في تبيان خطئه ، فكان بذلك دافعا للفريقين الى التفكير واعادة النظر في العديد من القضايا الأدبية عموما والنقدية بصفة خاصة .

2- محمد روحي الخالدي المقدسي :

- حياته وآثاره :

ولد محمد روحي بن ياسين بن محمد الخالدي المقدسي . في مدينة القدس سنة 1864 م من أسرة الديري الشهيرة بالعلم والفضل ، وتوفي في سنة 1913م . (1) بدأ تعلمه الابتدائي في مدينة القدس ، ليواصله في مدينة نابلس وأخيرا طرابلس الغرب في المدرسة الوطنية التي كانت تعتمد وسائل التعليم الحديثة والفنون العصرية . التقى خلال سفره الى الاستانة 1880م ، مع عمه عبد الرحمن نافذ أفندي الخالدي ، بشيخ الاسلام عرياني زاده أحمد أسعد أفندي الذي أعجب بذكاء الفتى وشجعه كثيرا على طلب العلم والمعرفة ، فلما عاد الى بيت المقدس : أخذ يحضر دروس المسجد الأقصى ، ويتلقى فيه علوم الفقه والتوحيد والحديث والنحو والصرف والمنطق والبيان والبديع ، ويتردد على مدرسة الأليانس، ومدرسة الرهبان البيض (الصلاحية) ليتقن اللغة الفرنسية .)) (2) فجمع بين التعليمين العربي في المدارس الحكومية ودروس المسجد الأقصى ، و الفرنسي في مدرسة الأليانس الاسرائيلية ومدرسة الآباء البيض. واصل تعلمه الثانوي في بيروت ، والعالي في الاستانة في المكتب الملكي الشاهاني للعلوم السياسية والادارة . لما أدرك أن شهاداته العثمانية لاترضي طموحه ، هجر الوظيفة وسافر الى فرنسا ، ليلتحق بمدرسة العلوم السياسية في باريس فأتم دروسها في ثلاث سنوات ، كما درس في الوقت نفسه فلسفة العلوم

1)- حول ترجمة الخالدي أنظر :

- د. الحسيني (موسى اسحاق) : النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين ص33
- د. الأسد (ناصر الدين) : محمد روحي الخالدي ، رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة 1970 ص25 - 46
- د. السوافيري(كامل) : الأدب العربي المعاصر في فلسطين دار المعارف .مصر 1979ص 275

2)- د. الأسد (ناصر الدين) : محمد روحي الخالدي ص 32 .

الاسلامية والآداب الشرقية بجامعة السوربون ، التي تتلمذ فيها على مشاهير العلوم السياسية ، وتعرف على المستشرقين فتوثقت صلته بهم ، وعرفوا فضله وعلمه ، فدعوه الى الاشتراك في مؤتمراتهم والقاء المحاضرات في اجتماعاتهم ، كما عين مدرسا في جمعية نشر اللغات الاجنبية في باريس .

وعين سنة 1898 م قنصلا عاما للخلافة العثمانية في مدينة بوردو وتوابعها ،فمكث في منصبه نحو عشر سنوات تزوج خلالها من سيدة فرنسية . ثم عاد بعد ذلك الى بلده ، فانتخب نائبا عن القدس في مجلس النواب العثماني حتى وفاته .

استطاع الخالدي أن يظفر بتعليم عصري عال ، فأتقن اللغة العربية والفرنسية والتركية ، كما درس العلوم السياسية والادارية والتاريخ والآداب الشرقية في جامعة السوربون . وأقام في فرنسا حوالى ثلاث عشرة سنة ، احتك خلالها بالحياة الثقافية والاجتماعية ، فكانت نتيجة ذلك العديد من الكتب والدراسات والمقالات في مختلف العلوم ، يهمنا منها كتابه الفريد في عصره " تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب وفيكتور هيجو " الذي يعد بحق ((كتابا في الأدب المقارن عند الافرنج والعرب تخلله نظرات في النقد الأدبي ، فكان أول دراسة مطولة في الأدب الحديث بعد البحث الموجز الذي وضعه نجيب الحداد .)) (1)

- كتاب تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب وفيكتور هيجو :

خلال اقامة الخالدي بفرنسا ، وفي سنة 1902 م بالذات ،احتفلت فرنسا

---

1) - د. الحسيني (اسحاق موسى) : النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين ص 33 - 34 .

بالذكرى المائوية لميلاد شاعرها فيكتور هيجو، تزينت مدينة باريس والمدن التي لها علاقة ما بفيكتور هيجو، كتبت عنه الصحف والمجلات المقالات العديدة، وأصدرت دور النشر له و عنه العديد من المؤلفات، وقدمت عروض مسرحية وفنية.

وفي السادس والعشرين فبراير من السنة المذكورة: ((ابتدأ موسم الاحتفال بيوبيل هذا الشاعر واجتمع في البانتيون الرؤساء والسفراء والعلماء والشعراء والمشخصون والمشخصات وكل من اشتهر في باريس من الرجال والنساء وأكثرهم بالألبسة الرسمية والعسكرية والكساوي العلمية والقضائية موشحون بوسامات الافتخار (...) ثم أنشد بعض المشخصين والممثلات شيئا من قصائد فيكتور هوكو وتلوا أجزاء من أحاديثه وانفض الجمع ليستأنفوا الاحتفال في مواضع أخرى من باريس لأن حفلة البانتيون لم تكن الا افتتاح موسم أدبي في عموم البلاد الفرنساوية ودامت الزينات والافراح فيها سبعة أيـــام ولياليها وهم في كل يوم وليلة يرفعون الاعلام ويضيئون الانوار يجمعون الجموع ويلقون الخطب ويأدبون المآدب ويشربون النخب يمثلون على المراسح الروايات))[1] وكان الخالدي من بين المشاركين في هذا الاحتفال بوصفه رئيس جمعية قناصل مدينة بوردو.

أعجب بهذا الاحتفال - لميوله العلمية والأدبية - وبتعظيم الأمة الفرنسية لعلمائها - أمثال الكيماوي برتلو -[2] وأدبائها، وعقد العزم على المساهمة في هذه التظاهرة الثقافية فشرع في كتابة سلسلة من المقالات عن شاعر فرنسا الكبير فيكتور هو كو والأدبين العربي والفرنسي، وصدرت تلك المقالات في مجلة " الهلال بالقاهرة سنة 1902 ثم طبعتها دار الهلال " في كتاب سنة 1904 تحت عنوان " تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب وفيكتور هر كو " بتوقيع " المقدسي " بعدما كانت المقالات مجهولة المؤلف، مخافة استبداد

---

1)- الخالدي (محمد روحي): تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب وفيكتور هر كو. الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين. دمشق. ط 4 - 1985ص40-41

2)- الخالدي (محمد روحي) : المرجع السابق ص 40

السلطة العثمانية على حد قول كاتب مقدمة الناشر للطبعة الثانية !

أثار الكتاب إعجاب القراء والأدباء، فأعادت دار الهلال طباعته سنة 1912م للمرة الثانية ثم خفت ذكر الكتاب بعد ذلك حتى سنة 1983م، عندما قدم الدكتور حسام الخطيب دراسة للملتقى الدولي حول الأدب المقارن في الوطن العربي – عنابة من 13 الى 18 مايو 1983 بين فيها ريادة الخالدي للأدب المقارن في الوطن العربي بكتابه المذكور، فأوصى المؤتمرون بضرورة (1) الاهتمام بهذا الرائد وكتاباته، فصدرت بعد ذلك عدة دراسات، (2) وأعاد الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين بدمشق طباعة كتابه للمرة الثالثة مع مقدمة وافية للدكتور حسام الخطيب عن الكاتب والكتاب في حوالي الأربعين صفحة، ثم طبع الكتاب للمرة الرابعة 1985م.

وعندما صدر الكتاب لأول مرة واستقبل بحفاوة، أبدى الخالدي في مقدمته سروره بالفرصة يطالب به الأدباء والقراء الفرنسيين عن مساهمته في الاحتفال بذكرى شاعرهم فيلا نالكم الكتاب وما توخاه بذلك من أهدافه، قائلاً إنه لما أراد بنشره هذا المؤلف في 1902 - 1903م في مجلة "الهلال" (...) المساهمة في المظاهرة الأدبية التي حدثت في العالم المتحضر بمناسبة الذكرى المئوية للشاعر العظيم (...) كما أراد نشر الأفكار الحديثة ما بين إخوانه في الدين، وشرح أسرار لغة القرآن، وإعطاء الشعراء العرب الشبان فكرة نابعة من الأدب الفرنسي بصفة خاصة والآداب الأوروبية بصفة عامة ...

وأخيراً، فقد أراد أن يعرف الكتاب المشرقيين من الجيل الجديد على مختلف الأجناس والموضوعات التي ينبغي على الشاعر المعاصر تطرقها.

لذا اضطر المؤلف إلى تلخيص تاريخ الأدب الغربي، والحديث عن الفتح

---

(1) د/ الخطيب (حسام): الأدب العربي المقارن، البدايات والتطورات الأولى: دراسة ضمن أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1985 - ص 43 - 58.

(2) - توصيات الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 372.

الاسلامي لأوروبا لاثبات تأثير الأدب العربي في الآداب الأوروبية للعصور الوسطى ، ثم أبرز بعد ذلك الفرق بين المدرستين الكلاسيكية والرومانتيكية مترجما نصوصا مختارة لفيكتور هوكو مع مقارنتها بأشعار للمعري أو المتنبي أوغيرهما من الشعراء العرب .)) (1)

بين الخالدي في منشورة مضمون كتابه وأهدافه التي نستطيع اجمالها في عنصرين أساسيين:

1- تقديم روءية جديدة للشعر والأدب منخلال شاعر فرنسا فيكتور هوكو .

2- تأثير الأدب العربي في الآداب الأوروبية الوسيطة ، وهذه قضية علمية جديدة على الأدب العربي - آنذاك - و أعتقد أنه أول من درسها من العرب . لقد اطلع الخالدي علىالآداب الأوروبية بصفة عامة ، و الأدب الفرنسي بصفة خاصة ، وأعجب به كثيرا ، فدعا بني قومه لدراسة آداب الأمم المتمدنة : ((ولا يكمل علم الأدب للمتبحر فيه الابعدأن ينظر في أدبالامم المتمدنة ولو نظرة عامة يطلع بها على مجمل تاريخ أدبهم وعلى بعضماترجم من موءلفات المشاهير من كتبهم فيقف على ماعندهم من سعة التفكير وسمو الادراك وبلاغة المعاني ويعرف أساليبهم في النظم والنثر وتصرفهم في الكلام ويميز بين المتقدمين والمتأخرين منهم)) . (2)

اقتنع بالنموذجالفرنسي في الأدب ومفهومه الذي يتمثل في أن : ((أدب كل لسان ما حصل فيه الاجادة منالكلام المنظوم والمنثور . ويشمل على فنون الشعر والاغاني والروايات والقصص وضروب الامثال والحكم والنوادر والحكايات والمقامات والتاريخ والسياسة والرحلة وغير ذلك)) (3) فالأدب اذن ، هو الاجادة في الكلام شعرا أونثرا ، وفي مختلف الأجناس الشعرية أوالنثرية . ومعلوم أن هذا المفهوم الواسع للأدب كان شائعا بفرنسا في القرن التاسع عشر ، فقد كان مصطلح " الآداب الجميلة *Les belles Lettres*" يشمل كل ماذكر

---

1) - الخالدي (محمد روحي) : تاريخ علم الأدب (النص من ترجمة الباحث) ص 38-39

2) - الخالدي (محمد روحي) : المرجع السابق ص 60 .

3) - الخالدي : المرجع السابق ص60

الخالدي، والشرط الوحيد للأدبية هو " الاجادة في الكلام " ففيم تتمثل هذه الاجادة ؟

أوضح الخالدي مقياس أدبية الأدب قائلا : ((والاصل فى الكلام للمعاني لا للألفاظ لانّ اللفظ قالب أوظرف للمعنى يتخذه المتكلم أو الكاتب لسبك مايصوره في نفسه ويشكلـــه فـــــي قـــالبه من المعاني فينقل بذلك مقصوده للسامع أو القارىء حتى يعلمـــــه كأنه يشاهده)) .(1)

ان اعتناق الخالدي لفكرة اعتماد المعنى مقياسا لأدبية الأدب - كما هو الشـــأن مع نجيب الحداد حسبما سلف ذكره سابقا - قد أعطى مفهومـــا جديدا لوظيفة الأدب، الجـــر عنه أن الأدب بمعناه ، أي بمضمونه ، كما حددته الرومانتيكية التي : ((أرجعت الشعـــر الى الحقيقة والطبيعة والحياة وتركت فيه التصنع وزخرفة الكلام وأجراس الألفاظ ولم تلتفت الى زعم أهل الطريقة المدرسية بأن زخرف القول من مقتضــــــــــــى الـــــذوق الـــــســـــلـــــيـــــم للشاعر ، وأزالت جميع الحواجز التي تعرض أمام سجية الطبع وتصد الفكر عن تصور الحقيقة وتوصيف الموجودات بحسب ماهو مغروس في منها سواء كان من صفات القبح أو صفات الجمال بلا تفريق بينهـــا .))(2)

لقد استقى الخالدى، شأنه في ذلك شأن الحداد، مفهوم الشعر وطبيعته ووظيفتـــه والمراحل التي بها من مقدمة مسرحية كرو مويل(3) لفيكتور هوكو : ((ان الشعر له ثلاثـــة أدوار هي الغناء والحماسة والدرام . ولكل منها مناسبة بدور من أدوار الاجتماع الانسانـــي الذي هو عمران العالم . فالقرون الابتدائية غنائية . والقرون القديمة حماسية . والقرون الجديدة درامية . والغناء يترنم في الأزل والحماسة تحتفل بالتاريخ والدرام يصـــور حياة الانسان . وخاصة الأول السذاجة . وخاصة الثاني البســـاطـــة .

1)- الخالدي : المرجـع السابـق ص60

2) - الخالدي المرجع السابق ص182

1)-Hugo5(victor): cromwel (Préface)Garnier Flammarion Paris1968P.P. 63/67.

وخاصة الثالث الحقيقة .)) .(1)

مر الشعر انن، بثلاث مراحل، طبيعته" الحقيقة النسبية " التي يشعر بها الانسان، ووظيفته تصوير الحياة تصويرا حقيقيا قبحا أوجمالا . اقتبس الخالدى كل هذه المفاهيم الشعرية من فيكتور هوكو، كما اقتبس منه العديد من المصطحات والاجناس الادبية ، ليعرضها على قومه ضمن كتابه ، فشرح الطريقة المدرسية - التيار الكلاسيكي - والطريقة الرومانية - التيار الرومانتيكي - وقدم مفهوما جديدا للشعر ، ثم عرف القارىء العربي بأجناس أدبية جديدة مثل "الدرام (المسرحيات) " والرومان " (الروايات) ، من خلال أعمال فيكتور هوكو.

وتعرض الخالدي عند حديثه عن هوكو الى قضية تأثير الأدب العربي في الاداب الأوروبية الوسيطة ، والأدب الفرنسي بوجه خاص ، متخذا الشاعر " هوكو " نموذجا لهذا التأثير الذي بدأ مع الفتوحات الاسلامية لجنوب فرنسا ، ثم تعزز في القرن العاشر للميلادعندما : ((تغلب البابا سلفستر الثاني على التعصب الديني وخرج من مدينة أورياق مسقط رأسه وقطع عقاب البيرينه ومياه الوادى الكبير وجاور في اشبيلية ثلاث سنوات وفتح لقومه باب العلم والمعارف فدخلوه طوعا أو كرها ، وارتحل الافرنج في طلب العلم الى مدارس الأندلس وحضروا على مشايخها وعادوا لأوطانهم متنورين يلقون الدروس في ساحات المدن الكبيرة وتجتمع حولهم الطلبة والعوامل على مألوف العادة الجارية ليومنا في المدارس والجوامع الاسلامية (...) فتعلم الافرنج من العرب القوافي ورقة الغزل وآداب النظم والنثر وتلحين الأغاني والشعر ونقلوا عنهم القصص والحكايات والنوادر وضروب الأمثال والحكم المنقولة عن الفرس والهنود كما هو مفصل في تواريخ الأدب الفرنسي والى ذلك أشار الموسيو رينه دوميك في كتابه المتداول بأيدي طلبة العلم في عموم

---

1) - الخالدي :المرجع السابق ص 179 .

المدارس الفرنساوية .))(1)

يشعر قارئ هوكو بمدى اعجابه بالشرق بصفة عامة ، فالعديد من قصائده موضوعها الأندلس ، رمز الشرق . و العديد من مسرحياته و قصصه جعلت الأندلس ميدانا لأحداثها و مرد كل ذلك الى أن هوكو ولد و تربى في مدينة بوزنسون الفرنسية التي خضعت للنفوذ العربي الأسلامي برهة ، فبقيت بها مسحة من روح الشرق ، ثم عاش مدة طويلة من طفولته في اسبانيا مع أسرته التي تبعت والده الضابط في الجيش ، فاحتك هناك بأحفاد العرب و سمع ألحانهم و شاهد مبانيهم ، فأعجب بهم ، وتجلى اعجابه في آثاره الأدبية .

انتبه الخالدي الى عوامل تأثر الأدب الفرنسي بالأدب العربي تاريخيا ، كما انتبه الى المؤثرات الشرقية في الشاعر فيكتور هوكو ، فأشار بذلك قضية التأثر والتأثير بين الآداب لتكون قضية نقدية جديدة قدمها الخالدي للقاريء العربي ، فأضبح رائد الأدب المقارن بدراسته هذه .

3) - قسطاكي الحمصي :

حياته و آثاره :

ولد قسطاكي بن يوسف بن بطرس بن يوسف بن ميخائيل الحمصي في حلب سنة 1858م ، وفيها تربى وعاش الى أن توفي سنة 1941م.(2) و يذكر الزركلي أن الحمصي ذكر في ترجمته المنشورة في كتابه " أدباء حلب " بأن أسرته فرنسية الأصل ، جدها " بيير ده لاماس *Pierre de la Masse* " المكنى بمسعد ، حضر الشام مع الصليبيين ثم استقر

---

1) - الخالدي : المرجع السابق ، ص 134 - 135 .

2) - تراجع ترجمته في :

- العقيقي(نجيب): من الأدب المقارن ، ج2 ، ص 178 - 179 .
- د/الحسيني(موسى اسحاق) :النقد الأدبي في الربع الأول من القرن العشرين ص 77.
- الزركلي(خيرالدين) :الأعلام ، ج5، دارالعلم للملايين بيروت 1980، ص 197 .
- الكيالي(سامي) : الأدب العربي المعاصر في سورية دارالمعارف ط2 مصر، ص 143- 144

بحمص . و ذكر قسطاكي لهذه الرواية يعطيها قيمة نفسية - على الأقل - أهم من قيمتها التاريخية ، فهي دليل على تعلقه بفرنسا و لو نفسيا .

نشأ قسطاكي في بيت من أعرق البيوتات الحلبية وجاهة وغنى ، وبدأ تعلمه في أحد كتاتيب الروم الكاثوليك ، فتعلم فيه العربية و الفرنسية و الايطالية ، ثم انتقل الى مدرسة الرهبان الفرنسيسكان ، فاستزاد من تعلم اللغات الثلاثة . و قام بعدة رحلات خارج الشام منها رحلته الى فرنسا سنة 1875م ، حيث بقي هناك سنة كاملة تمكن فيهامن اللغة الفرنسية ثم تكررت رحلاته الى فرنسا لعدة أسباب تجارية و ثقافية .

كان محبا للقراءة ، فطالع كتب الفصحاء بالعربية و الفرنسية ، حتى عرف الناس فضله فترك التجارة سنة 1905م ، و انتخب عضوا في مجلس ادارة حلب ، و مجلس المعارف ، و المجمع العلمي العربي بدمشق عام 1919م فاتصل بأدبائه . و كتب العديد من المقالات في كبريات الصحف و المجلات ، و ألف مجموعة من الكتب منها " السحر الحلال في شعر الدلال " ، و " أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر" الذي أرخ فيه للحركة الأدبية في حلب و " ديوان شعر" و"مجموعة أغان " ، الا أن أشهر كتبه على الاطلاق هو كتابه : ((منهل الوارد في علم الانتقاد)) ، وهو مجال اهتمامنا في الصفحات التالية .

الحمصي و النقد الفرنسي من خلال كتابه منهل الوارد:

نشر الحمصي الجزء الأول من كتابه " منهل الواردفي علم الانتقاد" سنة 1907م بمصر في مطبعة الأخبار ، ثم تبعه الجزء الثاني في السنة نفسها . أما الثالث فلم يصدر الا بعدحوالي ثلاثين عاما من صدور الجزئين الأول و الثاني، و نشرفي حلب بمطبعة العصر الجديد . و قد شرح الحمصي في مقدمة الجزء الأول أسباب تأليفه الكتاب قائلا :((وبعد ، فلا يجهل أحد من العلماء و الكتاب و المتفننين الذين لهم في الصناعات الجميلة فصل الخطاب، ماللانتقاد من جزيل الفوائد اذا ما جاء من أهله و ماينجم عنه من المفاسد اذا جعله الغبي غرض جهله)).(1)

1) - الحمصي(قسطاكي): منهل الواردفي علم الانتقاد، ج1 ، مطبعة الأخبار القاهرة 1907 ، ص 01

حين لاحظ أهمية النقد و مكانته المرموقة ضمن الحركة العلمية و الفنية عند الأمم المتطورة كما لاحظ حسناته اذا صدر عن أهله العارفين بأصوله و قوانينه ، و سيئاته اذا صدر عن غير أهله من الجهلة بأصوله و قوانينه ، فتكون نتائجه وخيمة . أكب على دراسة هذا الفن في كتب : ((أئمته من الفرنسيس أصحاب الباع الطويل حتى صار ذلك هوى النفس لا تنزع الا اليه و شاغل الطرف لا يجب أن يقع الا عليه .)) (1)

و بعد أن درس فن النقد في كتب أئمته من الفرنسيس على حد قوله .. و لاحظ أهمية هذا النسق المعرفي ، عقد الحزم على تأليف :((كتاب في قواعد هذا الفن الجليل يتيسر للطالبين استيعابها في وقت قليل)) . (2)

وأراد بذلك تأليف كتاب تعليمي في نظرية النقد ، بالمعنى العام للنقد ، يسهل على الراغبين في هذا الفن استيعاب أسسه و قواعده في وقت قليل ، أي أنه أراد وضع قواعد ثابتة يتبعها كل ناقد عندما يباشر أي نوع من أنواع الممارسة النقدية .

و بديهي أن هذه الفكرة مستحيلة التحقيق ، فموضوعات النقد - الفنون - تختلف من حيث طبيعتها و مادتها ، و بالتالي لا بد من اختلاف القواعد النقدية باختلاف الفنون ، كما أن تطبيق قواعد ثابتة على فن واحد كالأدب مثلا ، سيؤدي حتما الى انفصام بين العملية الفنية الابداعية و العملية النقدية ، لعدم ثبات الأولى زمانيا و مكانيا ، لذا نستطيع القول ان فكرة الحمصي - على أهميتها - حملت في طياتها أسباب فشلها . و قد أحس بذلك عندما طلب من أصحابه بباريس تزويده بكتب لأئمة هذا الفن من الفرنسيس ، فكانت خيبته عظيمة عندما وصلته أجوبة أصحابه : ((تفيد أن ذلك شيء لم يؤلف فيه كتاب و لا شيد له أحد من علمائهم مغنى و أنهم يعتبرونه من الفنون الذوقية التي لا تخضع لقواعد علمية .)) (3)

---

1) - الحمصي (قسطاكي) : المرجع السابق ، ص03 .

2) - الحمصي (قسطاكي) : المرجع السابق ، ص 05 .

3) - الحمصي (القسطاكي) : المرجع السابق ، ص 05 - 06 .

ومع ذلك لم ييأس ، بل شمر عن ساعده لوضع كتاب في علم الانتقاد .

لم يكن كتاب الحمصي كتاب نقد أدبي ، كما أن وضع كتاب يجعل النقد علما أمر أثبت الزمن قلة جدواه ، الا أن كتاب " منهل الوراد في علم الانتقاد" كان مع ذلك قفزة في تأثر النقد العربي الحديث بالنقد الفرنسي . فقد خصص مؤلفه في الجزء الأول فصلا لتاريخ النقد عند العرب ، وثلاثة فصول لتاريخ النقد عند سائر الأمم ، ركز فيها على النقد الفرنسي . أما بقية الفصول فهي خليط من القضايا النقدية وموضوعات مختلفة .

واستهل حديثه عن تاريخ النقد عند العرب بنفي معرفتهم له : ((لم يكن النقد من العلوم المعروفة عند العرب في عصر من العصور .))(1)، اذ يعلن بعد استعراضه التجارب النقدية العربية منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث ، أنه لم يجد : ((في العرب من تكلم على هذا الفن ولا من أفرده في كتاب انما جل وظيفة الناقد على ما رأينا من صنيع أكثرهم أن يسوىء على من ينتقد كلامه ما استطاع ويزيف كل حسنة له حتى تنقلب سيئة (....) أو أن يكون على عكس ذلك فيحتال في تخريج كل وهم يسقط عليه في كلامه وتسديد كل هفوة تبدر منه كما فعله أكثر شراح الكتب العلمية .))(2)

لقد نفى الحمصي اذن عن العرب معرفة النقد ، حسب تصوره للنقد فهم لا يعرفون له قواعد ثابتة ، ناسيا أن محاولاتهم تقنين النقد - على غرار ما وضعه ابن قتيبة وقدامة وابن طباطبا - باءت كلها بالفشل . فالنقد يتبع دوما الابداع المتغير ، وليس العكس . وينتقل بعد ذلك الى تاريخ النقد عند سائر الأمم : وجل ما كتبته من تاريخ النقد عند سائر الأمم في الفصلين الثاني والثالث وبعض الرابع استفدته من كتاب موسوعات العلوم الكبيرة الفرنسوية فهي حجة بلامنازع وماسوى ذلك فهو بضاعة القريحة)) .(3)

فيقدم لمحة عن تاريخ النقد الأوروبي مع التركيز على النقد الفرنسي : ((لما كان تاريخ النقد الفرنسوي كما سبق القول أقدم تاريخ متتابع للنقد في بلاد الغرب كلها اقتصرت على ذكر

---

(1) الحمصي (القسطاكي) : المرجع السابق ص 10

(2) الحمصي (القسطاكي) : المرجع السابق ص 46

(3) الحمصي (القسطاكي) : المرجع السابق ، ص 6 - 7 .

أشهر علماء النقد الفرنسيين .))[1] الذين أعجب بهم ، وهكذا يتحدث عن فيكتور كوزان *Vitor Cousin* 1792 ـ 1867 الذي نقد أسلافه نقدا دونه تدقيق علماء البحث في أصل اللغات ، وكان نقده مخصصا لكتب القدماء فقط . ثم الناقد الكبير " سانت بوف " *SainteBeuve* (1804 ـ 1869) الذي أمعن في البحث ودقق في شرح ما انتقده من الكتب وأصحابها ، وعلى يديه تحول فن النقد من فن مساعد للتاريخ الى آلة حقيقية للتحليل والتفهيم واكتشاف أسرار النفوس .

كما تحدث عن العالمين رينان *Renan* (1823 ـ 892.) و" تين *Taine* (1928 ـ 1893) اللذين سدا الثلمة التي تركها سانت بوف ، وخدما النقد خدمة لم يحلم بها عالم قبلهما . (2)

يستعرض أشهر النقاد الفرنسيين ، مبينا خصائص كل واحد النقدية ، فيقدم بذلك للقارىء العربي نماذج لمناهج نقدية ، ونقادها .

ويبين خلال استعراضه لمراحل النقد الفرنسي ، وظائف الأدب ، بخاصة ضرورة تصويره للمجتمع : ((اعلم أن القصائد القصصية المشهورة والنوادر المدهشة والحكايات والروايات لا تنحصر فوائدها في فصاحة التعبير وبلاغة السبك فقط ، بل لها فوائد تاريخية فوق ذلك ، فان الياذة هوميروس للشاعر اليوناني ورواية هامليت للشاعر شكسبير الانكليزي ومعلقة امروء القيس وحكايات كليلة ودمنة وما أشبه ذلك من النظم والنثر كلها تنطق بأفصح بيان عن زمن تأليفها وفي كل واحدة منها ايضاح وكشف عن أحوال تلك العصور وعوائد وأخلاق أهلها ومعتقداتهم وأزيائهم .))[3] قدم الحمصي بذلك للنقد

---

1) ـ الحمصي (قسطاكي) : المرجع السابق ص 93

2) ـ الحمصي (قسطاكي) : المرجع السابق ص 89 ـ 92

4) ـ الحمصي (قسطاكي) : المرجع السابق ص 87 ـ 88

العربي مقياسا نقديا جديدا يتمثل في أن الأدب تعبير عن زمانه ومكانه . ورغم اشارة العديد من النقاد العرب القدامى الى علاقة الأدب بالزمان أوالمكان ، فان فكرة تصوير الأدب للمجتمع - زمانيا ومكانيا - وصدوره عنه ، لم تتبلور مقياسا نقديا الا في القرن التاسع عشر مع ازدهار التيار الرومانتيكي وفكرة النسبية في الذوق ، ثم تبلورت أكثر مع التيار الواقعي عندما أصبح الأدب تصويرا للمجتمع ، وبالتالي صار من مهام النقد : البحث في مدى تصوير الأدب للمجتمع أو عدم تصويره ، وبلغت هذه الفكرة حد التزمت عند الناقد الفرنسي " تين" - الذي أعجب به الحمصي - عندما جعل الأديب ، وبالتالي أدبه ، نتاجا لثلاثة عوامل : الزمان والمكان والجنس ، هي المجتمع اذا اجتمعت .ينتقل بعدذلك الى تحديد موضوع النقد قائلا :

((فالحقيقة سلاح النقدوكل جمال في الكون هو دون جمال الحقيقة وعماد النقد وأساسه هو الصدق ولا يكون .. مصيبا الاعندما يصيب كبد الحقيقة .وكلما بعد النقد عن الحقيقة كان فاسدا ومردودا .اذن موضوع الانتقاد قصد الحقيقة ، وبعبارة أخرى الانتقادهو التفتيش عن الحقيقة)) [1] ولكنه لا يفسر أية حقيقة يعني . هل يقصد الحقيقة الكلاسيكية المطلقة أو يقصد الحقيقة الرومانسيكية النسبية أو يقصد الحقيقة الواقعية ؟ ومهما كانت نوعية حقيقة الحمصي ، فأن الوصول اليها يتطلب من الناقد الأخذ بمراحل العملية النقدية الثلاث :

((وهي : الشرح والتبويب ، والحكم .)) (2)

1 - الشرح : وهو تحديد الناقد علاقة الأثر المنقود بتاريخ العلوم الأدبية ، أي دراسة الأثر على ضوء العلوم الأدبية كاللغة والبلاغة والفلسفة والتاريخ.... الخ ، ثم علاقته بغيره من الآثار الأدبية ، والمكان والزمان الذي ظهر فيهما لتحديد مدى الشهرة والذيوع ، أي تحديد المكانة ضمن التراث الأدبي .وأخيرا تحديد العلاقة بين الابداع ومبدعه ، أي مدى تعبير الأثر عن صاحبه . (3)

2- التبويب : والقصد من ذلك : ((تعيين باب الكتاب المنقودأو موءلفه وتحديد مرتبته

---

1) - الحمصي (قسطاكي) : المرجع السابق ص 125 - 126.

2) - الحمصي قسطاكي) :المرجع السابق ص 134 .

3) - الحمصي (قسطاكي) : المرجع السابق ص ص 134 -135 .

بين أمثاله بالحجج العادلة والبراهين الساطعة (...) والذى عليه اليـــوم اجماع علماء النقدأن الموازنة هي الدليل الناطق ، والفاروق الصادق الذي يميز بين الفاضل والمفضول ، ويرتب بابات القرائح والعقول . وقد اقتــدوا في ذلك بعلماء النبات وعلماء الحيوان .)) . (1)

ولا شك أنه يقصد بالموازنة ، المقارنة ، اقتداء بعلماء النبات والحيـــوان الذين أسسوا المنهج المقارن في الدراسة العلمية ، فالعموميات والخصوصيات لا تتضح الا بالمقارنة ضمن الجنس الواحد أو المجموعة الواحــدة .

3 ـ الحكـم : والقصد بهذا المصطلح " الترجيح" و" التنزيل": ((أما الترجيح فهو التمييــز بين فاضل ومفضول ، أوحسن وأحسن ، وهو الغالب ، اذقل أن تجد بين البشر من انفــــرد بفن ، بحيث لا تستطيع أن توازنه مع سواه (....)وأما التنزيل فهو ترتيب الشيء ، وتحديد درجتـــــــه ، وتعيين طبقة المتفنن ، وهذا التنزيل قد لا يكون في الأكثر الا على وجـــه التقريـــــــــب وصيغة التشبيه .)) .(2)

واضح أن كلا من الترجيح أو التنزيل يعتمدان على الشرح والتبويب ، اذ بذلــــك يستطيع الناقد أن يصدر حكمه على الأثر المنقود حسب القواعد التي وضعها الحمصي .

عندما نتمعن قليلا في القواعد المقترحة نلاحظ أن الحمصي جمعها من النقد الفرنسي الذى كانت الصحافة الفرنسية مسرحاله في نهاية القرن التاسع عشر : فالشرح تلخيص لتلك الروءيــة العلمية في النقد التي بدأت مع " سانت بوف " و " تين " لتبلغ ذروتهــــــــا مع " برونتيير *Brunetiere* (1849 ـ 1906) . و التبويب تلخيص للروءيـة التاريخية في دراسة الأدب ، التي بدأت مع " أبيل فيلمان " (*Abel Villemain* 1790_1870)

---

1) ـ الحمصى (قسطاكي) : المرجع السابق ص 170 ـ 171

2) ـ الحمصى(قسطاكي) : المرجع السابق ص 196 ـ 197 .

وجاك جاك آمبير " (J.J. Ampere) 1800 - 1864) و " جوزيف بيديي (J. Bedier

(1864 - 1938) لتتبلور مع " غوستاف لانسون" في كتابه الشهير " تاريخ الأدب

الفرنسي " 1896 م . أما الحكم فهو تلخيص لتلك المعركة النقدية الشهيرة بين التأثريين

- بزعامة جول لومتر - الذين رفضوا الحكم على الاثر الأدبي ، والموضوعيين أو العلميين -

بزعامة برونتيير - الذين نادوا بضرورة الحكم على الاثر الأدبي انطلاقا من مقاييس موضوعية ،

فانتصر الحمصي للمجموعة الثانية وجعل الحكم خاتمة العملية النقدية

وهكذا يتضح لنا أن الحمصي أدخل في النقد العربي الحديث مفاهيم نقدية فرنسية ،

وعرف القارىء العربي بالحركة النقدية الفرنسية وأعلامها ، فجاء كتابه زاخرا بأعلام النقد

الفرنسي ، وبرؤى جديدة للنقد والأدب ، ومن ثمة يمكننا القول أنه كان

- هو الآخر - من رواد التوسط بين النقد العربي الحديث والنقد الفرنسي في مطلع القرن

العشرين .

ظهر كل من الشيخ نجيب الحداد ومحمد روحي الخالدي وقسطاكي الحمصي على التوالي

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين ، وتعلموا اللغة الفرنسية في مدارس الارساليات

التبشيرية . أعجبوا بالثقافة الفرنسية والأدب الفرنسي ، فأرادوا نقل مثار اعجابهم الى

القارىء العربي ، فترجموا نصوصا أدبية ، ثم تحدثوا عن الأدب الفرنسي ضمن كتاباتهم

التي ظهرت في عقد واحد (من سنة 1897 الى 1907) ، ضمن النشاط الأدبي لصحافة

الشاميين بمصر . فتحدثوا عن النقد الفرنسي وأعلامه ضمن حديثهم عن الأدب الفرنسي ، وقدموا

مفاهيم نقدية جديدة نابعة من أدب يختلف عن الأدب العربي ، فبقيت تلك المفاهيم

النقدية ظلالا نقدية . الا أنها على غموضها مهدت الطريق أمام الجامعة المصرية التي حملت

مشعل التجديد في الدراسة الأدبية ، فقد قدمت منذ تأسيسها سنة 1908 م دروسا

في اللغة العربية وادبها على غرار مايدرس في الجامعات الأوروبية ، فأحضرت

المستشرقين من أجل ذلك . ((ولقد كان المستشرقون ذوي الفضل الأكبر في تأثيل المنهج العلمي واصطناعه في درس الأدب وغيره من دروس اللغة والحضارة التي نيطت بهم ، وحسبنا أن نذكر منهم جويدي وثالينو وسانتيانا وما سينيون وجاستون فييت وموللر ، ثم لاحاجة بنا الى المزيد ، فآثارهم العلمية تغني عن البيان والتفصيل .)) (1)

كان دور المستشرقين في تأثيل المنهج العلمي بالجامعة المصرية عظيما بتدريبهم الطلبة على أسس وقواعد المنهج في الدراسة الأدبية ، وكتابات طلبتهم أمثال طه حسين في الأيام ومقدمة ذكرى أبي العلاء ، وأحمد أمين في حياتي ... خير دليل على ذلك . ولكن كتابات أولئك الرواد - الحداد ، الخالدي ، الحمصي - كان لها دور في تزويد أولئك بمعلومات جديدة عن النقد الفرنسي ، الأمر الذى حمسهم الى التهافت على تلبية طلب الجامعة للسفر الى فرنسا لمتابعة الدراسات العليا ، لا ستخلاف المستشرقين، فسافر كل من أحمد ضيف سنة 1912 م وطه حسين 1914 م ليجدا المنهج التاريخي في الدراسة الأدبية موجة الوقت ، وليتتلمذا على غوستاف لانسون منظر المنهج التاريخي وأتباعه ، ثم تبعهما كل من زكي مبارك ومحمد مندور وسامي الدهان ومهدي البصير وغنيمي هلال وعلي جواد الطاهر ليتتلمذوا على تلاميذ لانسون .

ومن هنا يتسرب المنهج التاريخي أو اللانسونية الى النقد العربي الحديث في مصر أولا ، ثم بقية البلدان العربية ثانيا فمن هو لا نسون ؟ وما هي اللانسونية ومن هم أبرز الطلبة العرب الذين تأثروا باللانسونية ؟ وكيف يتجلى تأثرهم ؟ انها جملة من الأسئلة ستكون الاجابة عنها الأبواب التالية .

---

1) - د.مرزوق (حلمي) : تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين . دار النهضة العربية . بيروت 1983 ص 336-337 .

الباب الأول

الإنسان واللاإنسانية

الفصل الأول

لانسون : حياته واثاره

1- حياتـــه :

عرف المجتمع الفرنسي في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر تطورا سريعا في مختلف المجالات . وتطورت نسبة الاستهلاك في سنوات قليلة لتتجاوز الاضعاف تبعا للتقدم والتطـور الحادثين عند الفرد الفرنسي . وظهرت طبقات اجتماعية جديدة الى جانب البرجوازية الكبيرة التي قهرت النبلاء ورجال الكنيسة عقب الثورة الفرنسية ، وأهم هذه الطبقات الجديـدة : البرجوازية الصغيرة من المثقفين وأصحاب المهن الحرة ، ثم طبقة العمال التي صارلها دور معتبر في تسيير المجتمع الفرنسي بوساطة نقاباتها . وقد أدى تعدد الطبقات الاجتماعية الى تعـدد الاتجاهات السياسية ، فاشتد الصراع بين الملكيين والجمهوريين من جهة ، وبين الجمهوريين الاشتراكيين وغير الاشتراكيين من جهة أخرى ، ولازم ذلك الصراع السياسي شيوع نزعة الانتقاد والمحاجة والمعارضة والتحليل في المجتمع الفرنسي حتى صارت سمة لـــه .

عرف النقد الأدبي في ظل هذا الجو العام في فرنسا الحدة والتشدد في الآراء ، والتعصب لها ، فظهرت اتجاهات نقدية متعارضة متناقضة أحيانا،أهمها :

ا- النقد العلمي أو الموضوعي ، ويمثله كل من "برونتيير " و " رينان " و يهدف الى اضفـــاء الطابع العلمي على النقد الأدبي ، باقتباسه قوانين وأسس من علوم ومعارف أخرى وتطبيقهـــا في دراسة الظاهرة الأدبية ، وكان يمثل الجناح المحافظ سياسيا ودينيا في المجتمع .

ب - النقد التأثري أو الذاتي أو الذوقي ، ويمثله كل من " جول لومتر " و " أنا طـــول فرانس"وهو يرفض كل حكم على النص الأدبي ، لأنّ الأدب ابداع هدفه المتعة والامتاع ، والمتعة مسألة ذوقية تختلف من شخص الى آخر ، ومن العبث تقنين ذلك . وكان يمثل المتفتحيـــن سياسيا ودينيا ، من جمهوريين واشتراكيين .(1)

تربى في هذا الجو النقدي النشط غوستاف لانسون الذي ولد في مدينة أورليـــان سنة 1857 م ، من أسرة كاثوليكية تمتهن التجارة ، فقد كان والده صانع قفازات ، وكـــان

(1)- Dupeux(Georges) : La societe Française(1789- 1960) P 165 .

جده من أمه صانع مرايا . فاذا عرفنا أن تدين أسرته كان فاترا [1] يسهل علينا بالتالي تصور الجو الاسري الذي ولد وتربى فيه .

فالدقة في العمل ديدن الأب ، والبعد عن التطرف في المعتقد لحد الفتور جو أسري، والامكانات المادية متوفرة عند الاسرة .

دخل المدرسة الابتدائية سنة 1865 م حتى سنة 1869 م في مسقط رأسه ، ثم التحق بوالديه في باريس ، اللدين كانا قد ارتحلا اليها لاسباب عائلية ، وهناك التحق بثانوية شارل ماني الشهيرة ، وقطع بباريس بقية المراحل التعليمية المتوفرة آنذاك ، ليتخرج سنة 1879 م الاول في الاداب من مدرسة المعلمين العليا ، [2] التي تعد من خيرة موءسسات التعليم العالي بفرنسا حتى الآن .

التحق بعد التخرج من مدرسة المعلمين العليا ، بسلك التعليم ليقضي ست سنوات معلما باحدى المقاطعات الفرنسية - لانه كان على الخريج الجديد أن يعمل في عدة مقاطعات- فاكتسب شهرة كبيرة في التعليم ، ولذلك وقع عليه الاختيار ليكون مربيا ومعلما في اللغة الفرنسية لابناء قيصر روسيا . ومكث هناك عدة أشهر في القصر الملكي الروسي ، ليعود بعدذلك الى باريس مباشرة ، ليعمل في منصب أحرز عليه باحدى ثانوياتها . [3]

كان انتقاله الى باريس خطوة مهمة في حياته ، وفي سبيل تحقيق طموحه العلمي بوجه خاص، اذتمكن من معايشة تلك المرحلة التعليمية الجديدة الموءسسة سنة 1882 م ، والتي سميت بالتعليم العالي أو الجامعي النظامي ، حيث تحولت جامعة باريس من جامعة عامة تشبه في نظامها التربوي الجوامع الاسلامية الى جامعة نظامية لها مقرر ثابت وطلبة مجبرون على متابعة الدروس لاحراز شهادة بعد المرحلة الدراسية .

وكانت نتيجة احتكاك " لانسون" بهذه المرحلة التعليمية ، مناقشته أطروحه

---

1)- *Pommier(Jean): Dialogues avec le passé- P.P. 376 - 377 .*

2)- *Pommier(Jean): Idem. P. 377 .*

3)- *Pommier(Jean): Idem P.377 .*

نال بها لقب " دكتور " في الآداب يوم 28 ديسمبر 1887 ، ثم نشر سنة 1894 م أشهر كتبه ((تاريخ الأدب الفرنسي)) لطلاب الثانويات والسنوات الأولى من التعليم العالي، فأثاره في الأوساط التعليمية والثقافية ضجة كبيرة بسبب طابعه المنهجي الجديد ، ورؤيته للأدب والنقد ، فأعجب به برونتيير ـ وكان متربعا وقتذاك على عرش مدرسة المعلمين العليا اداريا وعلميا ـ اعجابا كبيرا ، وأسند اليه مهمة الاستخلاف بمدرسة المعلمين عدة مرات في السنة نفسها ، وبذلك وضع رجله الأولى فوق عتبة التعليم العالي . أما الرجل الثانية فوضعها سنة 1900 م عندما عين أستاذا محاضرا في اللغة والأدب الفرنسيين بمدرسة المعلمين نفسها ، ثم كلف في سنة 1903 م باعطاء دروس الفصاحة الفرنسية في كلية الآداب بجامعة السوربون (1). فتحقق بذلك طموحه ، ودخل التعليم العالي ليبدأ مرحلة أخرى من مراحل حياته . وكان قبل تعيينه في كلية الآداب ، قدعين سنة 1901 عضوا في مجلس ادارة جمعية التاريخ الأدبي لفرنسا خلفا للأستاذ المتوفى بوتي دوجولفيل *Petit de Julleville* (1841 ـ 1900) نتيجة لصدى كتابه " تاريخ الأدب الفرنسي " وكتاباته الأخرى حول العديد من أعلام الأدب الفرنسي أولا ، وتعيينه سنة 1900 م محاضرا في مدرسة المعلمين العليا ثانيا . وبعد سنة واحدة ـ أي في سنة 1902 ـ أصبح أمين الجمعية بالنيابة ، وتكفل بتطوير العروض والتحليلات النقدية بمجلة الجمعية ، فبدأ اسمه يتكرر أمام أنظار المهتمين بتاريخ أدب فرنسا كلما صدر عدد من المجلة .

وحين توفي الأستاذان " غاستون باري *Gaston Paris* 1898 ـ 1903) .

و" لا رومي *LARROUMET* (1903) خلفهما " لا نسون" . خلف الأول في نيابة رئاسة جمعية التاريخ الأدبي ، أي صار المسؤول الأول فيها ، لأن رئاستها شرفية ، وخلف الثاني في كلية الآداب أستاذا مرسما في كرسي الفصاحة الفرنسية ، وبذلك تربع على عرشين

1)- *Pommier (Jean) : Idem. P. 377 .*

2)- *Compagnon (antoine) : La troisieme republique des lettres PP. 60- 61.*

متكاملين : عرش جمعية التاريخ الأدبي لفرنسا بمجلتها العتيدة ، ولقاءاتها المشهرة ، ومناقشاتها العديدة ، وتنوع المرؤى والأفكار التاريخية فيها . وعرش الفصاحة الفرنسية الذي سينطلق منه في تغيير نهج الدراسة الأدبية ، وتغيير وجه التعليم العالي في فرنسا بمساهماته في وضع البرامج ، وتنشيط اللجان العلمية والتربوية . وأضاف سنة 1919 م مهمة أخرى الى مهامه التربوية والعلمية والثقافية ، تتمثل في توليه ادارة مدرسة المعلمين العليا، محتلا بذلك عرشا علميا ثالثا ، ينشر منه منهجه في دراسة الأدب ، عن طريق خريجي المدرسة الذين تتلمذوا عليه أوقرأوا له على الأقل في مختلف ثانويات فرنسا مدة طويلة .

وحين تأسس في السوربون سنة 1922 م كرسي جديد لتاريخ أدب القرن الثامن عشر الفرنسي باسم " ألفونس بيرا *Alphonse Peyrat* " كان من حظ " لانسون " ، فتخلى عن كرسي الفصاحة الفرنسية ليشغل الكرسي الجديد محققا بذلك أمنيته في شغل كرسي لتاريخ الأدب الفرنسي،(1) حتى يكون انسجامه تاما مع اهتماماته العلمية .

أحيل على التقاعد سنة 1927 م ، بعدما يزيد عن ربع قرن من التدريس الجامعي والبحث والتأليف والنشر والمحاضرة في مجال تاريخ الأدب والدراسة الأدبية ، لينزوي في بيته دارسا ومنقبا كعادته ، مستقبلا تلاميذه وأشياعه حتى انطفأت الشعلة في منتصف شهر ديسمبر من سنة 1934 م ، ليستمر تلاميذه وتراثه وذكره في مواصلة المسيرة .

كان طاقة من الانتباه ، يراقب نفسه مثلما يراقب غيره ، وأستاذا يتتبع أخطاء تلاميذه ، وباحثا يتتبع أخطاء الباحثين والدارسين .(2)

فقضى حياته في الحديث والكتابة وتوجيه أعمال الآخرين وتحسين أعماله بتواضع

---

1)-Pommier (Jean): Opcit. P. 378 .

2)- Moreaux (Pierre): Le victorieux 20^{eme} siecle. P. 113 .

كبير ، رغم تشدده مع مريديه ومع نفسه قبلهم ، فكان يوحي لمريديه ولمعارفه بالثقة والامان .[1] وكان فوق ذلك نموذجا للاستاذ الجامعي بحيائه وتواضعه وتشدده في الدرس والبحث لحد الوسوسة .[2] ثم بالدقة والتأني والتريث والبعد عن التعصب . وهذه هي صفات الباحث بالمعنى المتعارف عليه الآن ، وبها استطاع أن يقيم صرح التاريخ الأدبي أو المنهج التاريخي في الدراسة الأدبية .

2 - نشاطه وآثاره :

ارتبط اسم " لانسون " بالتعليم منذ تخرجه من مدرسة المعلمين العليا والتحاقه بالتعليم الثانوي حتى احالته على التقاعد أستاذا جامعيا شهيرا . لقد لاحظ خلال سنوات التعليم الثانوي أن البرامج التعليمية تدرس الأدب وسيلة لدراسة قواعد البلاغة ، فيحفظ الطالب قواعد ومصطلحات لا يدري ماذا يعمل بها . كما لاحظ أن طريقة تدريس الأدب الفرنسي عقيمة ، فالطالب لا يدرس النصوص لقيمتها الأدبية ، وانما لقيمتها اللغوية أو البلاغية أوالاخلاقية ، أو الدينية ، ومن ثمة فالأدب لايدرس لقيمته الأدبية ، وانما يدرس وسيلة لخدمة علوم وفنون أخرى ، فيدرس الطالب الأدب سنوات ، وفي النهاية تكون حصيلته الأدبية كمن لم يدرس الأدب قط .

وبعدأن أدرك واقع الدرس الأدبي ، قرر مواصلة التعليم ، فأعد أطروحة عن " نيفيل دولا شوصي *Nevilledelachaussée* و ملاهيه المأساوية "[3] لتكون باكورة البحث والتأليف سنة 1887 م ، تليها سيرشيقة عن أشهر أعلام الأدب الفرنسي مثل " بوسوي *Bossuet* سنة 1891 و " بوالو *Boileau* " سنة 1892 . (4) ولكنه لم يستمر في هذا النهج من الكتابة لعامة

1)- *Pommier(Jean): Op.cit. P. 378.*

2)- *Delfau(Gerard)et Roche(Anne): Histoire, Litterature, P. 126*

3)- نيفيلدولاشوصي: كاتب فرنسي، من مواليد 1691م أو 1692 ، توفيسنة 1754م . كتب العديد من المسرحيات أشهرها ملاهيه المأساوية ابتسعة التي حث فيهاعلى الفضيلة بوساطة اثارة الانفعالات لدى جمهوره البرجوازي. *(Tieghem: dictionnaire des litteratures. T2P2856)*

4)-*Compagnon(Antoine): Op.cit. P.60 .*

القراء ، ففي سنة 1894 م نشر كتابه الضخم : ((تاريخ الأدب الفرنسي)) موجهـا لطلبة الأقسام النهائية من التعليم الثانوي ، وطلبة الأقسام الأولى من التعليم العالي. يحس القارئ من مقدمة الكتاب بنغمة جديدة عندما يشير المؤلف الى أن : ((دراسة الأدب لا تستطيع الاستغناء عن البحث ، حيث ان بعض المعلومات الدقيقة والموضوعيـة ضرورية لترسيخ وتوجيه أحكامنا .

ومن ناحية أخرى فان المحاولات الى ربط أفكارنا وانطباعاتنا الخاصة ، وابراز خط سير الأدب بصفة عامة مع نقاط التلاقي والتحول شرعية جدا عن طريق تطبيق الطرق العلمية))(1).

ويبتدئ كتابه بالحديث عن ضرورة التعامل مع الأدب بطرق علمية ، وضرورة المعلومات الدقيقة والموضوعية في ترسيخ الأحكام ، الا أنه لا يفسر ولايشرح تلك الطرق العلميـة التي دعا الى اتباعها ، ولا يحدد نوع المعلومات الدقيقة والموضوعية وطرق الوصول اليها .

أما هدفه من الدراسة الأدبية ، فكان غيرما تعود عليه الطلبة والباحثـون، وانما اقامة تاريخ أدبي بعد : ((وصف الفرديات انطلاقا من حدس فردي)) (2). ثم تزداد الرؤيـة وضوحا عندما يعرف الأدب بأنه : ((تدريب وتذوق ومتعة . اننا لا نعرف الأدب ، ولا نتعلمه : بل نمارسه ، نحفظه ، نحبه)) .(3)

الأدب عنده متعة ومحبة وتذوق ، ودراسة الأدب هي التعامل بطرق علمية دقيقـة مع المتعة والتذوق بغية اقامة تاريخ أدبي ، ومن ثمة يعتمد المعرفة والاحساس ، دون توضيح أوتعمق ، أساسا لكتابه . وأصدركتابه " رجال وكتب " سنة 1895 ذكر في مقدمتـه ضرورة اتباع طريقة علمية دون توضيحها . ثم أردفه بكتاب عن " كورناي سنة 1896 م " آخر عن " فولتير " في السنة نفسها حاول فيهما تقديم صورة دقيقة وموضوعية عن الرجلين

1)- *Lanson (Gustave): Histoire de la littérature française,* P VII.

2)- *Lanson (Gustave): Idem,* P XII.

3)- *Lanson (Gustave): Idem,* P VIII .

وآثارهما ، باعتماده على المصادر والمراجع أولا ، وعلى النزعة التأريخية في تدقيق الأخبار والمعلومات ثانيا ، وتحليل آثارهما ووضعهما موضعها بالنسبة لما سبقها من تراث ، والشهرة التي أحرزت عليها . بدأت اشارات " لانسون " تتتالى عن المنهج ومنهجية الدرس الأدبي ، منذ التحاقه بالجامعة وتوليه سنة 1904 م كرسي الفصاحة الفرنسية ، فراح يشرح لطلابه أهمية المنهج التاريخي وضرورة اعتماده في الدراسة ، وألقى عدة محاضرات حول الموضوع في الجامعة الفرنسية وفي بلجيكا : ثم نشر مابين 1904 م و 1910 م مقالات عن المنهج التاريخي : أصوله ومكوناته وخطواته العملية وصعوباته وفوائده . وكانت نتيجة تلك المحاضرات والمقالات : مقالته الشهيرة عن " المنهج التاريخي في الدراسة الأدبية " . التي سيرد تفصيلها في الفصل التالي .

طبق لانسون منهجه في جملة من الكتب أصدرها تباعا هي أهمها : فن النشر 1908 م ، والدليل البيبليوغرافي للأدب الفرنسي الحديث في عدة أجزاء 1909ـ 1914 ليصبح مرجع كل مؤرخ للأدب الفرنسي ، ثم حقق الرسائل الفلسفية لديكارت (1909) والتأملات (1919 م) ، وخصائص الفكر الفرنسي (1920 م) والوجيز في تاريخ المأساة الفرنسية (1920) ومقالات مونتاني (1930 م) ، وفوفناق (1930) ، ودراسات في تاريخ الأدب (1930) تضاف الى الأعمال السالفة الذكر العشرات من المقالات والدراسات المنشورة في أشهر المجلات الأدبية وقتذاك ، مثل مجلة التاريخ الأدبي لفرنسا ومجلة العالمين وغيرهما .

خلاصة القول ان جل مقالاته ودراساته ومؤلفاته تدور حول دراسة الأدب الفرنسي والتأريخ له ، وتحقيق نصوصه ، اعتمادا على الجمع بين المعرفة والاحساس . وهما أساس المنهج التاريخي الذي سيكون دستور اللانسونية كما سنرى في الفصل التالي .

3ـ نشاطه السياسي ودوره في شهرته :

بدأ " لانسون " حياته المهنية أستاذا للتعليم الثانوي في جو مضطرب اقتصاديا

واجتماعيا.فقد كان المجتمع الفرنسي يعيش مرحلة من مراحل التطور الرأسمالي ، وبدأت الحركة العالمية تنمو اجتماعيا وسياسيا بنمو رأس المال الفرنسي .

كما بدأ نمط الحياة اليومية يتغير تبعا لذلك ، فظهرت اصلاحات عديدة في النظام التربوي ، أهمها تأسيس التعليم العالي النظامي - التعليم الجامعي - سنة 1882 م .
وكان لذلك التغير الاجتماعي أثر واضح في الحياة الفكرية والادبية ، فأصبح الصراع على أشده بين تيارات أدبية غذت الأدب الفرنسي كالرومانتيكية والواقعية والرمزية ، كما قام الصراع بين عدة اتجاهات نقدية أهمها :

- النقد العلمي أو الموضوعي بزعامة فرنان برونتير ، الذى كان يرى أن الاجناس الأدبية تطورت مثل تطور الأجناس البشرية ، وعليه ينبغي تطبيق المنهج العلمي - النشوء والارتقاء - الوراثي في دراستها . وضمن هذا الاتجاه كان " اميل هانكان *Emile Hunequin* 1858 - 1888 م يدعو الى نقد " علمي " بالمعنى الدقيق للعلم ، يقوم على تطبيق المنهج العلمي التجريبي في الدرس الأدبي .

- النقد [illegible] 1914 [illegible] ان يرى " ان الأدب ذوق واحساس ،والنقدتذوقالذوق أو الاحساس بالاحساس ، بعيدا عن أي حكم أوأحكاممسبقة . فالاحساس فردي ، ولا لزوم لأنّ يفرض انسان ذوقه أواحساسه على الاخرين فهو فردي ذاتي لا يمثل أية [illegible] عمية . يضاف الى هذا الجو العام حدث شغل فرنسا سنوات كان سببا في رفع البعض درجات ، وخفض [illegible] وشطر مثقفي فرنسا صفين متصارعين ، كل واحد منهما يدافع عنها ، ويحاول اثبات صواب رأيه بالحجة المنطقية والبرهان المادي . و يتمثل هذا الحدث في قضية

" دريفوس " الشهيرة التي شغلت الرأي العام الفرنسي زمنا ، وأسالت الكثير من حبـــر المثقفين ، فكتبت عنها الصحافة وأقيمت حولها الندوات ، وكانت مدار الأحاديث العامة والخاصة قرابة عشر سنوات :

قسمت قضية " دريفوس " المجتمع الفرنسي الى :

1- أنصاره من اشتراكيين وجمهوريين وأعداء للعسكريين ، ومثقفين من صحافيين ومؤرخيـــن وعلماء اجتماع وأدباء مبدعين ، تجمعوا تحت لواء " رابطة حقوق الانســان .

2- أعداء له من يمينيين ورجال دين وعسكريين و... للسامية ومجموعة كبيرة من أساتـــذة الأدب واللغة الفرنسية تجمعوا تحت لواء " رابطة الوطن الفرنسي " .

كان الصراع بين الفريقين شديدا ، عملوا على اثبات براءة المتهم حتى تثبـــت ادانته ، خاصة وأن القضية لا تتوفر على أي دليل مادي قاطع ، زيادة عن الغمـــوض الذي يلف القضيـــة ومراحلهـــا .

---

1) دريفوس ألفريد *Dreyfus Alfred* (1859 - 1935) ضابط فرنسي من أصل اسرائيلي ، اتهم بالجوسسة لصالح ألمانيا بناء على وثائق تتضمن معلومات عسكريـة مكتوبة بخط يماثل خطه.حكم عليه بالنفي مدى الحياة ، رغم انكاره للتهمة . وبعد فترة ضبطت وثائق أخرى بالخط نفسه ، الامر الذي عزز دفاع دريفوس وأسرته ، فأعيد النظر في القضيـة ثانية وأمام تعصب الجيش والمحكمة ، ثارت جماعة من المثقفين وناصرت دريفوس تحـت لواء جمعية الدفاع عن حقوق الانسان ، فانشطر بذلك المجتمع الفرنسي الى معادين ومناصرين لدريفوس.قام بمناصرته الجمهوريون والاشتراكيون والأدباء وعلماء الاجتماع والتاريخ ، ولـم يناصره من أساتذة الأدب الافئة قليلة منهم " لانسون " الذي اعتنى بقراءة الوثائق وتمحيصها واعتبر القضية دراسة وثائقية تابعـة من اهتماماتـه

شغلت هذه القضية فرنسا حوالي اثنتي عشرة سنة (1894 - 1906) ، وكانت سببـا في سقوط الحكومة سنة 1902 وتولي الاشتراكيين مقاليد الحكم ، فانفتحت بذلك أبواب السلطة أمام أنصار دريفوس .

Dictionnaire Encyclopedique d'histoire T3 Bordas Paris 1987 - PP. 1454- 1458

وعمل الثاني على اثبات تهمة المتهم ، انطلاقا من أن التعامل مع العدو - ألمانيا - لا يصدر من فرنسي قح ، وانما من فرنسي دخيل مثل " دريفوس " الاسرائيلي الاصل ، الذي لا تهمه مصلحة فرنسا قدرما تهمه مصلحته الخاصة . وخط الوثيقة دليل كاف على خيانته البلد الذي آواه ومنحه الاستقرار والجنسية ، وبالتالي فهو يستحق أقسى عقوبة ممكنة حتى يكون عبرة لمن يعتبر .

كان " لانسون " من أساتذة الأدب واللغة الفرنسية القليلين جدا في موءازرة أنصار " دريفوس "، وقع على عرائض التنديد و الاستنكار ، وناقش في الندوات ، وشارك في المظاهرات، وكتب المقالات ، وتتبع كل ما دار حول القضية . كانت : ((قضية دريفوس المحرك الأول لشهرة لانسون . وحسب زعم أحد تلاميذه المخلصين فرنان بالدنسبيرجير (...) فان قضية دريفوس أعطته طعم الحقيقة والشغف بالمصادر والهوس بالوثائق .)) (1)

عندما بدأت كفة أنصار دريفوس تميل الى الرجحان ، تغيرت الحكومة سنة 1902م لتنقل الى أيدي الاشتراكيين ، فحظي في ظلها الدريفوسيون بنفوذ قوي في الجامعة والحياة الثقافية بصفة عامة .فكان أنشط أستاذ أدب في الحركة ، ومن ثمة لا يستبعد أن يكون انتصارها السبب المباشر في دخوله الجامعة وارتقائه السريع الرتب الوظيفية ، وتربعه على عرش الدرس الأدبي في الجامعة والأوساط الثقافية ثلث قرن .

كانت قضية دريفوس المناسبة الملائمة لاتصال " لا نسون " بالجمهوريين الاشتراكيين ، فأعجب بفكرهم ومبادئهم الانسانية ، وانضم سنة 1904 م الى أسرة تحرير جريدة " الانسانية " الناطقة باسم الاشتراكيين الفرنسيين . وضمن هذه الحركة اقتنع بأن الأدب " موءسسة اجتماعية " ، فربط الأدب بعلم الاجتماع ، مثلما ربطه بالتاريخ ، أي صار ينظر الى الأدب نظرتين متزامنتين متقاطعتين : النظرة العمودية

---

1)-Compagnon(Antoine): Op.cit. P.P.61-62 .

(التاريخية أو الزمانيـة) ، والنظرية الافقية (الاجتماعية أو المكانية .)

لم يكن لاسون سياسيا عتيدا أو محترفا ، كما أنه لم يكن من هواة المناصـــــب الادارية أو السياسية ، فقد كان يحب البحث حباجما لدرجة الهوس على حد تعبير تلاميذه الا أنه خاض أشهر معركة سياسية قانونية عرفها زمانه ، فصار بذلك من رجال التيـــــار الاشتراكي الذي تبنى القضية ، وتولى مقاليد الحكم بفرنسا - بعد انتصار القضية - في مطلع العشرين ، فاستفاد لانسون من ذلك استفادة تامة ، ومن ثمة نستطيع القول أن نشاطـــــه السياسي - الى جانب قدراته العلمية بطبيعة الحال - كان من الأسباب الرئيسية فـــي شهرته التي أذاعت منهجه .

4- شهرتـــه

بدأ " لا نسون " حياته المهنية أستاذا في التعليم الثانوي ، وتنقل بين حوالي عشر ثانويات مدرسا للغة والأدب الفرنسيين . فاذا تصورنا أنه لم يدرس في كل ثانويـــة سوى قسمين يضمان ما يقارب الأربعين طالبا ، لكان عدد طلبته حوالى أربعمائـــــــة ، سيصبح البعض منهم أساتذة أوصحافيين أو مسوءولين كبارا في أجهزة الدولة . أما البعض الآخر ، فسيتوزع على مختلف مجالات الحياة . ولما انتقل الى التعليم العالي درس الفصاحة الفرنسية وتاريخ القرن الثامن عشر الفرنسي الأدبي كما درس الأدب الفرنسي فـــي مدرسة المعلمين العليا وأدارها,1919 حتى 1927 م . وهذا يعني أن أي طالب درس في السوربون أو في مدرسة المعلمين العليا خلال الفترتين السالفتي الذكر ، لا بد أن يكون قد تتلمذ على لانسون نفسه في مرحلة الدراسة الجامعية ، ويكون قد اعتمد على كتابه " تاريخ الأدب الفرنسي " الذي كان مرجع كل طالب في الأدب الفرنسي طيلة الثلث الأول من القرن العشرين .

كما أشرف على العشرات - وربما المئات - من الرسائل الجامعية التي تقـــدم بـــــها خيرة الطلبة ، والذين سيصبحون أعلام الجامعة الفرنسية كما سنرى لاحقا .

أعجب أغلب طلبته بأفكاره وطريقته في العمل ، فقرأوا كتبه ومقالاته ، واعتمدوها مراجع أساسية في دراساتهم ، وصار منهجه المنهج لديهم .

أما القلة من طلبته الذين خالفوه الرأي ، لاختلاف في الرؤية السياسية أو الأدبية ، فان مخالفتهم ، ومهاجمتهم له كانت دعاية له ، مثل كتابات " شارل بيقي *Charles Peguy* (1873 ـ 1914) ومقالاته العنيفة التي سخر فيها من هوس " لانسون " بالقصاصات .

ومن أبرز تلاميذه الذين تبنوا منهجه وطبقوه ودعوا لـــه :

1ـ غوستاف رودلير *Rudler Gustave* (1872م ـ 1957م) : من أشهر أشيـــاع لانسون وأنشطهم ، كان دوما في مقدمة الحركة يذودعن منهج أستاذه لحد المبالغة .(1) شغل عـــدة مناصب تعليمية . فمن أستاذ بثانوية لوي لوغراند بباريس الى أستاذ في جامعة بوردو ، الـــى السوربون ، ثم المدرسة العليا للأساتذة .كما عمل محررا للركن البيليوغـرافي في المجلة الجامعية ومديرا للنشرة الانتقادية للكتب الجديدة ، فأحرز على شهرة كبيرة في الوسط الجامعي أولا والوسط الثقافي ثانيا ، لينتقل الى بريطانيا سنة 1913 أستاذ للغة الفرنسية وأدبها في ثانوية بيدفورد الشهيرة بلندن ، ثم في جامعة أكسفورد العتيدة . ومكث هناك ينشر اللانسونيـة ويدعولهـــا حتى وفاته سنة 1957م .

ألف عدة كتب أشهرها كتابه : " فنيات النقد والتاريخ الأدبي الفرنسي الحديـــث" سنة 1923 م فجاء تجسيدا عمليا لمنهج أستاذه ، وصار عهدة الطالب الجامعي في منهجيـــة النقد والبحث الأدبي طيلة الربع الثاني من القرن العشرين . يعد " رودلير " من غلاة اللانسونية ، غالها فى كتاباته ودروسه بفرنسا ثم بريطانيا ، فلقنها لمجموعات كبيرة من الطلبة الفرنسييـــن وغير الفرنسيين وربما العرب أيضا .

---

1)- Compagnon (Antoine): Idem P. 157 .

2 - دانيال مورني Mornet Daniel (1878- 1954 م) : زميل رودليـــــر ورفيقه في التشيع للانسون ، الاأنه كان أقل غلوا ، وأكثر تعقلا : ((كان حتى وفاتـــه يسمي أستاذه " السيد لانسون " . وكان يرى اللانسونية البديل لأي معتقد . من أوفـــى الأوفياء . أصبح كاتب تحرير مجلة التاريخ الأدبي ومسيرها منذ 1922 م حتى وفاته . خلف سنة 1928 أستاذه في كرسي تاريخ أدب القرن الثامن عشـــر .))(1) كرس مورني حياتـــه لتطبيق اللانسونية في دراساته الأدبية ونشرها بين طلبته وقرائـــه .

كان من أوفي الأنصار لدرجة أنه سعى حتى صار يسكن قرب أستاذه في عمـــارة واحدة ، فكان الاتصال بينهما مستمرا في العمل وخارجه . ولذلك نستطيع القول أ مورني خير من يمثل اللانسونية بعد زعيمها ، فقد تمثلها جيدا ، وطبقها في أبحاثه وموء لفاته ودعالها بعيدا عن أي تعصب ، تطبيقا لأحد أسسها : " على الباحث الا يتعصب لرأيه ".

3 - فرنان بالدنسبيرجير Fernand Baldensperger (1871 - 1958 م) : من المعجبين بمنهج لانسون ، وخصوصا بفكرة " الروح العلمية في التعامل مع النصـــــــوص تاريخيا" وانتقال الأفكار والموضوعات بين الآداب ، التي شغلت ذهنه كثيرا حتى صار من كبار أساتذة الأدب المقارن ، وأحد أعلام المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن ومنظريها.(2)

عمل أكثر من نصف قرن يتتبع الموضوعات وأصولها وتأثيراتها ضمن مجال الدراســـات المقارنة ، انطلاقا من ضرورة البحث عن مصادر وأصول أي أثر أدبي ، ثم تأثيراته وشهرته في قومه وفي الخارج ، فكان بذلك من مطبقي اللانسونية . ومن ثمة نستطيع القول أن المنحى التاريخي للمدرسة الفرنسية في الأدب المقارن يعود الى ترعرعها في أحضان اللانسونية .

---

1)- *Compagnon (Antoine): Idem P. 160 .*

2)- *Tieghem(Philippe Van): Dictionnaire des littératures, T1, P.307 .*

بتتلمذ أشهر المقارنين الفرنسيين على لانسون نفسه ، فكان بذلك جل المقارنين الفرنسيين الذين ظهروا في النصف الأول من القرن العشرين من أتباع اللانسونية ومطبقيها في دراساتهم.

4- هازار (بول) *HAZARD Paul* (1878 - 1944) :من تلاميذ لانسون اللامعين . عمل أستاذا بالكوليج دوفرانس *Collège de France*، وتوزعت جهوده مابين مجالين أساسيين :

ا- الأدب المقارن حيث درس التطور الفكري لأوروبا في كتابين عظيمين ، الأول بعنوان " أزمة الضمير الأوروبي " و الثاني" الفكر الأوروبي من منتسكيو الى ليسنغ " . وشارك مع صديقه بالدنسبيرجير في تأسيس " مجلة الأدب المقارن " الفرنسية سنة 1921 م التي لازالت تصدر حتى يومنا هذا بباريس ، وتعد من أهم موءسسات الأدب المقارن في العالم ، بما قدمت من دراسات وأبحاث خلال فترة زمانية طويلة .

ب - التاريخ الأدبي : درس الى جانب الأدب المقارن ، تاريخ أدب فرنسا . وكانت ثمرة عمله ذاك كتابه الشهير " تاريخ الأدب الفرنسي " (1922 -1924) بالاشتراك مع جوزيف بيديي *Joseph Bedier* (1864 - 1938) أحد أعلام المنهج التاريخي . وأعيدت طباعة الكتاب في 1948 - 1949 م .(1)

كان هازار موءرخ أدب ، في أزهى فترة لتاريخ الأدب . دفعته دراساته " العلمية " الى تتبع موضوعات وأفكار تسربت الى الأدب الفرنسي عبر عصوره المختلفة ، فجمع بذلك بين الأدب المقارن والتأريخ الأدبي ، انطلاقا من المنهج التاريخي محور الأدب المقارن وتاريخ الأدب ، فكان للانسون فضل عليه في المنهج ، وكان له دور في ذيوع ذلك المنهج وانتشاره .

هذه نماذج من تلاميذ لانسون وأتباعه الذين يعدون بالعشرات - حتى لا نقول بالمئات.

---

1)- *Tieghem(philippe Van): Op. cit. T2 P1745.*

اقتنعوا بمنهجه وطبقوه في دراساتهم ، وعملوا على نشره من خلال دروسهم وكتاباتهم .

لم يكن تأثير لانسون حكرا على الفرنسيين ، فقد أثر في الطلبة الأجانب الذين تتلمذوا عليه مباشرة ، أو على تلاميذه المتحمسين له أمثال " رودلير " و " ومورني" و"بالدنسبرجير " وغيرهم . ومن الطلبة العرب الذين تتلمذوا عليه مباشرة : أحمد ضيف ، وطه حسين . أما الذين تتلمذوا على تلاميذه فمنهم : زكي مبارك ، ومحمد مندور ، وسامي الدهان ، وسهير القلماوي ، ومحمد غنيمي هلال ، وخودت الركابي ، وعلي جواد الطاهر وغيرهم . وتتلمذ على تلاميذه أو على تلاميذ تلاميذه مجموعة كبيرة جدا مثل شكري فيصل وناصر الدين الأسد ومحمد يوسف نجم ، وعبد المحسن طه بدر . وتلا هذه المجموعة جيل كبير من الدراسين العرب المعاصرين في كل البلدان العربية . وفي فصول لاحقة سنبحث عن مظاهر اللانسونية وتطبيقاتها عند أبرز هؤلاء النقاد العرب من الذين تتلمذوا على لانسون نفسه أو على تلاميذه المباشرين ، تاركين البقية من النقاد لأبحاث ودراسات أخرى، فالموضوع شاسع لا يسعه بحث واحد حجما وجهدا .

الفصل الثاني

اللانسونية

نشأتها وأسسها وخطواتها وتعريفها

اللانسونية ، مصطلح أطلقه جماعة من الأدباء والنقاد الفرنسيين أمثال شارل بيقي وأغاطون *Agathon* وغيرهما سخرية واحتقارا للمنهج التاريخي في دراسة الأدب[1] والتأريخ له ، كما حدده لانسون ، لارتباط ظهور المنهج وانتشاره - وقتذاك - بجملة من الاصلاحات والتغييرات في المدرسة العليا للأساتذة والسوربون الجديدة اعتمدت على الاقتداء بالدراسات الجرمانية في تجديد المقررات والمناهج الدراسية ، والغاء المقررات والمناهج القديمة .[2] فرأى هوءلاء المعارضون في هذه الاصلاحات خطرا داهما يهدد العبقرية الوطنية والذوق الفرنسي ، وهاجموا كل من توسموا عنده قابلية للتأثر والاقتداء بالمناهج الجرمانية . وكان لانسون وأتباعه من أبرز المتحمسين للاقتداء بالمناهج العلمية مهما كان مصدرها ، لايمانهم بأن العلم انساني يتعدى الحدود القومية ، ويمقت

---

1) - أغاطون *Agathon* : لقب استعاره كل من هنري ماسيس *Massis H.* (ألفريد دوتارد *DeTarde Alfred* خلال حملتهما ضد " عقلية السوربون الجديدة " التي كان " لانسون و تلاميذ من أبرز أعلامها ومنشطيها . واللقب في الأصل اسم شاعر يوناني هو: أغاطون شاعر تراجيدس ابن تيسامينوس الأثيني ولد في حدود 450 ق . م ، تأثر بفلسفة السفسطائيين، وكان متهما بعدائه للديمقراطية . وكان مجددا في فن التراجيديا متحررا من تقاليد المسرح ولم يكن خاليا من الموهبة (د .لويس عوض :نصوص النقد الأدبي، اليونان، الجزء الأول دار المعارف 1965 ص 193). وحمل اللقب نفسه القديس أغاطون الذى عاش في با خلال القرن السابع الملادي ، و حارب " بدعة التوحيد " . (*Larousse Universel*) ويتضح أن هذا اللقب يدل على التحرر في الفن والابداع من جهة ومعاداة التحـ...ـر الديني وما ينجم عنه من جهة أخرى .

2)- *Pommier (Jean)* : *Opcit. P. 389.*

التعصب أيا كان سببــــه .

حظي مصطلح " اللانسونية " بذيوع وانتشار في الأوساط الجامعية والثقافيـــة الفرنسية - باعتبارها وجها من وجوه قضية دريفوس - فقد تداوله أعداء لانسون سخريـــة واحتقارا ، وأعجب به أنصاره ، فتداولوه مصطلحا يدل على المنهج التاريخي في دراســة الأدب والتأريخ له ، كما حدده لانسون . فكيف كانت نشأة هذا المنهج ؟

ب- النشأة والتطور :

لم يظهر المنهج التاريخي (اللانسونية) فجأة ، ولم يكن اختراعا أوبدعة ابتدعها لانسون ، وانما ظهر نتيجة لجهود أجيال وأجيال في الدراسة والبحث منذ أقدم العصـــور ، يصعب تحديد بدايتها الأولى ، والمرجح أنها بدأت مع ظهور أول نص أدبي : ((قـــال فكاهي : ان أول ناقد وأول مكتبي ظهرا في اللحظة نفسها . فعندما انتهى أول مؤلف من تأليف كتابه انتقده الأول مجرحا ، وخزنه الثاني بعيدا عن القراء .

وتدل هذه الطرفة - على الأقل - على أن النقد الأدبي والبيليوغرافية فنيات قديمـة قدم الأدب المكتوب نفسه . وللعدل ، ولابد من اضافة أستاذ الأدب الى المجموعة ، حتـــى يتكفل هو الآخر بتشريح الكتاب ليقزز تلاميذه من الكتاب " على حد تعبير الفكاهي ")).(1)

ولكي يجرح ناقدما موءلفا معينا ، يتحتم عليه الاستعانة بمعايير وقيم جماليـــة يستند اليها لابداء آرائه واصدار أحكامه النقدية . وللوصول الى استنباط المعايير والقيـــم الجمالية ، لابد من توفر تراث أدبي كبير يعبر عن مجتمع بلغ مستوى حضاريا معينا ، وهذا ماتمثله كل من أفلاطون ، ثم أرسطواللذين حددا المفاهيم الأساسية للمثال والجمال والنظام الشعري ، ووضعا للدرس الأدبي سلما للقيم والمعايير النقديـــة .(2)

1) *Escarpit (René): Histoirede L'histoire de la littérature (In histoire des littératures T3) Gallimard. Paris 1958- P.1744.*

2)- *Escarpit (R): Idem . P. 1746 .*

وضع الاغريق الاسس الاولى للدرس الادبي ، بوضعهم معايير نقدية لدراسة النـــص الشعري ، فكانت المحك النقدي للنص الادبي بعيدا عن أي عامل آخر .ثم امتزج الفكـــر الاغريقي بالفكر الشرقي المعاصر له متجسدين في الفكر الهلنستي ، الذي جعل من مكتبـــة الاسكندرية الشهيرة رمزاله : ((ان تاريخ الادب لم يولد بعد ، ولكن شروط ولاد تــــه اصبحت متوفرة : اذ مثلما أمدته أثينابالهيكل الثقافي والجمالي ، هاهي الاسكندريـــة تمده بفنيات الحفظ والترتيب الزماني .)) [1].

أمدت الاسكندرية الدرس الادبي بفكرة الفهرسة والتوثيق والترتيب الزماني . وتبلـور ذلك طيلة العصو ر الوسطى ـ غربا وشرقا ـ في التأريخ للشخصيات الادبية بترجمات وسير أدبية ، تتسم بالعمومية في سرد الاحداث وتحليلها بأساليب خطابية انشائية ، مثل معجـم الأدباء لياقوت الحموي ، ووفيات الاعيان لابن خلكان ، وكتابات ابن القفطي والصفدي ، ثـم تجميع النصوص الأدبية وترتيبها ، قصد المحافظة عليها ، وتسهيل الوصول اليها ، مثـل الأغاني والعقد الفريد واليتيمة والذخيرة . ولم تتبلور الروح التاريخية في البحث شرقا أو غربا الا في القرن الرابع عشر للميلا د عند ابن خلدون :((الموءرخ الحقيقي الوحيد للاسلام (...) الا أن الادب لا يحتل سوى جزءا بسيطا من تاريخه الكبير .

لقد استشف ، قبل فيكو Vico [2] بأمد طويل ، الملامح العامة لفلسفة علم الاجتماع والتاريخ ، الا أنه جاء قبل الأوان أو بعده ، للتسرب عن طريق اسبانيا ، فضاعت رسالتـــه بالنسبة للغرب .)) [3]

---

1)-Escarpit((R):Idem.P. 1748.

2)-Vico(Giovani Battista): فيكتورجيوفاني باتيستا (1668-1744) مؤرخ و فيلسوف ايطالي أستاذ البلاغة في جامعة نابولي.أصدر في سنة 1725م كتابه الشهير :"أسس فلسفة التاريخ"الذي ترجمه الى الفرنسية " ميشلي سنة 1835م و تأثر به كثيرا.
انتقد فيكو في مؤلفه هذا المنطلق الديكارتي مفضلا عليه المقارنة ،اقتداء بفقه اللغة ،في دراسة نشأة وتطور وتدهور الأمم ،التي تمر حسب رأيه بثلاث مراحل متتالية :عصر الآلهة ،عصر الأبطال،عصر الرجـــال. و رغم بعض الأخطاء فانه يعد رائد علم التاريخ.

3)- Escarpit (R):Idem.P. 1755.

اذا كانت رسالة ابن خلدون العلمية قد ضاعت بالنسبة للغرب ، لانه جاء قبل الأوان اللازم للتأثير في أوروبا أو بعده ، فانها قد ضاعت بالنسبة للشرق أيضا ، لأنها جاءت في عصر خلد فيه الفكر العربي الى الجمود ، ولم ينفض عنها الغبار الا في مطلع القرن العشرين ، بعدما صار المنهج التاريخي - في أوروبا - حقيقة علمية في العديد من الحقول المعرفية ، فتحول الاهتمام برؤية ابن خلدون التاريخية الى اهتمام بجزء من التراث التاريخي .

ظهر تاريخ الأدب في أوروبا بفضل جهود أجيال عديدة ، وتراكم أحداث متنوعة مثل اختراع المطبعة التي ثبتت النصوص وسهلت تبادلها وحددت تواريخها ، ونشأة قوميات كبيرة حول لغة معينة لها كتابها الذين سيبدعون أدبا معبرا عن تلك القومية ، ولها ساستها الذين سيعملون جهدهم لابراز الحدود الجغرافية والسياسية واللغوية الفاصلة بينهم وبين جيرانهم . ولتقوية الروح القومية ، عمل أساتذة الأدب على ابراز تمايز الادب القومي عن الآداب الاخرى - قديمة وحديثة - بدراسته والتأريخ له باعتباره نشاطا قوميا منفردا بمكوناته وخصائصه .(1)

حدث ماسبق ذكره ، عندما تخلص الأدب من كل الكتابات الفلسفية والدينية والتاريخية والسياسية والاخلاقية وغيرها ، متبلورا في نشاط فكري ابداعي يعبر عن حاجيات المجتمع الأوروبي الجديد ، المجتمع البرجوازي وبذلك : ((ولد الأدب كما نعرفه الآن في الصالونات وعند الناشرين تلبية لحاجة فن التراجم أو السير العتيق الذى أنعشته الروح القومية ، وللنقد الأدبي المنتعش بالحاجة الثقافية . (...) ويكفي الآن أن تتطور المؤسسات ، وأن يخرج علم التاريخ من حيزه الضيق ليتم اللقاء ، وليبرز في الأخير

---

1)- *Escarpit (R) : Idem . P. 1756 .*

تاريخ الأدب ، غنيا بكل التجارب التي تعاقبت عبر العصـور .)) (1)

تم اللقاء بين الأدب وعلم التاريخ ، بمعناهما المتعارف عليه الآن ، في القـرن التاسع عشر بين أحضان الفلسفة الوضعية ابنة الفكر الفلسفي الألماني :((يتجلى الأثـر البديهي للفلسفة الألمانية في تاريخ الأدب من عقليتها الأصولية التي زودته بهـا .

وبمعنى آخر ، لقد طرحنا حتى الآن مشكل النوايا . ومنذ بداية القرن التاسع عشـر ، طرح مشكل المناهج بدلا من مشكل النوايـا ، وتحول السؤال من : لماذا ؟ الى كيف ؟)) (2)
وصادف هذا اللقاء بين الأدب وعلم التاريخ ، تطور التعليم العالي في فرنسا ، وتحولـه من نشاط ثقافي عام ، الى نشاطات معرفية دقيقة ومنظمة ، لها قوانينها المسيرة لهـا بغية تحقيق أهداف معينة ، فتأسست الدروس النظامية المغلقة ، ببرامج محددة ، وأصبح التعليم الجامعي قطاعا أساسيا فيالحياة الثقافية ، لجمهوره - طلابا وأساتذة - متطلباتـه المعرفية والجمالية ، فظهر تبعا لذلك النقد الجامعيالى جانب النقد الصحافي ، الـذي كان سائدا طيلة القرن التاسع عشر : ((ارتبطت نشأة حرفة النقد بطائفتين لا وجود لهمـا قبل القرن التاسع عشر : طائفة الأساتذة وطائفة الصحافيين)) .(3)

عرفت فرنسا ، أواخر القرن التاسع عشر ، نمطين من النقد :

الأول جامعي موجه الى الطلاب والأساتذة همه جرد الماضي ، والثاني صحافي همه متابعـة الحاضر الأدبي . (4) ومن البديهي أن يهتم النقد الصحافي بمتابعة الحاضر الأدبي ، تلبيـة لرغبة القارىء العادى في الاطلاع ومتابعة النتاج الأدبي دون تنقيب وتدقيق واضاعة الوقت

1)-Escarpit (R): Idem. PP. 1767-1768.
2)-Escarpit (R): Idem. P. 1772.
3)-Thibaudet (Albert): Phisiologie de la critique. Nizet-Paris 1971. P.08
4)-Thibaudet (Albert): Idem. P. 11.

في السعي وراء المصادر والمراجع وتحري الحقيقة ، فالمطبعة لا تنتظر ، والقارىء لا يطلب ذلك . أما النقد الجامعي ، فهو موجه الى طلاب وأساتذة ذوي مستوى ثقافي وعلمي عال - بالنسبة للقارىء العادي - [illegible] تسهل عليهم بناء نسيج معرفي حول أديب أو أدب ما ، لذا فهو يعنى بدراسة الأدب القديم لثباته أولا ، وتوفر مادة علمية حوله ثانيا ، والاتفاق العلمي أو التربوي حول نموذجيته ثالثا ، ثم لسهولة تطبيق فنيات البحث عليه رابعا .

ان هذا الاختلاف بين النمطين النقديين هو الذي يفسر اعتناء النقاد العرب - الذين ينشرون نقدهم في الصحف - بالنتاج الأدبي الحديث أو المعاصر لأنّ القارىء العادي يهتم بالنتاج الحديث أكثر من [illegible] على العكس من الطالب الجامعي أو الأستاذ اللذين يتعاملان مع منهاج أو مقرر عادة ما يكون ثابتا . وهذا ما يفسر تطبيق المنهج التاريخي في النقد الجامعي عند العرب على الأدب العربي القديم .

لقد أدى ظهور طوائف النقاد ، والروح التأريخية ، ونزعة التحرر القومي - فلسفيا وسياسيا - الى ظهور تيارات [illegible] في [illegible] والجامعة تجسدت في تيارين كبيرين :

أ - التيار العلمي ، وبدأت ملامحه تتضح مع ظهور الناقد الكبير سانت بوف (Saint Beuve 1804 - 1869) في مقالاته الصحافية العديدة التي حاول فيها رسم شخصيات منقوديه ، ثم ترتيبهم في مجموعات وفصائل تربطها روابط مشتركة .(1) واستطاع بثقافته الواسعة ، [illegible] أن يقدم تحليلات دقيقة ومقنعة لشخصياته في محاولة لاستكشاف العبقرية الفردية لدى أديب أو أديبة ، وبذلك وظف الدرس الأدبي لاستكشاف عناصر شخصية المبدع ، فكان نقده مقدمة [illegible] للنقد العلمي الذي تبلور أكثر عند هيبوليت تين ((والحقيقة أنه لم يكن أول من حاول [illegible] مناهج تاريخ الأدب بمناهج العلوم الوضعية .

1)-Beuve (Saint;):Oeuvres.T1.Bibliotheque de la pléiade.paris 1956 P.P. [illegible].

ولكن تاريخه للأدب الانكليزي (1864 ـ 1872) كان أول نجاح للوضعية في هذا المجال انه لنجاح نهائي ، اذ لم يعد ممكنا ، بعد تين ، تجاهل الأدب باعتباره ظاهرة خاضعة لحتمية القوانين العلمية الكبرى .)) (1)

صاغ " تين " حتمية القوانين العلمية في نشأة الظاهرة الأدبية وتفسيرها ضمن نظريته الشهيرة : ((الجنس والبيئة والزمان .)) (2) حيث رأى أن هذه العوامل الثلاثة هي أساس كل ابداع ، تطبعه بطابعها . ولا يفهم أو يفسر الا على أساسها . وعلى الرغم من أن هذه العوامل مجتمعة أو متفرقة ، تفسر العديد من الظواهر الأدبية ، الا أنها لا تفسرها كلها ، كما أنها لا تفسر جميع جوانبها ، والدليل على ذلك أنها لا تخلق مبدعين متشابهين يشتركون فيها ، لا تخلق بالضرورة مبدعين يعبرون عنها .

لقد كانت نظرية "تين" خطوة كبيرة في دراسة الأدب بربطه الظاهرة الأدبية بالمجتمع اذ جعلها تصدر وتعبر عنه ، فالعناصر الثلاثة هي مكونات المجتمع الأساسية وهكذا عد الأدب تعبيرا عن المجتمع في التراث النقدي .

ثم يتقدم فرديناند برونتيير بالمنهج العلمي خطوة أخرى ، عندما يقتدي بنظرية " داروين" في تطور الجنس البشري ، ويدرس بناء على ذلك تطور الشعر الغنائي بفرنسا في القرن التاسع عشر (3) محاولا البرهنة على أن الأدب يتطور مثلما تطور الجنس البشري ، نتيجة لعوامل أدبية متتابعة ، ومن ثمة تطور الشعر الغنائي عبر مراحل أولها الشعر الديني ، وآخرها الشعر الوجداني العاطفي . وقد كان معجبا بالعلوم التجريبية ومناهجها ، فحاول اخضاع الدرس الأدبي لقوانين علمية ، مقتبسة من علوم أخرى : ((لقد جدد المنهج المقارن كل شيء حولنا في قرننا

---

1)- Escarpit (Opcit P.1779.

2)- Taine (H): Histoire de la littérature Anglaise. Paris 1863 PP 22-23.

3)-Brunetiere(Fernand): L'évolution de la poésie française au XIX siècle. LibrairieHachette T1 Paris 1893. PP. 03- 32

هذا . واذا كنا لا نسمع ، وبحق ، سوى الحديث عن علم التشريح ، والفسيولوجيا ، وفقه اللغة ، والميثولوجيا المقارنة ، ولا أحدمنكم يعلم ما يدين به التاريخ والمعرفة الانسانية من تقدم لهذه الوسائل المزعوم تجاوزها ، فانه لمن الغريب أن نبقى الوحيدين ـ نحن النقاد وموءرخو الأدب ـ الذين حرم علينا هذا المنهج ؟ ! .

بهذا المنهج ستطيع كل من النقد وتاريخ الأدب عقد آمال التجدد)) [1]. كان معجبا بالمناهج العلمية التجريبية التي شاعت في القرن التاسع عشر في ظل الفلسفة الوضعية ، وغالى في محاولة تطبيق تلك المناهج لدرجة التزمت ، فصدر نقده عن قناعات علمية مسبقة فعد بذلك رمزا للنقد المذهبي أو العقائدى (*Dogmatique*) : ((لقد كان وضعيا باتجاهاته وثقافته ، دفعته تأملاته المحافظة والواعظة في الاخير الى التقييد المذهبي المتزمت .)) [2]

وهكذا نرى أن النقد العلمي تطور في القرن التاسع عشر بفرنسا ، من نقد يعتمد الذوق وشفافية الحدس ودقة الملاحظة مع الاخذ بشيء من الروح العلمية في التصنيف عند " سانت بوف " الى نقد يحاول تطبيق المناهج العلمية المطبقة في العديد من العلوم التجريبية على الأدب عند "برونتيير" ولو تم ذلك بالتمحك ، الامر الذى جعل الدرس الأدبي يخرج بنتائج وأحكام لا يستسيغها الذوق ولا يقبلها العقل . فالشعر الديني لم يتحول الى شعر عاطفي وجداني ، وانما ضعف الشعر الديني ، وبرز الشعر العاطفي الوجداني لتغير الظروف الاجتماعية التي أوجدت الأول في حينه ، وظهور ظروف أخرى أوجدت الثاني .

2 ـ التيار التأثري الذي يرى أن النص الأدبي خلق وابداع للمتعة والامتاع والتلذذ بمعانيه وصوره الجميلة التي يعبر بها المبدع عن روءاه وخيالاته وتصوراته . ومن ثمة ، لا يحق

---

1)- Brunetière(F): Idem. P. 07.

2) -Simon(P.H): Histoire de la littérature françaiseau XX siècleT1. P.35

للناقد أن يعبث بالنص ويفتته الى أفكار وجمل لتصنيفه والحكم عليه . فليس من حق أحد الحكم على أفكار شخص آخر وعواطفه ، فالناس أحرار في عواطفهم واحساسأتهم.وما على الناقد الا الاستمتاع والتلذذ بقراءته للاثر الأدبي ، وتسجيل تأثره وتبليغه للقراء حتى يساعدهم على ورود مواطن الجمال التي أحس بها في الأثر الأدبي بذوقه المرهف والمدرب . ولهذا رفضت التأثرية الحكم على الاثر الادبي ، واعتبرته تعديا على المبدع أولا ، وعلى القارىء ثانيا . وكان جول لومتر أكبر مدافع عن التأثرية ، وزعيمها الأكبر .

عرف التاريخ بفرنسا في نهاية القرن التاسع عشر اهتماما كبيرا . اذ شاع في الأوساط الجامعية الاتجاه الرافض لأدبية التاريخ " بفعل الفلسفة الوضعية" والتطور العلمـــي، وساد القائل بأن " التاريخ علم " ، له قوانينه المتحكمةفيه والمفسرة له ، فعد بذلك " تاريخ الأدب " جزءا من العلم (التاريخ) ، لأنه جزء من التاريخ الانساني العـــام.

فشرع موءرخو الأدب ، نظرا للمكانة العلمية التي أحرز عليها الموءرخون في ذلك العهـــد، في تقليد الموءرخين فى أواخر القرن التاسع عشر ، بالعمل على جعل تاريخ الأدب علمـــا، شأنه شأن التاريخ . (1) وهكذا ظهر تاريخ الأدب ، فى فرنسا ، موءسسة علمية سنـــة **1893** م بتأسيس " جمعية التاريخ الأدبي لفرنسا " التي ضمت كبار أساتذة الأدب الفرنسيين آنذاك أمثال " غاسطون باري ، " جوزيف بيديي و " فيردنان برونو *Ferdinand Brune* (2) (1860 - 1938) الذين أرخوا للآداب القديمة ، يونانية ولا تينية ، ثم الوسيطـــة، أما الأدب الحديث فترك للأدباء الخلص .

في هذا الجو العلمي المشبع بالفلسفة الوضعية والصراع العنيف بينالنقدالعلميوالنقد التأثري، يبدأ اسم " غوستاف لانسون " يتردد في الأوساط الجامعية منذ نشر كتابه الشهير: تاريخ الأدب الفرنسي " سنة 1894 م ، مقترنا بالثورةعلى النقدين العلمي والتأثري معا، وهكذا قدم سنة 1909 م في جامعة " بروكسيل " محاضرة حول " الروح العلمية ومنهج تاريخ الأدب " أعلن فيها : ((دراستناتاريخية . ومنهجنا سيكون اذن منهج التاريخ .)) (3)

---

1)- *Compagnon(A): Opcit. P.P. 23- 26 .*

2)- *Bouvier(E). : Les lettres Françaises au 20e siècle. Puf. Paris1962. PP65-*

3)- *Lanson(Gustave): L'esprit scientifique et l'histoire litteraire. (In Methodes de l'histoire litteraire et hommes et livres. Ressources Paris-Geneve 1979. P.28 .*

ثم نشر في العاشر من أكتوبر سنة 1910 م بمجلة الشهر *Revue du Mois* مقالته الشهيرة " منهج تاريخ الأدب " محددا أسس وخطوات المنهج التاريخي في دراسة الأدب وأصبحت تلك المقالة قانون اللانسونية ودستورها المتبع.

2- اللانسونيـــة :

يقر "لانسون" في مستهل مقالته أنه لم يخترع أو يبتكر المنهج التاريخي ، وكل مافعله أنه استخلصه من التفكير في الخطة التي سار عليها أسلافه والبعض من معاصريه في دراسة الأدب الأوروبي والفرنسي قديمه ووسيطه . (1) وكأن الوصول الى منهج واستخلاصه من التفكير في أعمال الآخرين أمرهين ! لقد بدأ المنهج التاريخي في دراسة الأدب يتبلور عند الألمان، مع ظهور كتاب " تاريخ الأدب الألماني " سنة 1883م للكاتب الشهير " شيرر *W. Scherer* (1841 - 1886) الذي كان الفيصل بين فقه اللغة والفولكلور . فصار النقد الأدبي الألماني وقتذاك مشبعا بالروح الوضعية متمثلة في تحقيق النصوص ، والأبحاث الببليوغرافية ، ودراسة الأصول ، والتأثيرات ، وسير المؤلفين . (2) ولقيت الدراسات الجرمانية اهتماما كبيرا عند فئة من الأساتذة الفرنسيين المتفتحين ، أمثال " غاسطون باري *Paris Gaston* المؤثر القوي في لانسون : ((كان " غاسطون باري " نموذجا لأستاذ الأدب ، فاقتدى به لانسون. لقد كان هذا الدستوري ذو الهمة العالية السخية أحد مؤسسي دراسات العصور الوسطى الفرنسية . ففي سنة 1865 م نشر" التاريخ الشعري لشارلماني " حسب المفهوم الوضعي الدقيق ، أي في الوقت الذي كان فيه "تين" تاريخ الأدب الانكليزي تقريبا . ثم كرس بقية

---

1) - لانسون : منهج البحث في تاريخ الأدب : ترجمة د. محمد مندور . منشور ضمن كتابه . " النقد المنهجي عند العرب " ص 395.

ملاحظة : راجعت ترجمة د. مندور على الأصل الفرنسي فوجدتها أقرب مايمكن من الأصل ، ولم أستطع الاتيان بأفضل منها . فاعتمدت الترجمة مع الرجوع باستمرار الى الأصل ، وحتى لا أذكر المرجعين معا ، سأذكر النص المترجم .

2)- *Delfau(G) et Roche(A): Opcit. P.P. 129-130.*

عمره لاتقان مناهج فقه اللغة ، (1)وبخاصة تلك التي تهتم بتحقيق النصوص (....)

عرف فقـــه اللغة الألماني ـ الذى كان غاسطون باري تلميذا لهـعصره الذهبـــي في نهاية القرن . فقد أعطاه " هيرمان بول *Herman Paul* " قاعدتـــه المذهبية والفنية في كتابه " مجمل فقه اللغة الألمـاني " (*Grundriss Der Germanischen Philologie*) الذي صدر من 1891 م الى 1893م . مقدما بذلك تحليلا قويـا لمفهوم الأدب .)) (2)

طبق المنهج التاريخي أول ماطبق في ألمانيا ، ثم طبقه جماعة من الأساتذة الفرنسيين مثل الأخوين ألفريد وموريس كروازى *Alfred et Maurice Croiset* (1845 - 1923 ، 1846 - 1935 وغاسطون بواسيي *Gaston Boissier* 1823 - 1908 وغاسطـــون بارى وجوزيف بيديي وغيرهم ، (3)في التأريخ للآداب القديمة والوسطى . فتشجع "لانســـون" لتطبيق هذا المنهج فى التأريخ للأدب قديمه ووسيطه وحديثه أيضا اقتداء بخطة هوءلاء الأسلاف والأساتذة ، وبخاصة عند اطلاعه على كتاب الفيلسوف الفرنسي " فريد ريـــــك راو *Frederic Rauh* (1861 - 1909)بعنوان " المنهج في علم نفـــس الاحساس " ، واستنتاجه أن لا وجود لعلم عام ، ((وانما هناك منحى علمي عام .)) ، (4)

---

1) - ليس المقصود بفقه اللغة " علم أو علوم اللغة فى ذاتها " كما هو معروف عند العرب وانما المقصود عند الغربيين : دراسة النصوص القديمة وتحقيقها وشرحهــــــــا . أى دراسة التراث اللغوى والأدبي دراسة تاريخيـــة .

2)- Escarpit R. : Opcit. PP. 1783-1784.

3) - لانسون : المرجع السابق ص 395

4) - لانسون : المرجع السابق ص 408 .

أي هناك روح علمية يوءخذ بها في كل علم خاص نابع من طبيعة المادة المدروسة.

تتضمن مقالة لانسون عناصر أساسية ، تكون المنهج هي : الأسس النظرية للمنهج ، ثم الخطوات العملية ، فالصعوبات ، وأخيرا متفرقات مثل علاقة تاريخ الأدب بالتاريخ العام ، وأهمية تاريخ الأدب ، وتعريف الأدب ، وارتباط المنهج بالوطنية الحقة .

أ- الأسس النظرية : تتكون اللانسونية من جملة أسس نظرية ، لا بد أن يأخذ بها الباحث ، حتى يكون تاريخه لأي أدب أو ظاهرة أدبية عملا علميا أهمها :

1 _ الأخذ بالروح العلمية : وتتمثل في البعد عن تلك المحاولات العديدة لاقتباس مناهج علمية ، خاصة بعلوم معينة وتطبيقها في دراسة الأدب أو التأريخ له ، لأنها لا تجعل من الدرس الأدبي علما : ((لقد كان تقدم علوم الطبيعة خلال القرن التاسع عشر سببا في محاولة استخدام مناهجها في التأريخ الأدبي غير مرة ، وذلك أملا في اكسابه ثبات المعرفة العلمية وتجنيبه ما في تأثرات الذوق من تحكم ، وما في الأحكام الاعتقادية من مسلمات غير موءيدة . ولكن التجربة قد حكمت باخفاق تلك المحاولات .))[1] لذا ينصح " لانسون " الباحث بالابتعاد عن محاولة تطبيق مناهج تابعة من علوم أخرى _ كما فعل تين وبر ونتيير وغيرها _ [2] والابتعاد عن المعادلات العلمية والخطوط البيانية ، لأنها لا تفيد الدرس الأدبي في شيء ، وانما تضفي عليه هالة كاذبة من النتائج غير الثابتة لعدم ثبات الأدب نفسه فالروح العلمية لا تكمن اذن في الأخذ بمناهج العلوم الأخرى ، وانما في الأخذ بروحها :((ذلك أنه يلوح لنا أن ليس هناك علم عام أو منهج عام ، وانما هناك منحى علمي عام . لقد خلط الناس لزمن طويل بين الروح العلمية في ذاتها وبين منهج هذا العلم أو ذاك بسبب النتائج

---

1) _ لانسون : المرجع السابق ص405

2) _ لانسون : المرجع السابق ص 406

3) _ لانسون : المرجع السابق ص 405 _ 406 .

الدقيقة التي توصل اليها .)) [1]

ان الروح العلمية ، كما يفهمها لانسون ، مجموع صفات ، على الباحث أن يتحلى بها في التعامل مع مادة بحثه ، ومن ثم على دارس الأدب وموءرخه أن يتحلى بهـا أهمها : - الموضوعية في التعامل مع مادة البحث ، من خلال طرح كل الأفكار المسبقة ، والأهواء والنزعات الشخصية ، والصدوع بالحقيقة مهما كانت طبيعتها .

ا - النزوع الى استطلاع المعرفة والرغبة في الاستزادة العلمية حبا في العلـم ، اذ يصعب على من يأخذ بهذا الأساس مواصلة البحث ومكابدة مشاقه ، فالمعرفة عـادة ماتكون صعبة المنال، وكلما تقدم فيها الانسان خطوة اكتشف أنه يجهل الكثير .

ب - الصبر الدوءوب وذلك هو الضمان الوحيد لتجاوز الصعاب والعراقيـل التي تعترض سبيل الباحث خلال سعيه وراء الحقيقة ، وكلما كانت الصعاب والعراقيل كثيرة كلما احتاج الباحث الى الكثير من الصبر ، فتعظم بالتالي نتائج عمله ، اذ عادة ما ترتبط قيمة البحث بصعوبته .

ج - الاستعصاء على التصديق لأن العديد من الباحثين يخطئون كثيرا بتصديق نتائجهم الأولية بسهولة ، تقديرا لجهودهم ، فتأتي نتائجهم النهائية بعيـدة عن الحقيقة ، ولاضمان لتفادى ذلك سوى الاستعصاء على التصديق السريـع اللهم الا اذا كان الدليل قاطعا والبرهان ساطعا . ومن سبل محاربة التصديـق السريع ضرورة النقد والمراجعة والتحقيق باستمرار . اذ مثلما ينقد الباحث آراء غيره ويراجعها ويحققها ولا يأخذها مسلمة ، عليه أن ينقد ويراجع ويحقق آراءه . فمعارف الانسان وأحاسيسه تتغير وتنمو بتقدم العمر ، وتطور المعـارف الانسانية وتغير الظروف المادية العامة والخاصة بـه . [2]

1) - لانسون · المرجع السابق ص 408

2) - لانسون :المرجع السابق ص 408

2 - المزج بين الذوق والمعرفة : وهما في الحقيقة أساس اللانسونية حيث جمع بهما بين النقد العلمي والنقد التأثري ، مضيفا اليهما عناصر تقوي الربط بينهما ليكون منهجه بعيدا عن تزمت " العلميين " وتسيب " التأثريين " : ((انطلق لانسون من مبدا يتمثل في أن كل حكم أدبي نزيه وكامل يتضمن عاملين : أحدهما غير ذاتي وهو المعلومة التاريخية . والآخر ذاتي وهو تذوق الاثر ، حسب ذوق كل واحد .)) (1)

كانت هجومات " لا نسون " ضد " تين " و " برونتيير " وكل من حاول علمنة الأدب والنقد عنيفة ، ولكنه احتفظ بمبدا التعامل مع الأدب تعاملا علميا ، بمفهوم يختلف . فالمعرفة عنده لا بد أن تنبع من طبيعة الأدب نفسه ، تتمثل في جملة مبادىء وأسس على الباحث الالتزام بها ، كما سلف القول ، ثم جملة من الخطوات العملية الخاصة بتحقيق الأثر الأدبي وشرحه والحكم عليه .

أما الذوق ، فعلى الرغم من استهجان " لانسون " للنقد التأثري ، وحملاته العنيفة ضده ، الا أنه يقر بضرورة التذوق في أي نقد : ((لن نعرف قط نبيذا بتحليله تحليلا كيماويا أو بتقرير الخبراء دون أن نذوقه بأنفسنا . وكذلك الأمر في الأدب فلا يمكن أن يحل شيء محل (التذوق) .)) (2)

فالأدب أحاسيس وأفكار يحاول مبدعها بعثها فينا بمفردات صاغها صياغة معينة حتى تثير عند القارىء أو المتلقي معادلا لتلك الأحاسيس أو الافكار ، فان لم يكن التذوق وسيلة التجاوب مع النص فكيف نتجاوب معه اذن ؟

لقد أدرك " لانسون " صعوبة التخلي عن التذوق في دراسة الأدب ، لانه المفتاح الى القلب ، فأقر العمل به : ((ومادامت التأثرية هي المنهج الوحيد الذي يمكننا

---

1)- *Tuffrau Paul : Complément pour " Histoire de la littérature de Lanson " P. 1193.*

2) - لانسون : المرجع السابق ص 402 .

من الاحساس بقوة الموءلفات وجمالها فلنستخدمه في ذلك صراحة ، ولكن لنقصره على ذلك في عزم ولنعرف - مع احتفاظنا به - كيف نميزه ونقدره ونراجعه ونحده ، وهذه هي الشروط الأربعة لا ستخدامه .)) (1)

تتمثل الخطوة الأولى لأيّ ناقد في تذوق الاثر الادبي تذوقا شخصيا نابعا من حساسيته الفردية الفنية ، ثم تذوقه بعد ذلك تذوقا تاريخيا ، أي بذوق العصر الذي ظهر فيه الأثر الأدبي وحساسيته ، وعلى الناقد الاستعانة لاجل ذلك بكتب تاريخ الافكار والذوق المعاصرة لنشأة أي أثر أدبي .

ان التذوق عند لانسون وسيلة يستعين بها الناقد في بناء حكمه النقدي ولذلك هاجم كثيرا التأثرى - كما ورد عند لومتر - الذي يزعم أن أحكامه النقدية نهائية لاتقبل المحاجة ، وأوصى باستخدامه والاستعانة به اذا اعتبر وثائق تدل على أذواق أصحابها ويستدل بها في تحديد ذوق فترة أو عصر ازاء أثر معين . (2) ان التذوق ضروري ، شريطة بقائه مجرد وثيقة تبين ذوق صاحبها ، مهما كانت مكانته العلمية ، وليس حكما نقديا مطلقا . ومع تعدد الوثائق النابعة عن التذوق حول أثر واحد ، يستطيع الناقد الاستعانة بها لتتبع تأثرات الناس بأثر معين ، مستنتجا من ذلك روءية أقرب الى الموضوعية . ويعتمد لانسون كذلك على التأثرات باعتبارها وثائق تبين حقيقة أصحابها في استجاباتهم لأثر معين ، فانه لايرفض الأحكام النقدية المذهبية أو العقائدية ، لانها تعبر عن أصحابها الذين يصدرون عن مذهب أو معتقد سياسي ، فلسفي أو ديني معين ، فيستعين بها لانها لاتمثل حقيقة الاثر المنقود/ انما تمثل حقيقة الناقد ، وبالتالي فهي الاخرى وثائق تاريخية تدل على مواقف شخص أو مجموعة أشخاص نحو أثر معين وأسباب ذلك . (3)

---

1) - لانسون : المرجع السابق ص 404

2) - لانسون : المرجع السابق ص 396

3) - لانسون : المرجع السابق ص 396 .

جمع لانسون بين المعرفة والذوق في دراسة الادب والتأريخ له ، مع وضع ضوابط معينة تكبح جماح الحساسية الشخصية وتضع تأثرات الغير موضعها الملائم لها ، وشرح معنى العلمية وشروطها وآلياتها في دراسة الادب . وبعد تشبع الباحث بهذه الاسس النظرية للانسونية ، عليه بعد ذلك بتطبيق الخطوات العملية التالية :

ب- الخطوات العملية : وتتلخص في : ((معرفة النصوص الأدبية ومقارنتها بعضها ببعض لنميز الفردي من الجماعي والأصيل من التقليدي ، وجمعها في أنواع ومدارس وحركات . ثم تحديد العلاقة بين هذه المجموعات وبين الحياة العقلية والأخلاقية والاجتماعية .))(1) بتطبيق الخطوات التالية خلال دراسة أى نص أونتاج أديب أو أدب ما .

ا- معرفة النص (تحقيقه) : والقصد بذلك ، الوصول الى دراسة النص الأدبي كاملا، كما أبدعه صاحبه وأخرجه للناس ، من خلال طرح التساؤلات التالية والاجابة عليها :(2)

هل نسبة النص صحيحة ؟ فالعديد من النصوص منسوبة لغير أصحابها وبخاصة نصوص الآداب القديمة التي نسب النساخ العديد منها لغير أصحابها خطأ أو عمدا ، لا شهار نص بنسبته الى علم ، أو للحط من قيمة علم بنسبة نص غير لائق اليه ، أو لأسباب أخرى كالترويج لأفكار معينة ، أو التهرب من السلطة . فالبحث البيليوغرافي ، وفن تمييز الأساليب ، ودراسة شخصية المؤلف دراسة متعمقة ، فنيات كفيلة بالكشف عن حقيقة نسبة النص ، وبذلك لن نصدر أحكاما حول نص لأديب معين ، بينما الأديب بريء تماما مما ورد في ذلك النص من جمال أو قبح أو عبقرية أوفجاجة .

هل النص كامل غير منقوص أو مشوه ؟ اذ كثيرا ما تتعرض النصوص الى التشويه والتغيير والنقصان بفعل ريشة النساخ قديما التي حذفت فقرات غير واضحة ، ونسيت فقرات ، ثم الأرضة التي تغذت بالكثير من أجزاء النصوص ، معششة داخل المخطوطات ، أما حديثا فقد تحولت ريشة الناسخ الى ناشر يتصرف في النصوص حسب رغبات القراء ، وحسب الظروف الفنية للطباعة . وعادة ما يكثر التصرف في المذكرات والخطب ، والمؤلفات التي تصدر بعد موت مؤلفيها ، لأسباب تجارية أو أخلاقية وغيرها . وحتى لا نحكم على أثر حكما يمجده لأن أسوأ أجزائه محذوف ، أو يحط منه لأن أحسن أجزائه

---

1) - لانسون : المرجع السابق ص 409

2) - لا نسون : المرجع السابق ص 409 - 410

محذوف ، علينا بالتأكد من كمال النص أولا ، ثم الحكم عليه بناء على ذلك ثانيا .

ماهو تاريخ النص ؟ ان معرفة التاريخ الدقيق لتأليف النص يجنبنا الحكم عليه أو له من منطلق غير سليم . فالنص المؤلف في تاريخ معين من حياة مؤلفه ، قد يفهم فهما غير صحيح ، لارتباطه بحادث معين في حياة المؤلف ، أو بمرحلة فكرية معينة في حياته ، فان لم ننتبه الى تواريخ تأليف النصوص ، واجتثثناها من اطارها الزماني، قد نصدر أحكاما خاطئة لا تطابق الحقيقة .

وزيادة عن هذا المزلق الناجم عن قلة التدقيق في تاريخ تأليف النص، ثمة مزلق ثان عندما تتعدد أجزاء النص أو الاثر ، وتتباعد تواريخ تأليفها ، فتنمو خلال ذلك الافكار ، وربما تتغير أحاسيس المبدع وآراوءه ، الأمر الذى يجعل الحكم على النص[9، 7] بأكمله ، دون مراعاة تواريخ تأليف أجزائه المختلفة ، مجانبا للصوّاب في أغلب الأحيان وبديهي أن البحث البيبليوغرافي العميق والدقيق هو الكفيل بتجنيب الباحث هذه المزالق . وهذه الخطوات مجتمعة تكون القاعدة الأساسية لتحقيق النصوص القديمة ، فأصدر أعلامها طبعات عديدة لاهم موءلفات الأدب الفرنسي الوسيط ، ثم الحديث ، فساهمت بذلك في ازالة الغبار على العديد من النصوص الادبية ، وتقديمها الى القراء كاملة ، أو مع تبيان أوجه نقصها عندما تكون ناقصة .

2 - سيكو لوجية ابداع النص : من خلال دراسة نفسية المبدع التي تتضح من تحويراته في النص بوساطة معرفة :

1- تغير النص من الطبعة الأولى الى الطبعة الاخيرة التي طبعها الموءلف، ودراسة أوجه الحذف والزيادة التي يجريها الموءلف في النص عبر الطبعات المختلفة . ومن دون شك ستكشف لنا هذه العملية عن تطور ذوق المبدع وأفكاره وأحاسيسه ، وقد تكشف لنا عن المخاوف والكبت الذي دفعه الى حذف فقرات معينة وربما كلمة واحدة لا ترضي

السلطة أو المجتمع أو جهة معينة . كما قد تكشف الزيادات عن الشجاعة والجرأة أو الطمع اذا تملق .

ب - كيف تكون النص من المسوده الأولى الى الطبعة الأولى ؟ وعلام تدل المسودات ان وجدت ، من حيث ذوق الكاتب ومبادئه الفنية ونشاطه النفسي ؟ ان دراسة مسودات الكاتب تكشف مقارنة مع الطبعة الأولى عن مراحل رسم المبدع للصورة الأدبية ، وأسلوبه في توظيف الكلمة المناسبة ، ومن ثمة يستطيع الدارس تلمس نشاط المبدع النفسي ، المراحل النفسية التي مربها خلال عملية الابداع صعودا أو هبوطا ، عنفا أو لطفا والمفردات والصيغ والتراكيب الموظفة لذلك . (1)

لقد عان " لانسون " بالمنهج النفسي في وضع فنيات توضح جوانب من النص الأدبي. الأمر الذى يجعل الباحث العربي يتساءل : أين أجد مسودات الأدباء العرب ؟ وحق له ان يتساءل . فالقدماء منهم لا نعلم حتى الآن علم اليقين ان كان ابداعهم ابن قريحتهم حقا ، وقد قيل كلام كثير في ذلك . أما المحدثون أو المعاصرون ، فلا يهتمون بمسوداتهم وحفظها في المكتبات العامة أو في مكتباتهم الخاصة على الأقل ، فهذا ليس من تقاليدنا الفكرية بعد ، ولكن هذا لايجرى على الأدباء الفرنسيين أو الأوروبيين ، فعادة ما يحتفظون بمسوداتهم ويحافظون عليها . وربما سيأتي يوم يجد فيه الباحث المسودات الأولى مسجلة بصوت مبدعها مع تعبيراته الجسدية خلال تصوره الأول ، لان وسائل التسجيل الحديثة تستطيع حفظ كل شي .

- شرح النص ، من خلال :

أ - اقامة المعنى الحرفي للنص بشرح مفرداته وتراكيبه وجمله ، مستعينين في ذلك بتاريخ اللغة ، والنحو ، والمعجم التاريخي لتحديد دلالة الألفاظ كما كانت شائعة زمن صدور الأثر ، وليس كما نعرفها الآن . ثم شرح العلاقات الغامضة بين الجمل والفقرات

---

(1) - لانسون : المرجع السابق ص 410 .

والاشارات التاريخية للنص ، ثم الاشارات المتعلقة بحياة الكاتب نفسه حالة كون النص مرتبطا بحياته ، أي اقامة العلاقة بين حياة المبدع وابداعه ، فالأدب ، عند لانسون، تعبير عن المجتمع من خلال الكاتب .(1)

ب - اقامة المعنى الأدبي للنص ، بشرحه وتحليله تحليلا أدبيا وتحديد معناه العام ، وابراز ما تضمنه من قيم عقلية وعاطفية وفنية بوساطة توظيف المؤلف اللغة توظيفا يختلف عن الاستعمال السائد لها في عصره وتحليل ذلك.ولبلوغ ذلك يجب على الباحث أن يوظف ذوقه وأحاسيسه توظيفا عمليا ودقيقا حتى ينفذ الى أعماق النص ويستخلص ما يرقد تحت المعنى العام من أفكار وصور وآراء أخلاقية واجتماعية وفلسفية ودينية . أي يكشف المعنى العميق والخفي الذي قد يعارض أحيانا المعنى الظاهري للنص .ولا يستطيع كشف هذه الزوايا الخفايا الا الباحث المتسلح بذوق مشبع بالأفكار وبثقافة الأدب المدروس .(2)

اهتم " لا نسون " بشرح النصوص اهتماما بالغا ، مذكان أستاذا في التعليم الثانوي واصل ذلك الاهتمام في الجامعة ، عندما جعل شرح النصوص بغنياتها ، خطوة عملية أساسية في دراسة الأدب والتأريخ له . ولا يقتصر عنده شرح النصوص على معرفة الأسرار النحوية والصرفية والبلاغية ومعاني المفردات للنص ، وانما يتجاوز ذلك الى معرفة المعنى الجمالي للنص ، وتذوق صوره ، بغية استخلاص تربية مدنية من النص المدروس، أي بغية استخلاص القوانين والأعراف والمبادىء الاجتماعية والاخلاقية والوطنية .(3)

وظف لانسون " شرح النصوص " في دراسة الأدب وتدريسه ، وبخاصة في التعليم الثانوي ، ليتحول من غاية أدبية الى وسيلة تعليمية وعملية تكمل وسائل أخرى في البحث عن الحقيقة .

---

1) - لا نسون : المرجع السابق ص 410

2) - لانسون : المرجع السابق ص 410

3)- *Compagnon(A): Opcit. P. 83* .

4 ـ الاصول والمصادر : لا يظهر الاثر الادبي من عدم ، فهو ثمرة استجابة مزاج معين لملابسات معينة . فلكل مبدع استعدادات شخصية ابداعية ، ينميها محيط زماني وجغرافي ، وتغذيها بيئة اجتماعية وثقافية ليتمكن بذلك من التجاوب مع الحياة تجاوبا يختلف عن تجاوب الانسان العادي ، فهو يشعر بما لا نشعر به ، ويرى ما لا نراه ، أو يراه بطريقة مختلفة .

ولكشف هذه الجوانب ، لابد من دراسة حياة الموءلف دراسة دقيقة ، بدءا بالمحيط الاسري الذى نشأ فيه ، واستفاد منه عاطفيا وعقليا وماديا ، الى المراحل التعليمية المختلفة ومدى استفادته منها ، وانتهاء بالبيئة الثقافية التي ترعرع فيها ونهل منها . وبمعنى آخر لابد من دراسة حياة الموءلف دراسة تاريخية مفصلة ضمن اطارها العلمي والثقافي منذ الولادة حتى الوفاة ، وربط كل ذلك بابداعه .

ومن الواضح أن لانسون يوءكد على ارتباط الابداع بحياة المبدع ، لايمانه أن الادب تعبير عن المجتمع . وضمن الاهتمام بحياة المبدع يوءكد " لانسون " على دراسة المصادر والاصول التي استقى منها الموءلف موضوعاته ، أوصوره الادبية ، فكثيرا ما يستقي الادباء موضوعاتهم من التراث الادبي ، يحاكون أعمالا سابقة ، ويستوحون، وربما يسرقون في بعض الأحيان .

ولقد انتبهت مختلف الآداب العالمية لهذه الظاهرة ، فتحدث عنها الرومان والعرب والفرنسيون ، الا أن اهتمام نقاد هذه الامم بهذه الظاهرة لم يتعد الاهتمام الاخلاقي ، والاستحسان والاستهجان .(1)

أما لانسون ، فقد اهتم كثيرا بدراسة مصادر المبدع وأصوله الادبية ،بمختلف انواعها المكتوبة منها والشفوية ، الفصيحة والشعبية ، الوطنية والاجنبية ، فاتحا

---

1) ـ لانسون : المرجع السابق ص 441

بذلك مجالا للدراسة عريضا ، تمثل في دراسة المصادر والأصول دراسة تاريخية ، لمعرفة من أين استقى المبدع موضوعاته ، أو أفكاره أوصوره ، وماذا أضاف أو ماذا أنقص ولماذا فعل ذلك ؟ ومن هنا كان الربط بين المنهج التاريخي في دراسة الأدب والأدب المقارن ، واتصاف المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن بالتاريخية . فالعديد من أعلامها البارزين دارت دراساتهم وأبحاثهم حول " المصادر والأصول " وجلهم من تلاميذه أو أنصاره.

5- التأثير والنجاح : لا يتم تأليف الأثر الأدبي الا بذيوعه بين الناس مسموعا أو مقروءا . فيستقبح لعدم تلاوءمه مع ذوق وفكر المتلقين لا سفافه ،أو رقيه ، ويكون مصيره النسيان الدائم أو المؤقت ، وقد يستحسن لمناسبته ذوق الجمهور الموجه له وفكره ، فينجح ويشتهر ويحدث تأثيرا في الجمهور . ولا يعنى النجاح بالضرورة التأثير . فقد ينجح أثر ما وتتكرر طبعاته ، ولكنه لا يحدث أي أثر في الجمهور ، أو في الحياة الثقافية ، مثل تلك الأعمال الأدبية التي تتسم عادة بطابع تجاري .

وقد لا ينجح الأثر تجاريا ، فلا تتكرر طبعاته ، ولا يكون اقبال القراء عليه كبيرا ، ولكنه قد يوءثر في الحياة الثقافية للبلد ، كأن يقلده أدباء ويصبح منطلق مدرسة أومذهب أو تيار . وقد يقتنع بماورد فيه من أفكار ، شخصيات سياسية ، فيكون سببا في تطورات فكرية أو اجتماعية عميقة . اذن ، نجاح الأثر الأدبي شيء ، وتأثيره في أدبه القومي أومجتمعه أو في العالم شيء أخر : ((وتحديد التأثير الأدبي ليس الادراسة عكسية للمصادر)) . (1)

لأن المصادر تأثير للغير في الأديب . أما التأثير فهو تحول هذا الأديب الى مصدر لغيره . وهكذا تكتمل روءية المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن ، والمتمثلة في دراسة التأثير والتأثر عند الأدباء ، من خلال دراستها للمصادر والأصول .

---

1) - لا نسون : المرجع السابق ص 411

أما دراسة نجاح أثر ما ، وتأثيره في المجتمع ، فعملية مهمة وشاقة ، اذ يتحتم على الدارس أن يبحث عن عدد طبعات الأثر ، وتوزيع النسخ بين تجار الكتب لمعرفة نسب البيع ، والمؤسسات التعليمية والثقافية كالمكتبات لمعرفة عدد القراء وانتماءاتهم المختلفة ، ثم المناطق والفترات التي عرف الأثر انتشارا . ثم البحث في تعليقات الصحف ووسائل الاعلام ، والخطابات الخاصة والمذكرات [1] والقيام باجراء استبيانات في أوساط اجتماعية مختلفة لمعرفة مدى اهتمام الناس بالأثر .

والملاحظ أن دراسة نجاح أثر ما وتأثيره في المجتمع عملية شاقة وشيقة في الوقت نفسه لأنها الوسيلة التي تبين لنا مدى تحقيق الأدب لوظيفته الاجتماعية . ونتبين مما سبق ذكره أن دراسة نجاح وتأثير أثر أدبي في المجتمع كان بداية لنشأة علم الاجتماع الأدبي.

وهكذا نلاحظ أن خطوات " لانسون " العملية التسعة ، والتي جمعناها في خمس خطوات أساسية ، تتتبع النص من مجرد انفعال أو احساس أحس به الأديب وجسده في نص ، علينا أن نتأكد من كماله ونعرف المراحل التي مر بها حتى صار نصا أدبيا متداولا ، الى نص أدبي نتعامل معه فنشرح ونفسر ما غمض منه ، لنتذوقه ونستفيد من معانيه ومضمونه ، ثم نكشف عن أصوله وانتشاره لمعرفة مدى أصالته بالنسبة للماضي والحاضر . ولتنفيذ هذه الخطوات العملية تنفيذا دقيقا يؤتي ثماره المتوخاة ، على الباحث التسلح بالعلوم المساعدة: ((وبخاصة تاريخ اللغة والنحو وتاريخ الفلسفة وتاريخ العلوم وتاريخ الأخلاق .)) (2) لمساعدته في الكشف عن العديد من الخبايا والزوايا . وبذلك قد نصل الى معرفة دقيقة بالنص ، ثم نطبق هذه العملية على نصوص أخرى للمؤلف ، ثم لبقية مؤلفي العصر الواحد، فمؤلفي الأدب القومي ، حتى تصبح معرفتنا بأديب أو أدب قومي معين خالية من النقص ما أمكن ثم نجمع الكتب المدروسة : ((تبعا لما بينها من وشائج في الموضوع وفي الصياغة . وبفضل

---

(1) ـ لانسون :المرجع السابق ص 411 ـ 412

(2) ـ لانسون : المرجع السابق ص 409

تسلسل الصيـاغات نضع تاريخ التيـارات العقلية و الأخلاقية . و بالمشاركة في بعض الألوان و بعض المناحي الفنية المشتركة بين الكتب التي من نـوع أدبي واحد ومن نفوس مختلفـة نضع عصـور الذوق .))[1]

قد يكون تاريخ الأدب عند لانسون ، تاريخا للفنون أو الأجناس الأدبية اعتمادا على الصياغة أو تاريخا للتيارات الأدبية أو المدارس أو المذاهب اعتمادا على الأفكار و الاحساسـات (المضمـون) منطلقـا للتصنيف . و قد يكون تاريخا لعصور الذوق - و ليس العصور الزمانيـة أو العصور المرتبطة بشخص أو مكان - باعتماد المشترك بين الكتب من ألوان و فنيات منطلقـا للتصنيف . و واضح أن الفصل بين هذه الأصناف لتاريخ الأدب صعب، لصعوبة الفصل بين الأفكار و الاحساسات من ناحية و الألوان و المناحي الفنية من ناحية أخرى . و مع ذلك ، فقد كانت هذه الأصناف منطلقا لدراسات عديـــدة في الأدب الفرنسي، وفي العديد من آداب العالـم أنتجت كتبا قيمة في التأريخ للأجناس الأدبية و للتيارات الأدبية ، و العصور الأدبيـة مـن منطلـــق ذوقـــي .

1) - لانسـون : المـرجـع السـابـق ، ص 412 .

جـ ـ الصعوبات و الأخطاء :

تقوم اللانسونية على الجمع ما بين الذوق أو التأثر من جهة و المعرفة أو العلم من جهة أخرى ، و انطلاق الباحث من أسس علمية عليه أن يتقيد بها ، ثم اتباعه خطوات عملية دقيقة لكشف خبايا النص . و ينتج عن كل ذلك صعوبات و أخطاء نابعة من طبيعة المنهج تنند يقع فيها العديد من الدارسين ، أهمها :

1 ـ الصعوبات : يبحث الدارس في الأثر الأدبي عن خصائصه الحسية و الفنية منطلقا في البدء من ذوقه ، معرضا نفسه بذلك للصعوبة الأولى ، اذ من الصعب على المرء التحكم في أحاسيسه تحكما تاما ، فان تغلبت عليه جانب الصواب ، و ان تغلب عليها هضم الأثر الأدبي حقه . و هكذا تتجلى الصعوبة الأولى في تأرجح الدارس بين موضوعية أحاسيسه و ذاتيتها .

يهتم المؤرخون بالأحداث أو الوقائع العامة التي تكون ظواهر تاريخية . و لذا فهم يحذفون الوقائع و الأحداث الخاصة مثل خوف جندي في معركة ، ولا يحفلون به الا اذا عم و تسبب في تغير الأحداث . أما مؤرخ الأدب ، فهذا ما يهمه بالذات ، لأن خوف الجندي اذا كان مبدعا ، سيكون سببا في ابداع أدبي أو عدة ابداعات . أما خوف الجنود كلهم ، فلا يهم مؤرخ الأدب في شيء ان لم يؤد الى أي ابداع . و معلوم أن الكشف عن الوقائع و الأحداث العامة أسهل بكثير من الكشف عن الأحداث و الوقائع الخاصة ، لعمومية الأولى و تفرد الثانية . و بذلك يكون عمل مؤرخ الأدب حسب لانسون أدق و أمعن في التاريخ من عمل المؤرخ الذي يكتفي بالأحداث العامة (1) . و هذه هي الصعوبة الثانية سواء أوافقنا لانسون أم لم نوافقه في تفضيل مؤرخي الأدب على المؤرخين ، النابع من صراع علمي بين المؤرخين الذين أقنعوا الناس بعلمية التاريخ ، و أساتذة الأدب الذين كانوا يحذون حذو المؤرخين .

الصعوبة الثالثة ، تتمثل في البحث عن أصالة المبدع و مظهرها المتفرد المستقل بين التراكم الأدبي : ((فأكثر الكتاب أصالة هو الى حد بعيد راسب من الأجيال السابقة و بؤرة

---

1) ـ لانسون : المرجع نفسه ، ص 399 ـ 400 .

للتيارات المعاصرة ، وثلاثة أرباعه مكون من غيرذاته :)) (1) وتكمن الصعوبة في السعي للفصل ثم الربط بين العناصر المكتسبة والفطرية في تكوين أصالة المبدع ، اذ نكاد ننزلق في جدل بيزنطي حول علاقة المبدع ببيئته ومجتمعه وأيهما يوءثر في الاخر . وبصرف النظر عن هذه الاشكالية،فان فرز الفردي الخالص من الجماعي أمر صعب جدا ، ويحتاج الى اطلاع واسع ومعرفة عميقة بالتضاريس الفكرية أو العاطفية أو السياسية .

أما الصعوبة الرابعة ، فتتمثل في صعوبة الفصل بين تأثير الاثر الادبي فينا وتأثرنا به ، لانّ خاصية الاثر الأدبي اثارة استجابات في ذوق القارىء واحساسه وخياله ، وكلما كانت تلك الاستجابات أعمق ، كنا أقل استعدادا لفصل أنفسنا عن ذلك الاثر ، فننساق وراء تخيلاتنا بدلا من الملاحظة ، ونعتقد أننا نعلم عندما نحس، (2) فنجانب المنحى العلمي السليم .

وزيادة عن هذه الصعوبات الاربع ، ثمة صعوبات أخرى أهمها تلك الصعوبة المرتبطة بطبيعة مادة تاريخ الأدب والمتمثلة في الموءلفات الأدبية التي تشبه الاثار التاريخية من حيث انها مادة تاريخية ، الا أنها تختلف عنها اختلافا جذريا . فالأولى ميتة بامكان الموءرخ التعامل معها بموضوعية . أما الثانية فمادة تاريخية هي الأخرى ، ولكنها حية توءثر فينا ، كما كانت توءثر في أول جمهور عرفها . (3) وتكمن الصعوبة هنا في تعامل الدارس مع مادة حية ، قد يتعاطف معها فيستحسنها لتوافق ما ، بينها وبين ذوقه ، وقد ينفر منها ويستقبحها ، خصوصا وأن أول خطوة في الدرس الأدبي هي تعريض النص لذوقنا الشخصي .

---

1) - لانسون : المرجع السابق ص 400

2) - لانسون : المرجع السابق ص 401 - 402

3) - لانسون : المرجع السابق ص 397 - 398

وعموما هذه جملة من الصعوبات نابعة من طبيعة المنهج ، على الباحث التغلب عليها بالتزامه أسس المنهج النظرية وخطواته العملية التزاما دقيقا وذكيا .

٦ـ الأخطاء : سبق القول أن منهج " لا نسون " يقوم على : ((التأثر الشخصي والمعرفة الموضوعية التي تحد من ذلك التأثر وتراجعه وتفسره لصالحها .))(1)

وسبق تبيان الصعوبات الناجمة عن التأثر الشخصي ، أما الأخطاء التي قد يتعرض لها الباحث أثناء اعداده لتلك المعرفة الموضوعية :

ا ـ أول خطر قد نتعرض له خلال تطبيقنا لخطوات المنهج العملية هو الزيف أو النقص أو الكذب الذي يغلف معرفتنا بالنصوص أو الوقائع المرغوب دراستها ، نتيجة لجهلنا ببعض أعمال سابقينا والنتائج المحرز عليها ، أو لكسلنا ، حيث نسجل بسهولة ما انتهى اليه سابقونا نتائج نهائية ، وبخاصة اذا كانت تلك النتائج لا تتعارض ومعتقداتنا الشخصية. وعلم المراجع هو العلاج ، بما يوفره من معلومات متنوعة تساعدنا على الاقتراب من الحقيقة ما أمكن . ولكن هذا العلم جاف لا طعم له ، يبذل فيه الباحث وقتا طويلا ، متنقلا في المكتبات لمراجعة الفهارس والموسوعات والمصادر والمراجع ، مسمرا فوق كرسي الطلب ، يجمع الجذاذات وكأنه فأر مكتبة ـ على حد تعبير خصوم لانسون ـ وقد يحتاج الى [illegible] معتبرة . الا أن هذا العيب قد يتقلص عندما يدرك الباحث أن علم المراجع وسيلة ، وليس غاية للكشف عن الحقيقة العلمية ، فيتحول البحث في المراجع الى عمل علمي دقيق له حسناته الى جانب سيئاته .

ب ـ يكمن الخطر الثاني في اقامة علاقات غير صحيحة ، اما لجهلنا وقلة معلوماتنا ، أو لتسرعنا في استخلاص النتائج ، أو لثقتنا بالتفكير المنطقي ثقة عمياء ، علما بأن التفكير المنطقي في العلوم التاريخية خداع لا يعطي نتائج موءكدة الا في العمليات

---

1) ـ لانسون : المرجع السابق ص 414 .

البسيطة المباشرة ذات النتيجة الواحدة . أما التفكير المنطقي المركب ، فكثيرا ما يوءدي في العلوم التاريخية الى نتائج مزيفة لأنّ مادة الأدب العواطف والأحاسيس ، وعـــادة ماتكون أعقد من التفكير المنطقي . وتفاديا لماسبق ذكره علينا . ((أن نخضع لنظام عقلي وأن نأخذ أنفسنا بالعمل البطيء الذى تنضج معه الفكرة .)) [1] أى لا نثق في استنتاجاتنا الا بعد مراجعات ومقارنات مع غيرها من نتائج الآخرين .

ج - ويتمثل الخطر الثالث فى اسرافنا في تقدير ملاحظاتنا والانسياق الأعمى وراءها ونسيان الامكانات الأخرى ، ثم السرعة في تقدير نتائج ملاحظاتنا . فعندما نلاحظ تشابها بين كاتبين بينهما رباط ما ، نسرع الى الجزم بتأثر أحدهما بالآخر ، ونهمل احتمال تأثر الاثنيـــن بمصدر واحد بقي مجهولا لدينا ، لقلة تنقيبنا عنه .

يكمن خطر الاسراف في تقدير ملاحظاتنا في تركيز نشاطنا العقلي كله حول الواقعـــة التي ندرسها ، واهمالنا لبقية الوقائع ذات العلاقة بموضوع درسنا . فاللانسونية مثلا ، استمدت أصولها من فقه اللغة الألماني ، الا أنّ هذه المعلومة لاينبغي أن نضخمها حتى تحجب عنا الأصول الأخرى .

د - الخطر الرابع ، وذلك عندما نطلب من منهج خاص اعطاءنا نتيجة لا يعطيها الا غيره ، مثل محاولتنا تحديد قيمة عقلية أو أخلاقية لأثرما ، من خلال حياة المؤلف ، انطلاقا من أن الابداع انعكاس لحياة المبدع . ولكن سرعة الاستنباط المنطقي تقودنا في هذا الرأى النقدي الى نتائج خاطئة فقد يكون الأثر الأدبي انعكاسا لحياة المبدع ، وقد يكون رسما للوضـــع الاجتماعي الذي وجه له أو تبشيرا بما سيكون .

هـ - الخطر الخامس يكمن في المبالغة في قيمة النتائج المحرز عليها ، لاننا لا نحـــب

---

1) - لانسون : المرجع السابق ص 415

أن يذهب جهدنا سدى ، فنبالغ في قيمة ما توصلنا اليه . فيصبح الممكن احتمالا ، والاحتمال ترجيحا ، والترجيح واقعا واضحا ، والفرض حقيقة ثابتة ، ويختلط الا ستقراء والاستنباط بالوقائع التي صدر عنها . واذا بهما في قوة الملاحظات المباشرة ، وبذلك نبتعد عن الموضوعية درجة أودرجات . على الباحث أن يتحلى بالحذر والقسوة على النفس تلافيا لذلك . بعد استعراض أسس اللانسونية وخطواتها وصعوباتها وأخطارها ، ومايتحتم على الباحث القيام به لمجابهة كل ذلك نتساءل : أي منهج هذا ومن يقدر على تطبيقه ؟ لقد انتبه " لانسون " الى أن منهجه يبعث الرهبة في النفوس ، ويصعب على فرد واحد تطبيقه بحذافيره في التأريخ لأدب قومي معين :

((والذي لاريب فيه هو أنه لا يمكن أن تكفي حياة واحدة للمعرفة الكاملة .

ولكن ما يعجز عنه عمر تستطيع أعمار أن تعمله . ان تاريخ الأدب الفرنسي مشروع جماعي . فليحمل كل حجره وقد أحسن تسويته ، وهذا لن يمنع أي انسان من أن يقرأ ما يريد لمتعته الخاصة .))(1)

يكمن الحل اذن في تقسيم العمل بين الباحثين اما تقسيما وظيفيا كأن يتخصص البعض في تهيئة المادة الأولية - التحقيق - والبعض الاخر في اعداد تراجم الأدباء ، وغيرهم في شرح النصوص ، ليتمكن آخرون من التأليف في المسائل الكلية اعتمادا على الأعمال الجزئية واما تقسيما كميا كأن يخصص كل باحث أبحاثه لأديب واحد أوجنس أدبي أو عصر ، ليأتي غيره فيستخلص النتائج من الأبحاث المختلفة . وهكذا تنمو المعرفة الأدبية شيئا فشيئا ، حتى يصبح التأريخ لأدب قومي تأريخا عمليا عملية ممكنة :

---

1) - لانسون : المرجع السابق ص 420 .

5 ـ نحو تعريف للانسونيــة :

من خلال استعراضنا للمنهج التاريخي ، كما حدده لانسون ، نستطيع القول : ان اللانسونية خطة عملية لدراسة الأدب والتأريخ له ، حسب المنهج التاريخي ، تجمـــع بين الذوق والمعرفة في التعامل مع الأثر الأدبي ، قصد الاستمتاع به ، وفهمه فهما عميقا ، بغية الحكم عليه ووضعه موضعه الخليق به ضمن نتاج مبدعه أولا ، ثم ضمن نتاج عصره ثانيا . وأخيرا لترتيبه ضمن جنس أدبي من حيث صياغته ، وضمن تيار فكري من حيث أفكاره ، وضمن عصر معين من حيث ذوقه .

ان اللانسونية منهج علمي لتقيدها بالروح العلمية في خطوات البحث النابعـــة من طبيعة المادة الأدبية نفسها ، تسعى الى الاستمتاع بالنص الأدبي ومعرفتـــه معرفة موضوعية ما أمكن ، مستعينة في ذلك بالعلوم المساعدة لكشف خبايا النص . والقصد من كل ذلك ، الكشف عن خبايا النفس البشرية ـ ممثلة في الآثار الأدبيــة ـ بكسر القيــود والحواجز الفردية والقوميــة ، سعيا نحو ذوق وفكر انسانييــن.

الفصل الثالث :

تجليات اللانسونية و انتشارها

رأينا في الفصل السابق كيف جعلت اللانسونية تاريخ الأدب موءسسة علمية،[1] لها منهجها في البحث ، وميدانها ، ومختصوها ، فتميز تاريخ الأدب عن النقد بميدانه الذي يشمل : ((نقد السيرة ، دراسة الوسط ، التأثيرات ، الحركات ، المدارس ، كل ما يتطور عبر الزمن ، كل ما يربط الأثر الأدبي بالماضي ، بالحاضر وبالمستقبل ، كل ما يضع الأدب موضعا معينا في الحضارة العامة .))[2] فصار بذلك تاريخ الأدب جزءا من تاريخ الحضارة ، لأنه مظهر من مظاهر الحياة القومية ، نجد في سجله الفني الطويل كل تيارات الأفكار والمشاعر التي غذت الأحداث السياسية والاجتماعية . كما نجد الحياة النفسية الدفينة ، بآلامها وأحلامها ، التي لم تتحقق في الحياة العملية وتحققت أفكارا وعواطف وأحاسيس ، في آثار أدبية تنمو وتتطور بتطور الانسان عبر الزمان و المكان.
وعلى هذا الأساس يتتالى صدور كتب تاريخ الأدب بروءية " لانسونية " في فرنسا ، وفي غيرها من البلدان ، مبرزة عصورا وفنونا وتيارات وأذواقا ، مثل كتابات أحمد ضيف ، وطه حسين ، ومحمد مندور وشوقي ضيف وعلي جواد الطاهر وناصر الدين الأسد وجودت الركابي ، وغيرهم في التأريخ للأدب العربي عصورا وفنونا وتيارات وأذواقا .

لقد استعانت اللانسونية بالروح العلمية لضمان أكبر قدر من الموضوعية في تطبيقها للمنهج التاريخي. كما استعانت بجملة من العلوم المساعدة والفنيات حتى تنفذ الى أعماق النص الأدبي ، مطورة بذلك فنيات عديدة للبحث الأدبي مثل التنقيب عن النصوص أو تحقيقها ، وشرح النصوص . كما وسعت حقولا معرفية تشترك معها في جوانب مثل الأدب المقارن وعلم اجتماع الأدب . وفي الصفحات التالية سنحاول توضيح

---

1)-Ehrad(Jean): *Histoire des idées litteraires(In Problèmes et methodes de l'histoire littéraire) société d'histoire litteraire de france. P68*

2)-Rudler(Gustave) :*Techniques de la critique et de l'histoire litteraire. Ressoueces.. Paris- Geneve 1979 . P. 14 .*

دور اللانسونية في تطور تلك الفنيات ، وتوسع الحقول المشار اليها ،أي سنبحث عن تجليات اللانسونية من خلال الفنيات والحقول المذكورة ..

1ـ اللانسونية والتحقيق " *Erudition* "

رأينا أثناء استعراضنا لخطوات المنهج التاريخي العملية ، مدى اهتمام لانسون بتحقيق النصوص ، فهو يرفض دراسة نص غير محقق لأن أول شرط للدراسة العلمية الانطلاق من نص ثابت النسب ، كامل ، مفهوم ، كي تكون أحكامنا في محلها لا يشوهها نقص أو تحوير . وللوصول الى نص تتوفر فيه الشروط المذكورة ، لا بدمن القيام بأبحاث وتنقيب حول النص وصاحبه والسبل التي سلكها حتى وصل الينا ، مستعينين في ذلك بعلم المخطوطات والدراسات البيليوغرافية ، ودراسة سير وتراجم الموءلفين .

لقد وضح لانسون أهمية التنقيب والتحقيق في مقدمة خطوات المنهج العملية ، ثم في المراحل الثلاث الأولى ، عندما أبرز أهمية الانطلاق في البحث من نص ثابت كامل، الا أنه لم يفسر آليات التنقيب (التحقيق) أو يشرحها شرحا كافيا ، رغم أن الكثير من الاشارات التاريخية لاسلوب عمله مع تلاميذه تتحدث عن احتفائه بالتنقيب عن النصوص وتسخير تلاميذه للقيام بذلك ، لدرجة أن أعداءه عابوا عليه تحويل درس تاريخ الأدب الى بحث ببليوغرافي عقيم ، أساسه مقابلة النسخ المختلفة وجمع البطاقات وترتيبها ، الأمر الذي لا يفيد الطالب شيئا في تكوين ملكته الادبية . ومهما كانت قيمة هذاالرأي ، فانه يدل على تدريب " لانسون " لطلابه على التنقيب عن النصوص وتحقيقها قبل دراستهما لقد أصدر تلميذه غوستاف ردلير اعتمادا على دروسه ونصائحه كتابه الشهير " تقنيات النقد وتاريخ الأدب " (1923) خصص الفصل الرابع منه لما أسماه :" النقد التصحيحي *Critique de restitution* واستهله قائلا : ((لا ينبغي أن نعمل الا على نص صاف)) .(1)

---

1)- *Rudler(G): Idem. P. 59.*

وللحصول على نص صاف ، لابد من بحث وتنقيب وترميم ، حتى تحذف الزيادة أو يستكمل النقص ، وتتضح نسبته ومستغلقاته . شرح " رودلير " في هذا الفصل كل تقنيات التصحيح ، على حد تعبيره ، أو التنقيب ، على تعبير أستاذه ، أو التحقيق كما هو متعارف عليه الآن ، بالنسبة للنصوص المخطوطة والمطبوعة على حد سواء.بدأ " رودلير " الفصل بالاشارة الى أن العديد من النصوص المطبوعة خاطئة نظرا لتراكم الأخطاء المطبعية من طبعة الى أخرى لأسباب عديدة ، أو لنشر مخطوط لا يمثل النص كاملا ، ومن ثم فالتحقيق يشمل المخطوط والمطبوع أيضا .[1] ولتحقيق نص لابد من جمع نسخه العديدة (مخطوطات ، أو طبعات مختلفة) ، وترتيبها انطلاقا من النسخة الأم الى أبعد نسخه ،[2] حسب شروط ترتيب النسخ المعروفة الآن ، ثم تدرس من حيث الورق والخط والحبر والمعلومات التاريخية الواردة فيها ، وما سجل في حواشيها من ملاحظات القراء وانطباعاتهم ، لتكون كل تلك الأمور مفاتيح تهدي المحقق الى استخراج النص الأسلم[3] ، عن طريق قراءة النص جملة جملة انطلاقا من النسخة الأم وانتهاء بآخر النسخ ، ثم الرجوع الى القواميس اللغوية التاريخية والموسوعات والكتب المحققة حول الموضوع أو المجال نفسه ، لتبين ما قد يصدر عن صاحب النص وما لا يصدر عنه ، لترجيح النص النهائي ، مع الاشارة الى الفروق الجوهرية بين النسخ .[4] وبذلك يصل المحقق الى النص الصافي أو الأقرب

---

1)- *Rudler(G): Idem. P.P. 59-60.*

2)- *Rudler(G): Idem. P.P. 61-64.*

3)- *Rudler(Gà): Idem. P.P. 65-68.*

4)- *Rudler(G): Idem. P.P. 68-96.*

من الصفـــــاء .

لقد شرح " رو دلير " فنيات التحقيق خطوة خطوة ، مقدما أمثلة توضيحيـــــة على كل خطوة ، مقننا بذلك توجيهات أستاذه ، لتساهم بذلك اللانسونية في تطويـــر " منهج التحقيق " الذي أحي روائع أدبية كاد النسيان أن يطويها في مختلف الآداب ثم أضاف المستشرق الفرنسي " رجيس بلاشير *Blachere Regis* (1900-1973) - الذي كان من اللانسونيين [1] - لبنة أخرى في بناء صرح " فن التحقيـــــــــــق" اللانسوني عندما ألف كتابه " قواعد تحقيق النصوص العربية وترجمتها [2] بالاشتراك مع المستشرق صوفاجي *Sauvaget* فصـــار ذلك الكتاب عمدة الطلاب العرب الذيـــن درسوا بفرنسا ، بعدما كان دروســـا متداولة يستقيها خلف عن سلف . فليس من قبيـــل الصدفة اذن أن يعرف " منهج التحقيق " ازدهاراً كبيرا في الوطن العربي ، ابتداء من عشرينيات هذا القرن ، ليبلغ ذروة عطائه في منتصف القرن ، فحققت نصوص أدبيـة عديدة ساهمت في نشأة وتطور تاريخ الأدب العربي . وبذلك يمكننا القول ان الكثيـــــر من المحققين العرب لانسونيون من حيث لايدرون ، فهم يطبقون خطوات لانسونية،وينجزون مرحلة من مراحل العمل اللانسوني .

2- اللانسونية وشرح النصوص :

ترجع صلة "لانسون " بشرح النصوص الى فترة عمله أستاذا في التعليـــــم الثانوي ، حيث حلل وشرح العديد من نصوص الأدب الفرنسي لتلاميذه ضمن مقرر " شرح النصوص " . وفي سنة 1902 م كان لآرائه وأفكاره حول اصلاح التعليم الثانوي القسط

---

1)- د. الكيلاني (ابراهيم) : مقدمته لترجمة كتاب تاريخ الأدب العربي لبلاشير. الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 . ص 06.

2)- *Blachere et Sauvaget: Regles pour edition et traduction de textes Arabes.*

الوافر فيما يتعلق بمقرر " شرح النصوص " حيث صار كتابه " تاريخ الأدب الفرنسي" كتاب الأستاذ ، يزوده بكل المعلومات التاريخية التي يحتاجها لشرح نصوصه .(1) ولما نشر مقاله حول " المنهج التاريخي " (1910) خصص ضمن الخطوات العملية الخطوة السادسة للمعنى الحرفي للنص ، والخطوة السابعة للمعنى الأدبي . ويقصد بالمعنى الحرفي - كما سلفت الاشارة - شرح المفردات والصيغ والتراكيب ، وتحليل البناء اللغوي للنص حسب المعنى الذي ذهب اليه مبدعه ، وليس حسب المعنى الدلالي لتلك المفردات والصيغ التراكيب الآن واذا أراد الباحث أن يصل الى المعنى اللغوى الذي قصد اليه المؤلف ، كان عليه أن يرجع الى القاموس اللغوي التاريخي ، وكتب فقه اللغة ، والكتب التي تناولت فترة ابداع النص ، للكشف عن دلالات النص في عصره . أما المعنى الأدبي فهو تحليل النص تحليلا أدبيا ، اعتمادا على الذوق أولا بغية الكشف عن قيمه الفنية والعقلية والعاطفية التي نراها باحساساتنا وذوقنا ، ثم باحساسات المؤلف وذوقه ثانيا ، من خلال الرجوع الى سيرته والظروف التاريخية المحيطة به .(2) ويفصل الحديث في مقالته " كلمات حول شرح النصوص " (3) (1923) حول هذا الموضوع ، فيتتبع نشأته مذ كان وسيلة للوعظ والارشاد في التعليم الديني ، ثم وسيلة للبحث البلاغي والنحوي ، فمعلومات عامة حول الأديب أدبه . وحين نضجت اللانسونية صار " شرح النصوص " تحليلا للنص بالكشف عن مكوناته

---

1)-Compagnon(A): Opcit. P. P. 82-83

2)- لانسون : المرجع السابق ، ص 410 .

3)-Lanson(G): Quelqued mots sur l'explication des textes: (in Methodes de l'histoire litteraire et hommeset livres). PP. 38-57(Annexe).

(المفردات ، التراكيب ، الجمل) وتذوق مضمونه (المعنى الأدبي : الأفكار والأحاسيس والصور ، وغير ذلك) ، بغية الاستمتاع بالنص والاستفادة من معانيه وأفكاره . ثم يفصل الحديث عن المعنى الحرفي للنص وأهمية معرفة مكوناته في الفهم ، وبالتالي في التذوق الذى لايمكن أن يحدث قبل الفهم ، ليصل بذلك الى تنمية أذواق الطلاب الأدبية ، وتزويدهم بأفكار ومبادىء تجعلهم مواطنين صالحين .وبديهى أن يحظى شرح النصوص بهذا الاهتمام عند لانسون الأستاذ والمربي ؟ فبدون ذلك لا تتم العملية التربوية في مجال الأدب ، اذ بعد العلم بالنص ورؤيته لا بد من قراءته ، وكل قراءة لاتتم ذهنيا الا باستيعاب القارىء لمضمون النص والاستمتاع به ، وللوصول الى ذلك عليه أن يغوص في أعماقه يقوده الى ذلك الأستاذ بتحليل المعنى الأدبي والمعنى اللغوي، أى بشرح النص . ومهما تغير مصطلح هذه العملية بين المدارس النقدية ، فان جوهرها يبقى وصول القارىء الى مضمون النص وتذوق بنائه اللغوي والأدبي ، والا ستبقى القراءة مجرد عملية ميكانيكية صوتية يقوم بها القارىء دون أي هدف .

لقد اعتبر لانسون " شرح النصوص " خطوة عملية أساسية في منهجه ، يستعين بها مؤرخ الأدب للكشف عن جوانب الظاهرة الأدبية حتى يسهل عليه ، بعد ذلك ، الحكم الأدبي ولا يتم التأريخ لأدب معين الا بعد شرح نصوصه وفهمها ، فصار بذلك شرح النصوص مجالا من مجالات اللانسونية ، يكتفي به بعض الدارسين ، فيشرحون نصوصا ويكشفون جوانبها ليأتي بعد ذلك مؤرخ الأدب فيستعين بنتائج تلك الأعمال ليكمل صرح بنائه التاريخي .

والخلاصة أن "اللانسونية " أخرجت " شرح النصوص " من العموميات التي كانت تسبح فيها في القرن التاسع عشر ، وحولته الى منهج له وسائله ووظيفته .

3_ اللانسونية والأدب المقارن :

من عناصر اللانسونية الأساسية ، البحث عن مصادر وأصول الأثر الأدبي ،ثم تتبع تأثيراته في معاصريه واللاحقين . (1) فقد لاحظ لانسون أن المصادر والتأثيرات وجهان متعاكسان لشيء واحد هو الأثر الأدبي ، حيث يستقي المؤلف موضوعاته وأفكاره وصوره من مصادر ، فيتمثلها ثم يصوغها بطريقته الخاصة محورا فيها أو مضيفا اليها أو منقصا منها حسب ما تمليه عليه عبقريته ، وبيئته ، ويبثها في الناس ، ليتأثر بها غيره ، وبذلك تصبح مصادر للغير ، وتدور بذلك عجلة التطور الفكري وقد يعتقد قارئ " مقالة لانسون " أن المصادر والتأثيرات المشار اليها في المقالة لا تخرج عن نطاق الأدب القومي الواحد ، الا أن كتبه ومقالاته تقول غير ذلك .

ففي مقالة له " حول مفهوم التأثر " (1901) يرى أن :((التأثر الحقيقي هو أن نلاحظ في أدب ما ، في اتجاهه او شكله ، تحويرا مفاجئا لا يشرحه الموروث الأدبي ولا الأصالة الفردية ، لانّ الشرح الوحيد لذلك هو دخول شيء من روح أو ذوق أجنبيين .)) (2)

لا يقتصر التأثر أو التأثير اذن على الأدب القومي وحده ، بل يتعدى ذلك الى الآداب الأجنبية ، حيث نجد من حين لآخر موضوعات وأفكارا وصورا أدبية تظهر فجأة في أدب قومي معين لا أصل لها في تراث الأدب القومي ، ولا مبرر لظهورها في تلك البيئة ، ولا يكشف سرها الا البحث عن التأثيرات والتأثرات المتبادلة بين الآداب . وللتأثيرات الأجنبية دور مهم في اثراء الأدب القومي وتجديده وتغذيته بأفكار جديدة تكون المنطلق لتوليد أفكار أخرى ، وبذلك يكتسب الأدب القومي حيوية وقدرة على التجديد ، تساعده على الانعتاق من تكرار النموذج القومي الموروث ، الذي يتحول الى قيد عندما يصبح النموذج المقتدى . وهذا

1) _ لانسون : المرجع السابق ص 411

2)- *Lanson(G): Sur la notion d'influance. in Essais de methode, de critique et d'histoire litteraire. P. 96 .*

ما بينه لانسون في مقالة حول "وظائف التأثيرات الاجنبية " (1917) عندما أوضح أن التأثيرات الاجنبية في أدب قومي معين ليست عيبا أو مصيبة وطنية ، فالعقل الوطني هو الذي يلجأ اليها سعيا نحو المزيد من الحقيقة ومزيد من الجمال ، فيكون الرابح دوما عندما يكتسب فكرة جديدة . فالعقل الوطني هو الذى يكتسب الافكار الاجنبية ويستفيد منها ، وليست الأفكار هي التي تستفيد من العقل الوطني ، فهي ليست بحاجة اليه ، الا في القليل النادر من الحالات .

اذن فالتأثيرات الاجنبية تجديد للعقل وليست انفصاله ، كما أنها تحرر العبقرية الوطنية من تمسكها بآثار قومية صارت قوالب يتحتم على المبدعين النسج على منوالها ، فتأتي التأثيرات الاجنبية بنماذج جديدة ، لتحرر العبقرية الوطنية من الجمود .(1)

حظي التأثير والتأثر باهتمام كبير عند " لانسون " ، لادراكه المبكر (1901 م بأن ثلاثة أرباع الاثر موروث ، بين موروث قومي ، أوموروث أجنبي ، وأن أى أدب قومي لا يتجدد ، ولا يكسر قيود نماذجه الا بداعية ، الا بالتأثر بغيره من الآداب ،فيطعم الاحاسيس ، ويجدد الافكار ، فتدور بذلك عجلة التطور الأدبي .

كانت فكرة التطور الادبي ، عند لانسون ، منطلقا جديدا للأدب المقارن بفرنسا ،(2) أكسبته ميادين جديدة مثل : المصادر والتأثير ، والتأثر ، والنجاح ، والشهرة ، خلصته من المقارنات الاعتباطية المبنية على الصدفة أو مجرد التشابه بين أدباء لا تربطهم أية صلة ، لتجعل من الصلة التاريخية الثابتة منطلق الدراسة الادبية المقارنة ، قصد تبيان عبقرية أحد طرفي المقارنة ، عند الكشف عن الاضافة التي أضافها الى مصدر التأثير ، أو النقصان

1)- Lanson(G): Fonctions des influences étrangères. (in: Essais de methode). P.P.89-91.

2)-Baldensperger(Fernand): Litterature compurée: le mot et la chose. Revue de la littérature comparée. N°01. Paris1921. PP.24-25.

الذى ألحقه ، وأسباب كل ذلك . فخرج الأدب المقارن بذلك من الدراسات والنتائج الاعتباطية ، متحولا الى منهج علمي ، ينطلق من أسباب ثابتة ليصل الى نتائج معينة ، ومن ثم يكون تعليل النتائج ذا فائدة علمية .

من هنا ارتبطت مسيرة الأدب المقارن في فرنسا بالمنهج التاريخي : ((لئن استطاع الأدب المقارن أن يحقق تقدمات خطيرة في فرنسا على يد تيكست ومن نهجوا على غراره وأكملوا عمله ، فلأن مناهجه قد سارت على خطى مناهج التاريخ الأدبي القومي (...) وانكم لتعلمون أن الذى بدأ هذه الحركة التجديدية في تاريخ الأدب الفرنسي المعاصر، وزاد هذه الدراسة دقة ووثوقا ، سواء من الناحية الفيلولوجية أو من الناحية التاريخية، هو جوستاف لانسون ، الذى غدا تأثيره ابتداء من عام 1895 ، فوق كل تأثير . فكان يدعو، من قريب ومن بعيد ، بتدريسه في دار المعلمين والسوربون ، ، وبتوجيهاته العملية وارشاداته ، وكتبه ومقالاته ، الى دراسة مسائل التاريخ الأدبي بعد توسع في الاطلاع ومع دقة في النقد ، مما كان يفرض نفسه أكثر ، فكان لهذا الجو الفكرى الذىأوجدته نصائحه وأوجده الاقتداء به تأثير محقق في نمو الأدب المقارن ، واستطاع تلاميذه ، وقد سلحهم أستاذهم الذى ترعرع في مدرسة مختلفة عن هذه المدرسة كل الاختلاف بأدوات كان عليه أن يصنعها لنفسه واحدة واحدة ، استطاع هوءلاء التلاميذ أن يوغلوا في هذا الطريق ، وأن يصلوا الى أبعد مما وصل اليه أستاذهم .)) . (1) ساهم لانسون في تطوير المدرسة الفرنسية للأدب المقارن ، بمنهجه التاريخي ، الذى أصبح في مجمله منهج الأدب المقارن ، (2) وباشرافه على العديد من رسائل وأطروحات الأدب المقارن ، (3) وبتلاميذه الذين ساعدوا كثيرا على تطور الأدب المقارن وبلورته ، انطلاقا من اهتمامهم الكبير بدراسة

---

1) ـ تيجم (فان) : الأدب المقارن (المترجم مجهول) . دار الفكر العربي د.ت ص 42 ـ 43

2) ـ تيجم (فان) : المرجع نفسه ص 66

3) ـ تيجم (فان) : المرجع نفسه ص 45 .

المصادر و التأثيرات أمثال " رودلير " الذى خصص فصلا كاملا لدراسة التأثيرات في الأدب المقارن ، منطلقا من أن المصادر والتأثيرات وجهان متعاكسان للظاهرة الأدبية : ((تكون دراسات التأثير في صورتها الأولية ، دراسات معكوسة بالتقريب للمصادر))(1).

ومن ثم فالأدب المقارن عنده لا يتعدى نطاق التأثيرات : ((الأدب المقارن حالة خاصة لنقد التأثيرات . تأسست فنياته موءخرا بسبب تعقد مسائله التي تتطلب مناهج ثابتة ، مرتبطة بتطور تواريخ الآداب القومية . وبصفة عامة ، نرى الأدب المقارن تاريخا للتبادلات أو تداخل الشعوب .))(2).

تشبعت المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن ، بالروح التاريخية ، لانطلاقها منها في دراسة المصادر والأصول من جهة ثم التأثيرات والانتشار والشهرة من جهة ثانية لذلك ارتبط الأدب المقارن بالتاريخ الأدبي عند كبار المقارنين الفرنسيين :((ان الأدب المقارن فرع من التاريخ الأدبي لأنه دراسة العلائق الروحية والصلات الواقعية التي توجد (...) بين المنتجات والالهامات ، بل بين حيوات الكتاب المنتمين الى آداب عدة .))(3) من ثم نستطيع القول أن اللانسونية كانت المنطلق العلمي للمدرسة الفرنسية في الأدب المقارن ، طبعتها بطابعها التاريخي ، ووسمت ميادين بحثها بتدقيق منهجي صارم ، عيب عليها أحيانا . ويصعب الفصل عموما بين اللانسونية والمدرسة الفرنسية في الأدب المقارن ، حتى

---

1)- Rudler(G): Opcit. P.159.

2)- Rudler(G):Idem. P. 160.

3) ـ كارى (جان مارى) : مقدمته للكتاب : غويار ما ريوس فرانسوا :

الأدب المقارن (ترجمة محمد غلاب) لجنة البيان العربي . القاهرة 1956 ص

. 05

منتصف القرن العشرين ، أي طيلة فترة ازدهار اللانسونية وذيوعها ، الأمر الذي يجعلنا نستنتج أن المقارنين العرب الأوائل أمثال الدكتور محمد غنيمي هلال ، والدكتور حسن النوتي ، والدكتور أنورلوقا ، والدكتور عطية عامر ، الذين تتلمذوا على جان ماري كاري J. M. Carre تلاميذ للانسونية ، درسوا الأدب المقارن دراسة تاريخية ، ناشرين[1] بذلك المنهج التاريخي في الجامعات المصرية أولا ، وفي جامعات عربية بوساطة كتاباتهم وتلاميذهم .

من هنا يحق القول بأن المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن وجه من وجوه الانسونية.

4 ـ اللانسونية وعلم الاجتماع :

تتلخص علاقة علم الاجتماع بالدرس الأدبي ، أو ما يسمى بعلم اجتماع الأدب ، عموما في ثلاثة مجالات أساسية .[2]

1 ـ المضمون الاجتماعي للأدب ، على اعتبار أن الأدب تصوير للمجتمع وتعبير عنه، من خلال حساسية وذوق المبدع . ولقد تطورت هذه الروءية منذ بداية القرن التاسع عشر حتى الآن ، بتطور الفكر السياسي والأدبي .

2ـ تأثير الأدب في المجتمع من حيث أن المبدع لا يبدع لنفسه ، وانما لغيره ، لأنّ العملية الابداعية لاتتم وظيفيا الا اذا تم اللقاء بين المبدع والمتلقي ، جمهورا معينا كان أوخياليا ، وحدوث عملية التأثير ، عن طريق استيعاب وتقبل المتلقي للأثر أو رفضه بعدالاطلاع عليه ، واتخاذ موقف منه : وتدرس هذه الظاهرة بالبحث عن

---

1) ـ د. عامر (عطية) : تاريخ الأدب المقارن في مصر . ضمن أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر ص 36 ـ 38

2) ـ وارين (أوستن) وويليك (رينيه) : نظرية الأدب (ترجمة محي الدين صبحي) المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاكتماعية . دمشق . 1972 . ص 121 .

مظاهر نجاح الأثر وشهرته وتأثيراته .

3- سوسيولوجيا الكاتب وحرفة الأدب ومؤسساته أو المؤسسة الاقتصادية للانتاج الأدبي ، فيدرس الدارس المبدع دراسة اجتماعية معتمدا في ذلك على حياته وثقافته وبيئته الاجتماعية التي كونت شخصيته ، منتهيا باقتصاديات الأثر الأدبي ، فيدرس الطباعة والنشر والقراءة وعلاقة كل ذلك بالأثر الابداعي . يرجع الاهتمام بعلاقة الأدب بالمجتمع الى مطلع القرن التاسع عشر ، عندما تحدثت السيدة دوستايل *Mme Destael* (1766 - 1817)"عن الأدب وعلاقته بالموءسسة الاجتماعية " ، ضمن كتابها الذي يحمل العنوان نفسه ، ثم تبعها " تين " بنظريته الشهيرة التي تمثل المجتمع بعناصرها الثلاثة . ((وفي بداية القرن العشرين (...) تساءل لانسون عن علاقة تاريخ الأدب بعلم الاجتماع .))[1] ، في محاضرة ألقاها سنة 1904 م ، بطلب من زميله عالم الاجتماع الشهير اميل دوركايم ، على طلبة مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية ،ثم نشرها في مجلة " مجلة الميتافيزيقا والأخلاق " في السنة نفسها .

ذكر في هذه المحاضرة أن الاهتمام بعلاقة الأدب بالمجتمع يرجع الى السيدة دو ستايل ، ففيلمان وتين وبرونتيير الذين اهتموا بعلم الاجتماع الأدبي ، من خلال ربطهم الأدب بالمجتمع في علاقات متنوعة ومتداخلة ، كل حسب روءيته .[2] أما هو فيرى أن : ((كل أثر أدبي ظاهرة اجتماعية . فهو فعل فردي ، الا أنه فعل اجتماعي للفرد . فالطابع الأساسي للأثر الأدبي ، أن يكون تواصل فرد مع مجتمع .))[3] ومن هذا التواصل بين الفرد والمجتمع أو العكس ، بوساطة الأثر الأدبي ، يستنتج لانسون علاقة تاريخ الأدب بعلم الاجتماع ، وتتمثل في المضمون الاجتماعي للأدب ، أو تعبير الأدب عن المجتمع ، ثم تأثير الأدب في المجتمع ، وأخيرا الاهتمام بالأديب من حيث حياته

---

1)-Tadié(Jean Yves): La critique littéraire au 20ème siècle. Belfond Paris 1987. P. 155.

2)-Lanson(G): L'histoire littéraire et la sociologie(In essais de methode... P.P. 64-65 .

3)- Lanson(G): Idem. P.P.65-66.

وبيئته . (1) وبذلك يكون " لانسون " قد سطر محاور علم الاجتماع الأدبي منذ 1904 م ، وأبرز أهميته بالنسبة للعلم بصفة عامة ، وتاريخ الأدب بصفة خاصة .وتواصل اهتمام اللانسونية بعلم الاجتماع الأدبي عند أتباعها لا قتناعهم بأنه ـ أي علم الاجتماع الأدبي ـ لا يخرج عن نطاق " التأثير " بمفهومه الواسع : ((يدرس النقد الاجتماعي علاقات الأدب بالمجتمع ،من خلال الآثار الأدبية ، الشاهد الأفضل وربما الوحيد ، على عادات و تقاليد وأفكار وأحاسيس ، ومؤسسات وتيارات وحركات ، أثرت في محيط أوسع من المحيط الأدبي ، وبالتالي فالنقد الاجتماعي في مجمله نقد للتأثيرات .)) (2) ، وبذلك يكون علم الاجتماع الأدبي دراسة عكسية للمصادر والأصول ، كما هو مبين سابقا . جعل لانسون دراسة " حياة الكاتب " وصدور الأثر الأدبي عن مزاج أو أمزجة معينة ونجاح الأثر الأدبي وتأثيره عناصر أساسية في خطوات منهجه العملية (3) راسما بذلك الوجه الآخر للمصادر والأصول ، ومن ثم يجعل المنهج التاريخي سلسلة من الحلقات الاجتماعية ، لأن أي تأريخ دراسة لوضع اجتماعي معين. وهكذا يمكننا القول أن لانسون انتبه الى العلاقة المتينة والمتشابكة ما بين الأدب والمجتمع ، فدرسها وأبرز أهميتها ووضع أسسها العلمية مساهما بذلك في تطور علم الاجتماع الأدبي الذي تحول الى منهج علمي مهم ، قدم نتائج علمية مهمة في دراسة الأدب ، والمساهمة في التأريخ له، من خلال دراسات عديدة للانسونيين . ومن ثم يمكننا القول أن الكثير من الدراسات الاجتماعية للأدب صدرت عن المدرسة اللانسونية ..

---

1)- Lanson(G): Idem. P.P.66-80.

2)- Rudler(G): Opcit. P.P.176-177.

3) ـ لانسون : المرجع السابق ص 411

5- انتشار اللانسونية :

كانت اللانسونية رؤيـة تركيبية (*Synthese*) للجو النقدي والفلسفي والعلمي الذى ساد فرنسا في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، جمع فيها لا نسون مابين حلاوة الذوق ونقاء المعرفة في التأريخ للأدب تأريخا يقترب من الحقيقة ما أمكن . فجاءت نغمة جديدة ترضي أذواقا عديدة بطابعها التركيبي ، فأعجب بها شباب الجامعة الفرنسية ، ثم تعدى الاعجاب الحرم الجامعي ، لتصبح موجة علمية سادت الأوساط الجامعية الفرنسية، وأوساطا جامعية أخرى ، طيلة النصف الأول من القرن العشرين .(2) انتشرت اللانسونيـة وذاعت بفضل جهود " لانسون " نفسه ، الذى كرس حياته للتعليم والبحث والكتابة . ففـي مجال الكتابة ، ألف العديد من الكتب أشهرها كتابه " تاريخ الأدب الفرنسي " 1894 ، الذى كان المرجع لطلبة الجامعة والثانوي من فرنسيين و أجانب،(3) ونشر العديد مـن المحاضرات والابحاث والدراسات ، منها مقالته الشهيرة التي حدد فيها أسس وقواعـد وخطوات " المنهج التاريخي في دراسة الأدب " .

(1) موضعها بعد "الجامعي ،"

وفي مجال التعليم ، درس الفصاحة الفرنسية ، ثم تاريخ الأدب الفرنسي في القـرن الثامن عشر ، للمئات من الطلبة الفرنسيين والأجانب الذين أعجبوا بمنهج أستاذهـم وروحه العلمية . كما أشرف على العديد من الرسائل والأبحاث لطلبة صاروا جيش اللانسونية ، الناشر لها والمدافع عنها منهم غوستاف رودلير ودانييل مورني وأندري موريتز وجورج أسكولـي وغوستاف كوهين ، وغوستاف ميشو وفيرنان بالدنسبرجبر، وفان تيغم ، وبول توفرو ، وهنري بيري ، وجان ماري كاري ، ورجيس بلا شير ، وغيرهم . أعجب تلاميذ " لانسون " بمنهـج

1)- Poncet(André François) : Lanson. Société des amis de l'écolenormale. P. 11

2)- Escarpit(R) : Opcit. P. 1783.

3)- Pommier(Jean) : Lanson. société des amis de l'école normale. P. 44.

أستاذهم ، فطبقوه في دراساتهم وأبحاثهم كل حسب تخصصه ، ثم وجهوا تلاميذهم من فرنسيين وأجانب ، نحو هذا المنهج ، فصارت اللانسونية بذلك منهج البحث الأدبي في جل الجامعات الفرنسية .

كما انتشرت "اللانسونية" خارج فرنسا بفضل تلاميذ لانسون وأنصاره ، فالى بريطانيا حملها " غوستاف رودلير " التلميذ المتعصب .والى الولايات المتحدة الأمريكية حملها أندري موريتز (1) . والى كندا حملها غوستاف كوهين . وحملها الى مختلف أصقاع العالم العديد من الطلبة الاجانب الذين تتلمذوا على لانسون نفسه أوعلى تلاميذه . وهكذا عرفت اللانسونية انتشارا واسعا في فرنسا ، ثم بريطانيا وأمريكا وغيرها من بلدان العالم ، وصار المنهج التاريخي ، منهج البحث الجامعي في الأدب طيلة النصف الأول من القرن العشرين وأنتج العديد من تواريخ الآداب القومية مثل تاريخ الأدب الفرنسي للانسون وتاريخ الأدب العربي لجيس بلا شير ، والعديد من الرسائل والاطروحات الجامعية في تاريخ الأدب ، والأدب المقارن ، وعلم الاجتماع الأدبي ، والتحقيق ، وغير ذلك من الدراسات والأبحاث.

- التطرف في اللانسونية :

كانت اللانسونية في أساسها حربا على التعصب والتزمت : فقد حارب لانسون التعصب في البحث ، رافضا محاولات سابقيه الرامية الى ايجاد تفسير مطلق وثابت للأدب في شكليه العلمي أو الذوقي . كما حارب التزمت المنهجي ، داعيا الى النزاهة والموضوعية ، ولكن اعجاب تلاميذه به وبمنهجه الوسطي ، دفعهم الى التزمت والغلو في تطبيق اللانسونية : ((أكبر لانسونية من لانسون ، كنا نرغب أن نرى في تاريخ الأدب علما صارما ، وكنا نطلب الشمولية في أي بحث .)) (2) وأشهر غلاة اللانسونية غوستاف رودلير الذي دافع عنها دفاعا

---

1)-Peyré(Henri): Introduction au livre de Lanson : Essais de methode P. P. 12-13.

2) Clarac(Pierre): Lanson): Société des amis de l'école normale. P. 53.

عقائديا، ثم دانييل مورني وفيرنان بالدنسبرجير اللذان كانا أقل تعصبا من رودلير في تزمته لفنيات المنهج ، الا أنهما غرقا في العلمية .[1] فأدى التطرف في اللانسونية الى رد الفعل المعاكس ، تمثل في الثورة عليها واتهامها بالتهم التي كالتها لغيرها من المناهـــج. فقدعابت على النقد التقريري والتأثري اطلاقهما أحكاما مطلقة حول النص الادبي ، وهاهـم أنصارها يريدون الشمولية في أى بحث !! .والشمولية لا تكون الا ضمن أحكام مطلقة تعتقـــد أن الباطل لا يأتيها من خلفها أو من أمامها ، وأنها أصابت كبد الحقيقة . وعابـــت على النقد التأثرى خلوه من أي مضمون معرفي ، واعتماده الكلي على أحاسيس الناقـــد وذوقه ، واذا بالبعض من أنصارها يحولون فنياتها المعرفية كالبحث البيليوغوافي ، وشرح النصوص ، والتحقيق ، من مجرد وسيلة تخدم المنهج الى غاية في حد ذاتها ! فأيـــن المضمون الذي يستفيده الباحث من قائمة بيليوغرافية حول أثر معين دون ربطها بخطوات تالية توسع مدارك القارىء وأحاسيسه حول الأثر . لقد كرس العديد من اللانسونيين جهودهم لدراسة ظروف الحياة الادبية أو الافكار والتأثيرات ، غير مكترثين بخصائص الآثار ، التي زعـــم البعض منهم ، حصرها في مكوناتها الجمالية بالتطبيق الصادم للمنهج ، فدعموا بذلـــك دون وعي خرافة اللانسونية المميتة للذوق ، بينما لم يكن لانسون نفسه يطلب سوى الحد الاقصى من النزاهة في اصدار الاحكام .[2]

تطرف العديد من أنصار اللانسونية ، فزودوا بذلك خصومها بالحجج القاتلة ، الا أن التطور العلمي السريع ، وتفرعاتها المختلفة فسحت لها المجال للتطور الى مناهج عديـــدة تملأ ساحة الدرس الادبي الآن .

---

1)- Compagnon Al: Opcit. P. P. 157-1621.

2)- Tuffrau Paul: Complement pour: histoire de la litterature française de Lanson. P. 1194.

أما في الوطن العربي ، فان الحديث عن " اللانسونية " يكاد ينعدم ، رغم تسربها الى جل الجامعات العربية مع تلاميذ لانسون وتلاميذتلاميذه من الفرنسيين والعرب ، وصار المنهج التاريخي - بوعي أوبغير وعي - المنهج السائد في اعداد الرسائل والاطروحـــات الجامعية ، تحت أسماء مختلفة ، فمرة يسمى المنهج العلمي ، ومرة التحليلي النقـــدي ومرة التكاملي ، وغير ذلك من المصطلحات التي تختلف في معناها المعجمي ، الا أنها لاتختلف كثيرا في مضمونها العلمي ، وبذلك صار العرب من" غلاة " اللانسونية من حيث لا يدرون .

الباب الثاني

أحمد ضيف واللانسونية

الفصل الأول

أحمد ضيف : حياته وصلته بالرومانسية

أ- مقدمـــة :

في منتصف القرن التاسع عشر ، بدأت جهود الارساليات التبشيرية الى المشـــرق العربي ، وحملة نابليون على مصر ، وارساليات محمد علي الطلابية الى فرنسا تثمـــر ، كما هو مبين في مدخل هذا البحث ، حيث تطورت الطباعة وازدهرت الصحافة ، فعـــرف الربع الاخير مـــن القرن التاسع عشر نشأة النقد الصحافي ، تزعمه نقاد هواة من الشام أعجبوا بالفكر الأوروبي عامة ، والفرنسي منه بصفة خاصة ، فراحوا يمجدون الأدب الفرنسي ابداعا ونقدا مثل الشيخ نجيب الحداد وسليمان البستاني ومحمد روحى الخالدي وقسطاكي الحمصي . كما ظهر في هذه الفترة نظام تعليمي مدني جديد ، الى جانـــب النظام التعليمي الديني المتمثل في الكتاتيب والمدارس القرآنية لينتهي بمدارس عليـا كالقرويين في المغرب والزيتونة في تونس والأزهر في مصر ، وظهرت عوضا عن ذلك مدارس ابتدائية وأخرى صناعية ، للانتهاء بمدارس عليا مثل مدرسة الحقوق ، ومدرسة دار العلوم لاعداد الأساتذة ، ومدرسة الألسن للترجمة . وضع أسس هذا التعليم المدني في مصـــر رفاعة الطهطاوى ، وطوره تلميذه علي مبارك باشا ، فكانا من الحلقات الهامـــة في تسرب الفكر الفرنسي الى مصر ، كما هو مبين سابقا .

أمدهذا النظام التعليمي الجديد الحياة الثقافية بمصر بالعدد من القراء والمثقفين الذين آزروا تيار التفتح على الفكر الحديث في مختلف صوره ، ازاء التيار المحافظ المنبعث من الأزهر و مؤسساته التعليمية والثقافية ، و الداعي الى الحفاظ على الأصالة العربيـــة الاسلامية ، و التصدي للأفكار الغربية الدخيلة .

و هكذا عرفت مصر و بقية الأقطار العربية ، في نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية العشرين ، صراعا فكريا و أدبيا حادا بين التجديد و التفتح على الغرب ، رغبة في التطـــور و الرقي ، و أنصار الحفاظ على الأصالة ، برفض الأفكار الدخيلة ، خوفا من الانحلال و الضياع .

مسجد ابن طولون ، استمتع فيه الصبي بالفرجة على خصومات ساكناته الدائمة [1] ، فكانت متعته المفضلة حينئذ . وخلال سنوات طفولته الأولى ، كان والده لا يزال طالبا أزهريا يدرس الشريعة ، فعرفت الأسرة الصغيرة الضيق وضنك العيش ، ونشأ الصبي في جو دينـي داخل البيت وخارجه ، ملوءه العادات والتقاليد والأساطير والخرافات [2] ، فقد كان جده من والده شيخا كبيرا من شيوخ الصوفية ، تشد اليه الرحال ، و تقام في بيته الحلقات بما فيها من انشاد ومديح ورقص صوفي ، وحكايات وخرافات ، فلما توفي ، خلفه الابـن الأكبر مصطفى - عم الصبي - في مواصلة النشاط الصوفي ، واقامة الحضرة :((عندما حضرت لأول مرة حلقة من حلقات الخميس عند عمي مصطفى ، كان عمري في حدود الثامنة . فاختلط عندي ذكرى هذه الأمسية ، بكل الأمسيات اللاحقة .

وصلنا في حدود الثامنة ، ودخلنا فناء شاسعا له أسوار بيضاء عالية عارية . انـه الفناء الذى قضى فيه الشيخ الكبير الساعات العديدة بين أتباعه ، تضيئه ثريا محملة ببضعة فوانيس زيت اضاءة خافتة . (...) اقتربت من عمي ، وقبلت يده ، ووضعتها على جبيني . جلس أبي بجانبه . وكنا الأوائل في الوصول دوما ، وكنت أعلم أن هذا الفضاء الواسـع سيمتلئ بالاتباع ، فكنت أشعر وأنا واقف بجانب الدكة بغبطة ملك يرى عرشه يتضخـم دقيقة بعدأخرى .كان الناس يأتون من كل الأوساط (...) وتذكرت بكبرياء شروح والدي : من أتباع الشيخ الكبير أوائل المسلمين ، والعديدمن الطلبة ، وحتى بعض الدكاتـرة ، منهم شيخ الاسلام سلطتنا العليا ، وأنا حفيده !)) [3] ترعرع أحمد ضيف في هذا الجـو الديني ، فجده شيخ صوفي ، ووالده وعمه أزهريان ورثاعادات وتقاليد والدهما وغذيـا الصبي بها ، فصار طموحه الكبيرأن يتعلم " العلم ! "على أحد الشيوخ ، ولذلك تعلم القرآن

---

1)-Bonjean et Deif : Mansour. P.P.20-25.

2)-Bonjean et Deif: Idem. P.P.26-37.

3)-Bonjean et Deif: Idem. P.P.38-39.

ومبادىء اللغة العربية في كتاتيب الحي ومساجده متنقلا بين الشيوخ حتى بلغ سن المراهقة، فوضع نصب عينيه التعمق في " العلم!" شأنه في ذلك شأن والده وعمه وشيوخه الذين نهلوا العلم من الأزهر .

وفي يوم من الأيام ، وجد الصبي نفسه مسافرا الى الاسكندرية مع أسرته للالتحاق بوالده الذي أحرز على وظيفة " شيخ " في مسجد من المساجد ، وهناك أحس أنه انتقل الى عالم آخر ، فالمدينة نظيفة ، والبيوت مختلفة عن بيوت القاهرة ، وعدد الأوروبيين كثير جدا : ((كنا نتجول أحيانا في الأحياء الأوروبية ، فكان يتهيأ لي بأنني لست في مصر . لا أسمع الا الحديث بالفرنسية في كل مكان . ولا يدور الحديث الا عن الفرنسيين وعن باريس . كنت أعتقد أن الأوروبيين والفرنسيين كلمتان مترادفتان تقريبا . كنت أحب روعة قصر العدالة ، وأعمدة البورصة ، ومحلات شارع شريف باشا الكبيرة بلافتاتها المكتوبة بالفرنسية التي كنت أحاول فك رموزها .)) (1) لقد انتقل أحمد ضيف الى عالم آخر ، شد انتباهه ، وأثار اعجابه ، وفتق ذهنه على عوالم أخرى ، ماكان يتصورها وهو في القاهرة . من هنا بدأ يفكر في مستقبله : أيكون شيخا مثل والده ؟ أم عليه أن يسلك سبيلا آخر ؟ ولكنه اختار في النهاية السبيل الآخر .

لقد مل الكتاب ، وعزم على الالتحاق بمدرسة حديثة يتعلم فيها العلوم الحديثة اللغة الفرنسية ليصبح " أفنديا " ، فقد يحرز بذلك على وظيفة في الحكومة . (2) وهكذا طلق التعليم الديني ، وتنقل بين عدة مدارس حديثة بحثا عن " علم حديث " فاختلط بالعديد من الشباب المتحضر : ((بدأت الخروج مساء ، والبقاء في المقهى الأوروبي بصحبة فوءاد . يكن والدي يلومني البتة . وشيئا فشيئا ، عرفني فوءاد ، الذي هجر المدرسة للالتحاق

---

1)- *Bonjean et Deif: Idem. P.161.*

2)-*Bonjean et Deif : Idem. P. 176.*

بالجمارك ، بمن أعتبرهم سعادة شبابي . وحضر فوءاد ذات صباح لا سطحابي الى حفل توزيع جوائز معهد الاخوة . فشاهدت أوروبيات في أناقة كاملة . قدمت مسرحيات صغيرة بالفرنسية . أحسست بجرأتي لحضوري حفلا وسط نساء كبيرات وشعرت برغبة كبيرة في الاحتكاك بهذه الأوساط ، مع احتفاظي بعقيدتي صافية . ولاجل ذلك ، لابد من تعلم الفرنسية .))(1)

راح أحمد ضيف يسعى جاهدا لتعلم الفرنسية ، فلم تسعفه ظروف أسرته المادية في تحقيق رغبته ، لتبقى مجرد رغبة من بين الرغبات ، ويبقى يتنقل بين مساجد الاسكندرية وكتاتيبها ومدارسها عدة سنوات من شبابه ، مثل العديد من أترابه .

وفي يوم من الايام ، وصلت الاسرة رسالة من عمه " مصطفى " يطلب فيها من أخيه أن يرسل الصبي لمتابعة دراسته في الازهر على نفقته مرافقا لابن عمه الذى بدأ ينحرف عن جادة الطريق السوي .(2)

التحق بالأزهر ، وتتلمذ على العديد من الشيوخ ، وأعجب اعجابا خاصا بكل من الشيخ عليش والشيخ محمد عبده ، الذين كانوا يتزعمون حركة التجديد الفكري ، والتجديد العلمي كل حسب تخصصه . (3) أعجب بهم لولعه بالجديد والتجديد ، كما أعجب بمصطفى كمال ، الشاب الوطني الذى درس الحقوق في باريس ، وتسلح هناك بفكر سياسي نير ، سخره لخدمة وطنه ، والثورة على الانكليز ،(4) بخطبه الملتهبة حول الوطنية وأركانها المستمدة من الفكر السياسي الفرنسي .

قضى أحمد ضيف خمس سنوات طالبا في الأزهر ، معجبا بالبعض من شيوخه لنزعتهم التجديدية ، كارها للعديد منهم لجمودهم وضيق مداركهم ، وكان طيلة مدة دراسته الأزهرية

---

1)-Bonjean et Deif : Idem P.P.206-207.
2)-Bonjean et Deif : Idem. P.P.272-273.
3)-Bonjean et Deif : El-Azhar. P.P.125-170.
4)-Bonjean et Deif: Idem. P.P.214-240.

يتساءل عن مستقبله ، ومن الطريق التي سيسلكها فيما بعد . التحق عقب تخرجه من الأزهر بمدرسة دار العلوم ، أعلى مؤسسة تعليمية في اللغة العربية وأدبها وقتذاك ، ليتخرج منها سنة 1909 أستاذا في اللغة العربية وأدبها . (1)

في دار العلوم درس اللغة العربية بطريقة مختلفة عن طريقة الأزهر ، فالمقرر محدد، والأساتذة ملزمون به وبتتبع مساره التدريجي . كما درس الأدب العربي بطريقة جديدة لاعهد للأزهريين بها ، فالأدب العربي مقسم الى عصور وأجناس ، وتحول درس النص الأدبي من الاهتمام بالقواعد النحوية والبلاغية الى البحث عن فكرة صدرت عن شاعر أو كاتب عاش في زمان ومكان معينين . ونستطيع القول بمعنى آخر أن دراسة الأدب في " مدرسة دار العلوم اتسمت بشيء من الروح التاريخية منذ 1898 م نتيجة لدروس الأستاذ حسن توفيق العدل . (2)

وحين تخرج من دار العلوم ، عمل مدرسا للغة العربية وأدبها في التعليم الثانوي من سنة 1909 م الى 1912 م . وخلال دراسته في الأزهر ثم في دار العلوم ، و كذلك أثناء عمله في التعليم الثانوي ، كانت كتابات نجيب الحداد ومحمد روحي الخالدي وقسطاكي الحمصي تشغل الحياة الثقافية وتشد أذهان المثقفين الشباب الى ذلك العالم النقدي الذي تزخر به كتابات أولئك الكتاب . وتأسست في الفترة نفسها الجامعة المصرية (1908 م) على غرار النموذج الفرنسي من حيث مقررها الذي وضع أسسه أولئك المستشرقون الذين استقدمتهم

---

1 - عبد الجواد (محمد) : تقويم دار العلوم ص 164

2 - حسن توفيق العدل : (1862 - 1904) من مواليد الاسكندرية ، تعلم في الأزهر ثم دار العلوم . اختير معلما للغة العربية في المدرسة الشرقية ببرلين حيث قضى أكثر من خمس سنوات تعلم فيها اللغة الألمانية ودرس أدبها . بعد رجوعه الى مصر ، عين مفتشا في المعارف ، ثم أستاذا للغة العربية وأدبها في مدرسة دار العلوم . جمع دروسه في كتاب طبع سنة 1898 بعنوان : " تاريخ آداب اللغة العربية " فكان أول كتاب في تاريخ الأدب العربي بالمنهج الحديث. الزركلي : الأعلام 2/ 186 .

لتدريس ما لا يحسن الشيوخ تدريسه من حيث المحتوى أو الطريقة بوجه خاص ، ثم سرعان ما شرعت في التهيئة لا ستخلافهم بمصريين يتمتعون بموءهلات مشابهة لموءهلات أولئك المستشرقين ، ولبلوغ هذا الهدف كان لا بد من ارسال طلبة الى فرنسا يدرسون العلم من أصوله ، ويحرزون على الشهادات العلمية العليا ، قصد تعويض المستشرقين الذين بدأوا يحدثون تململا في الأوساط الطلابية للصعوبات اللغوية التي كانوا يتعرضون لها خلال عملية التوصيل ، كما بدأوا يرهقون كاهل الجامعة ماليا واداريا .

لقد كان اعلان الجامعة عن بعثتها الأولى الى فرنسا سنة 1912 حدثا مهما جدا في حياة أحمد ضيف استيقظت في نفسه كل الاحاسيس والامال والطموحات التي غمدت مراهقته وشبابه في الاسكندرية ، فراح يتصور نفسه طالبا في باريس ينهل العلم من منابعها ويعيش عصره . لذا صمم على الفوز بهذه المنحة ، فأعد لها العدة ، وكان الفائز بمنحة الجامعة لدراسة الأدب ، وسافر الى فرنسا سنة 1912 م للحصول على الدكتوراه في الأدب ..

3- دراسته في فرنسا وصلته بالانسونية :

سافر الى فرنسا سنة 1912م ، متوجها الى باريس ، عاصمة العلوم والفنون ومدينة اللهو والسرور، (1) وهناك انغمس في الحياة الفرنسية متذوقا ملذاتها حسب امكاناته المادية وحدوده الاخلاقية تعرف على فنونها بارتياد المسارح والمتاحف والمعارض الفنية ، كما تذوق الجمال في شتى صوره ، فازداد ذوقه رقة ورهافة . أما العلوم ، فقد سجل نفسه في جامعة باريس - السوربون - حيث قضى السنتين الأوليين يتعمق في اللغة الفرنسية ، بحضوره دروس اللغة ، واعداده في الوقت نفسه دبلوما في الأدب الفرنسي ، أحرز عليه

---

1) - د. ضيف (أحمد) : باريس بين الحرب والحب (ضمن كتاب : باريس لأحمد الصاوي محمد . دار الكتب المصرية . القاهرة 1933 ، ص 302 .

سنة 1914 م. [1] يعد حصوله على دبلوم في الأدب الفرنسي ، دليلا على اجادته وتمكنه من اللغة الفرنسية أولا ، ثم اطلاعه على الأدب الفرنسي ، بمختلف أجناسه ، وعصوره المختلفة ثانيا ، فاعداد دبلوم يتطلب اجادة اللغة والالمام بميدان البحث . ومن ثم فقد درس أحمد ضيف الأدب الفرنسي في جامعة باريس (1912 _ 1914) في فترة عنفوان المنهج التاريخي ، وازدهاره بها ، بوجود كل من شارل سينيوبوس C. Seignobos وشارل لا نقلوا C. Langlois ولا سيير Lassere في التاريخ ، ودوركايم في علم الاجتماع ، والاخوين كروازي ولانسون في الأدب ، وبذلك كان اعداده دبلوم الأدب الفرنسي تدريبا له على المنهج التاريخي من خلال كتاب "تاريخ الأدب الفرنسي" للانسون ، الذى كان مرجع كل طالب في الأدب الفرنسي ، ثم معايشته لاعلام المنهج التاريخي السالفي الذكر . شرع في أعداد رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، فور الانتهاء من الدبلوم ، ببحث عنوانه : ((بحث في الغنائية والنقد الأدبي عند العرب .)) باشراف الأستاذ "م.ج." رينيي M.G. Reynier أستاذ الأدب الفرنسي في كلية الآداب . [2]

وقدم بحثه للمناقشة في مطلع سنة 1918 م فأحرزبه على درجة دكتوراه الجامعة في الأدب ، ليكون _ حسب ما أعرف _ أول دكتور عربي يتخرج من جامعة السوربون ، بعدما قضى ست سنوات ، من التلمذة على أقطاب المنهج التاريخي بالاستماع الى الدروس ومتابعتها ، والمحاضرات العامة التي كانت تقدم هنا وهناك ، وحضور مناقشات الرسائل الجامعية ، ثم اعداده رسالة الدكتوراه باشراف الأستاذ " رينيي " أحد أتباع لانسون ومحبيه

---

1) _ عبد الجواد (محمد) : تقويم دار العلوم ص 164.

2)- Deifl Ahmed: Essais sur le lyrisme et la critique litteraire chez les arabes. Jouves et cie editeurs. Paris. 1917. P.03.

المخلصيـن . (1)

وأرتبط ، زيادة عن التلمـذة على أقطاب المنهج التاريخي،بعلاقة صداقة ومودة مع ألفريد كروازي ، عميد كلية الآداب آنذاك ، الذى ترك فيه أثرا بالغا ، بسبب حسـن استقباله ، والمساعدات التي أمده بها. (2) وبديهي أن يكون اعجاب أحمد ضيف بكروازى دافعا له على التأثر بكتاباته التاريخية حول الأدب اليوناني القديم (3) .

1)- Melanges offerts par ses amis et ses élèves à Mr G. Lanson. Librairie Hachette. Paris. 1922. P. 27.

2)- Deifl Ahmed): Essais sur le lyrisme . P. 03.

3) ـ لانسون : منهج البحث في تاريخ الأدب ص395 .

4ـ آثاره وأعماله :

لقد آثر العودة فور مناقشة رسالة الدكتوراه سنة 1918 م الى مصر في سفينة هربا من ويلات الحرب العالمية الأولى ، رغم مخاطر السفر . فقذفت السفينة في عرض البحر المتوسط بقذائف أغرقتها ، ولم ينج من الركاب سوى عدد قليل جدا ، كان أحمد ضيف أحدهم ، وقد سجل حكاية غرقه في خمس مقالات بعنوان " أنا الغريق " نشرها في مجلة " الثقافة ". [1]

رجع الى مصر ، حاملا لقب" دكتور " ، فعين في السنة نفسها أستاذا للأدب العربي في كلية الآداب ، بالجامعة المصرية ،[2] فقضى بها ما لا يقل عن سبع سنوات متربعا على كرسي الأدب العربي الذى كان مطمح العديد . وقد وجه دروسه خلال عمله بالجامعة نحو موضوعين اثنين : تمثل الأول منهما في جملة من الدروس النظرية العامة حول النقد ومنهجية الدرس الأدبي جمعها سنة 1921 م في كتابه " مقدمة لدراسة بلاغة العرب" . أما الثاني فتمثل في دروس حول الأدب الأندلسي وتاريخه مع نماذج من النصوص الشعرية والنثرية وجمع تلك الدروس سنة 1924 م في كتابه " بلاغة العرب في الأندلس " .

وخلفه طه حسين في سنة 1925 م على كرسي الأدب العربي لأسباب علمية تتمثل في غزارة انتاج طه حسين وقلة انتاج أحمد ضيف ، وأسباب غير علمية تتمثل في الصراعات الحزبية وآثارها على الجامعة حيث كان طه حسين عنصرا مساهما فيها عكس أحمد ضيف ، فنقل الى وزارة المعارف مدرسا بمدرسة المعلمين العليا [3] لمدة سبع سنوات أخرى، لينتقل بعدها الى دار العلوم سنة 1932 م أستاذا للأدب العربي ، فوكيلا لها سنة 1938 م ،

---

1) ـ د . ضيف (أحمد) : أنا الغريق . مجلة الثقافة . الأعداد 2 ، 3 ، 4 ، 6 ، 8 من سنة 1939 لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة 1939 .

2) ـ عبدالجواد (محمد) : المرجع السابق ص 165

3) ـ عبد الجواد (محمد) : المرجع السابق ص 165 .

حتى احالته على التقاعد سنة 1940 م .عندما تقاعد من دار العلوم ، رجع ثانية الى الجامعة المصرية مدرسا للأدب العربي حتى وفاته في شهر فيغرى من سنة 1945 م بالقاهرة ، (1) بعدما قضى أكثر من ربع قرن في تدريس الأدب العربي وفقا لما تعلم في جامعة السوربون .

وشارك زيادة عن نشاطه التعليمي ، مع كل من طه حسين وأحمد ألاسكندري واحمد امين وعبد العزيز البشرى ، أواخر العشرينيات ، في اعادة النظر في مناهج الأدب العربي للمدارس الثانوية . (2) فكانت نتيجة أعمال تلك اللجنة ، مقترحات قبلتها وزارة المعارف المصرية لتكون منطلقا منهجيا لتأليف سلسلة كتب مدرسية للمدارس الثانوية ، كلفت اللجنة با عدادها ، وبذلك ساهم أحمد ضيف في تأليف الكتب المدرسية التالية :

1 - المجمل في تاريخ الأدب العربي . صدر سنة 1929 م

2 - المفصل في تاريخ الأدب العربي (جزءان) صدر بعد سنة 1929 وقبل سنة 1933 م ، سنتا صدور أول السلسلة وآخرها .

3 - المنتخب من أدب العرب سنة 1933 م ، متضمنا نصوصا أدبية ، شعرا و نثرا ، من مختلف عصور الأدب العربي ليكون معينا للأستاذ والطالب في الاطلاع على النصوص الأدبية المعبرة عن مؤلفيها وعصورها .

وتمثلت مشاركة أحمد ضيف في هذه السلسلة في كتابته للفصول الخاصة بالعصور الأندلسية (3) ضمن كل كتاب ، حيث كان يعتبر حينئذ بين زملائه مؤرخ الأدب

---

1) - عبد الجواد (محمد) : المرجع السابق ص 164 - 165

2) - طه حسين وآخرون : المجمل في تاريخ الأدب العربي . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة 1929 ص أ

3) - المفصل في تاريخ الأدب العربي ، 03

الأندلسي ، لتأليفه كتاب " بلاغة العرب في الأندلس " (1) الذي يعتبر لحد الآن حسب اعتقادي - أول كتاب في التأريخ للأدب الأندلسي على الطريقة الحديثة . ولم يترك أحمد ضيف آثارا كثيرة ، فقد كان من الأساتذة المقلين في الكتابة ، لأنه لم يشارك في النقد والخصومات والمعارك الأدبية التي كانت شغل زملائه الشاغل ، ثم ان التكسات التي لحقته في حياته الوظيفية حالت بينه وبين ذلك حيث تنقل بين عدة موءسسات سبق ذكرها ، وكانت رغبته البقاء في الجامعة ، ولكن طبعه الهادئ ونزعته الى العزلة والانزواء أبعداه عن خضم الصراعات السياسية والاجتماعية والأدبية القائمة آنذاك والموجهة لكثير من القرارات الوظيفية .

لقد ساهم على قلة نتاجه في التأليف العلمي برسالته للدكتوراه ، وكتابيه المشار اليهما سابقا ، وفي التأليف التربوي بمشاركته في تأليف الكتب المدرسية السابقة الذكر . وأخيرا في التأليف القصصي باللغة الفرنسية مع الكاتب الفرنسي " ف . م . بونجان " بتأليفهما سيرة أحمد ضيف أصدرا منها جزئين ، فكانت مرجعنا الأساس في التأريخ لطفولته وشبابه . (2) وأعتقد أنه عمد لتأليف سيرته بالفرنسية دون العربية لما تضمنت من أفكار وصور وتصريحات جريئة جدا بالنسبة لذلك الوقت ، يضاف الى ذلك أن المجتمع المصري لم يكن قد تعود على قراءة سير الناس والاستمتاع بأسرارها استمتاعا ثقافيا ، بعيدا عن الأحكام الأخلاقية ، مثل الفرنسيين ، ولذا آثر تقديم سيرته للفرنسيين ، فكان بذلك أحد روادفن السيرة في الأدب العربي الحديث ان لم يكن الرائد فيه .

1)- *Peres(H): la littérature arabes et l'islam. librairie d'amérique et d'orient. Paris 1977. p.136*

2) - نشر الجزء الأول والثاني منها في باريس ، سنة 1924 بالنسبة للجزء الاول و 1927 بالنسبة للجزء الثاني .

ولا ريب أن تلاميذ أحمد ضيف هم أهم آثاره،فقد صاروا علامات بارزة في الأدب العربي الحديث ، حيث كان أستاذا موءثرا ، محبوبا ، غرس في تلاميذه حب الأدب : ((أما حظه في الجامعة فحسن جدا خليق بالغبطة ، فقد وفق الأستاذ لان يفتح أمام تلاميذه مناهج جديدة للبحث سلكوها فوفقوا فيها لخير كثير . ولقد حدثتك غير مرة عن تلميذ للأستاذ تناول ألوانا من البحث الأدبي فكان حظه من الاجادة عظيما ، هو الدكتور زكي مبارك . وسأحدثك عن تلميذ آخر للأستاذ تناول الأدب العربي في الأندلس فأظهر كتابا لابأس به ، وهو كامل أفندي الكيلاني . وليس بالشيء القليل على أستاذ أن يكون من تلاميذه الموءلفون الذين لا يسيئون التأليف ولما يمض الأستاذ في مهنة التعليم الا أعواما قصارا .)) (1)

تعد هذه الشهادة الصادرة عن طه حسين ، المنافس الأكبر لأحمد ضيف في الجامعة دليلا قويا على مكانته التربوية في الجامعة وقدراته التعليمية .كما أن تتلمذ زكي مبارك عليه قد يكون السبب في خصومة زكي مبارك وطه حسين ، فليس مستبعدا أن يكون قد تأثر بأستاذه ففعل ما لم يقدر هو على فعله من مجابهة طه حسين ، ومواجهته .

يلاحظ المتتبع لسيرة أحمد ضيف أنه لم يخلف تراثا علميا كبيرا رغم المدة الزمنية الطويلة التي قضاها في التعليم العالي من جهة وموءهلاته العلمية من جهة أخرى ، فقد كان دكتورا في الأدب ، درس في فرنسا ، ويجيد اللغة الفرنسية ، ومن ثم كان المفروض أن يكون نشاطه العلمي أوفر حظا مما كان عليه ، فما هو السر في ذلك ؟ من الصعب العثور على اجابة لهذا السوءال فيما كتب من معلومات بسيطة حول الرجل ، الا أن قراءتي لسيرته الذاتية ، والمعلومات البسيطة التي كتبها معاصروه ، واتصالي بأسرته (2) ، تجعلني أعتقد أن مرد ذلك

---

1 - طه حسين:حديث الأربعاء . ج 3 . دار المعارف ط 10 القاهرة ص 73

2) ـ في سنة 1984م تمكنت من الاتصال بابن أخيه وزوج ابنته الدكتور خيرت ضيف ، أستاذ في كلية التجارة جامعة عين شمس ، الذى أمدني بمعلومات حول أسرة المرحوم لاأهمية لها بالنسبة للبحث ، فقد وجدت أسرته لاتمتلك حتى آثاره .

عوامل عديدة تعاونت على تثبيط همته أذكر منها : تربيته الدينية ، في أسرة تقليدية ، علمته على القناعة والتأني والمسالمة ، الامر الذى جعله يبتعد عن الصراعات الحزبية ، والمعارك النقدية ، موءثرا السلامة والهدوء وراحة البال ، فقد كان : ((لايميل الى الطنطنة والشهرة ، يفضل الانزواء (.....)كان يسخر من كل ما يزعمه بعض الناس مجدا .)) (1) انها روءية للحياة تكاد تكون زهدية ، ربما أفادت صاحبها في تفادي العديد من صعاب الحياة التي جابهت معاصريه ، الا أنها جنت عليه علميا ، في الصراع الفكري ، لينزوي في حجرات الدرس ، وبذلك تكون تربيته قد أضرت به علميا أكثر مما أفادته ، فقد كان زيادة عما سبق ذكره صبورا ، لا يحب الاساءة لأحد :

((ومن أخص صفاته الوفاء لأصدقائه واخلاصه في صداقته . يذكر بعض اخوانه أنه بكى مرة لما أدرك أنه أساء الى صديق . وكان رحمه الله شديد الحرص على صحته وحياته .)) (2)

هذه صفات وخصال ، تحد من الجرأة العلمية ، وتجعل صاحبها يتريث في انتقاد فكرة لزميل أو رأي لصديق ، وبذلك ينزع شيئا فشيئا الى تقبل مختلف الآراء والنتائج العلمية حفاظا على علاقات الود والصداقة .

ومن عوامل قلة نشاطه ، تتابع أحداث ثبطت همته ، أولها غرقه خلال رحلة العودة من فرنسا ، فسكنه الخوف على حياته وصحته ، ثم اخراجه من الجامعة ليخلفه في تدريس الأدب العربي طه حسين المتخصص في التاريخ ، (3) ثم عدم الاستعانة به في المناصب الادارية ، حيث لم يحمل مسوءولية أكثر من وكيل كلية دار العلوم . تجمعت هذه العوامل لتتلاءم وتربيته التي أثمرت صفاته السابقة الذكر ، فكانت نتيجة كل ذلك انعزاله عن المساهمة الفعالة في تطوير الحياة العلمية ، وانزوائه داخل قاعات

---

1) ـ عبد الجواد (محمد) : المرجع السابق ص 165

2) ـ عبد الجواد (حمد) : المرجع السابق ص 165

3) ـ من البديهي أن قدرة طه حسين الأدبية أفضل بكثير من قدرة أحمد ضيف ، الا أن أسبقية ضيف الى المنصب و تخصصه العلمي يضمنان له البقاء في منصبه .

التدريس ، مكتفيا بآثار قليلة ، وتلاميذ سيفعلون ما لم يفعل أستاذهـــم .

وخلاصة القول ان أحمد ضيف ، كان أول من أحرز على درجة الدكتوراه في الأدب من فرنسا ، وأول من اتصل تاريخيا باللانسونية عن طريق تتلمذه على أعلامهـــا الأوائل ، وأول من درس النقدومفاهيم حديثة في الدرس الأدبي في الجامعة المصريـــة ، فهل كان لريادته هذه ، دور في تأثره بـالـلانسونية أولا ؟ ان استعراض كتبه هـــو الكفيل الوحيد بتبيان ذلـــك !

الفصل الثاني

أحمد ضيف ودعوته للمنهج التاريخي

ا _ مقدمـــــة :

بينا في الفصل السابق صلة أحمد ضيف التاريخية باللانسونية ، من خلال تتلمذه على العديد من أعلامها في جامعة السوربون ، فدرس المنهج التاريخي في دراسته الأدب الفرنسي ، وعرف شروطه وفنياته ، خلال اعداده رسالة الدكتوراه مع الأستاذ " ريفيي " أحد أتباع لانسون ، فعرف بذلك أن دراسة الأدب تقوم على الذوق من جهة والمعرفة من جهة ثانية ، وأن للذوق شروطا وحدودا لاينبغي تجاوزها ، سواء في تذوق الأثر الأدبي أو في تقدير ذلك الذوق واعتماد نتائجه ، وأن للمعرفة فنيات وخطوات يعتمدها الباحث وسائل تجريبية تقربه من الحقيقة ما أمكن .

عرف من دون شك كل هذا ، كما عرف أن على دارس الأدب الاستعانة بعلوم مساعدة كالتاريخ والفلسفة وعلوم اللغة وغيرها من العلوم ، لتفتح أمامه مغاليق النص وتساعده على فهم أسراره فهما دقيقا في مستويين مختلفين : الأول فهمه انطلاقا من عقلية واحساس وفهم المبدع نفسه ، بالاعتماد على المعرفة التاريخية . والثاني انطلاقا من عقلية واحساس وفهم الدارس نفسه انطلاقا من ذوقه وتذوقه المبني على احساساته ومعارف عصره .

ان معرفة أحمد ضيف بالمنهج التاريخي لا تعد دليلا علميا على التأثر به ، فالدارس عادة ما يتعرف على العديد من المناهج والأفكار أو الاراء ، الا أنه لايتأثر الا بالقليل منها ، لأسباب منها الموضوعية ومنها الشخصية الذاتية ، كأن يكون الدارس أميل الى الابداع من البحث مثلا ، ثم لأن المعرفة أو الاتصال شيء ، بينما التأثر شيء آخر، ومن الصعب الاجابة نفيا أو تأكيدا على تأثر أحمد ضيف باللانسونية الا بعد فحص آثاره، والبحث فيها عن دعوته لهذا المنهج أو تطبيقه له ، أو الدعوة والتطبيق معا .

تتمثل آثار أحمد ضيف العلمية في كتبه الثلاثة : " بحث في الغنائية والنقد الأدبي عند العرب " و " مقدمة لدراسة بلاغة العرب " و" بلاغة العرب في الأندلس " ، انصب

الاول والثالث بطابع تطبيقي ، بينما اتسم الثاني بطابع نظري عام . ومن هنا سنحاول تلمس دعوته الى المنهج التاريخي من خلال كتابه " مقدمة لدراسة بلاغة العرب " في هذا الفصل ، ثم نحاول تلمس تطبيقه للمنهج من خلال كتابيه " بحث في الغنائية والنقد الادبي عند العرب " و " بلاغة العرب في الاندلس " في الفصل الثالث .

يتكون كتاب " مقدمة لدراسة بلاغة العرب " (1) من جملة مباحث ، قدمها أحمد ضيف دروسا لطلابه في الجامعة المصرية من سنة 1916 م الى سنة 1921 م حول أهم القضايا النقدية التي رأى ضرورة اطلاع طالب الأدب العربي عليها ، ومعرفته لها ، مثل : الكلام البليغ ودراسته ، الأدب والبلاغة ، أنواع البلاغة ، البلاغة والمجتمع ، الأديب والمجتمع النقد الأدبي ، النقد الأدبي في فرنسا : مراحله ومدارسه ، النقد الأدبي عند العرب وموازنته بالنقد الفرنسي .

وكان،قبل دراسته هذه الموضوعات،قد رفع راية التجديد والثورة على طرق دراسة الأدب العربي السائدة آنذاك ، في أول درس قدمه بالجامعة المصرية ، ثم جعل خلاصته تمهيدا لهذا الكتاب . (2)

أوضح في التمهيد أن دراسة الآداب العربية بالطرق الحديثة لا تزال حديثة العهد، فعقول الدارسين والقراء العرب لم تتحرر بعد من قيود الطرق القديمة ، والانتصار لها ، وتعتبر الخروج من القديم خروجا عليه ، لايمانها الراسخ بأن القدماء وصلوا الى أقصى

---

1) - ليس المقصود بمصطلح " بلاغة " تلك الفنون المتعارف عليها عند العرب مثل التشبيه والاستعارة و المجاز ، وانما يقصد المؤلف بهذا المصطلح " الأدب الابداعي " من شعر ونثر فني ، على أساس أنهما الفنان الأدبيان البليغان . أما مصطلح " أدب" فيعني به جملة الكتابات عدا العلمية الصرفة منها ، أي يقصد الكتابات التاريخية والفلسفية والاجتماعية والنفسية والنقدية ، وكل ما ينضوي تحت اسم " كلية الآداب" وسار هذه الوجهة اقتداء بالفرنسيين الذين أطلقوا مصطلح " آداب : *Lettres*" على مجمل الكتابات غير الابداعية ، ومصطلح " بلاغة : *Littérature*" على الأدب الابداعي من شعر ونثر. (د. أحمد ضيف : مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ص 12 و ص 21 - 21).

2) - د. ضيف (أحمد) : مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، مطبعة السفور القاهرة 1921 ص03.

ما يمكن أن يصل اليه العقل البشرى ! . ولذا فان الأدب العربي على سعته وثرائه مشوش مختلط ، لازال باقيا على حالته الأولى من الجمع والدرس . (1)

انه هجوم علمي دقيق وصائب ، على الطرق المتبعة ، آنذاك ، في دراسة الأدب العربي وتدريسه ، الا أنه هجوم موءدب لا يتهم أشخاصا أو موءسسات ، وبذلك لا يثير غضبا أو صراعا بين جهات معينة . فالأدب العربي لا زال بحاجة الى جهود عديدة حتى يجمع ويدرس درسا علميا دقيقا بعيدا عن الأحكام المبنية على التقليد والنقل عن القدماء احتراما وتقديسا لآرائهم .

وبعيدا عن العادات والاعتقادات العلمية الثابتة المتناقضة مع روح العلم الحديث .

لقد أدرك أحمد ضيف أن الأدب العربي بحاجة الى بحث علمي دقيق يخرجه من حالة الاعجاب بالبناء اللفظي أو البلاغي الى حالة التفاعل مع المجتمع ، ليصبح أدبا يستمد أفكاره وأحاسيسه وموضوعاته من الحياة الاجتماعية ، فيمثل الزارع في حقله ، والتاجر في متجره ، والشيخ في أهله ، والشباب في مجونه وغرامه وبشه . (2)

تنبع دعوته هذه من اقتناعه بأن الأدب العربي لفظي ، همه الأول السعي نحو البناء اللفظي الكامل . أما المضمون أو الأفكار فهي مطروحة على الطريق ـ كما قال الجاحظ ـ ومن ثم اقتنع أن الأدب العربي لا يصور المجتمع بمعناه الواسع ، فدعا الى تغيير ذلك الواقع الأدبي ، ليصبح الأدب العربي أدبا اجتماعيا ، اقتداء بالآداب الأوروبية المتطورة .

كما لاحظ أن اعجاب العرب باللفظ لم يتوقف عند الابداع الأدبي ، وانما تعداه الى النقد ، حيث انغمس هو الآخر في بركة الألفاظ ، فراح تبعا لذلك يستحسن أو يستقبح النتاج الأدبي بناء على شكله ، على بنائه اللفظي أو البلاغي ، اعتمادا على آراء الأقدمين ، فتجمد النقد

---

(2)ـ د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 05 ـ 06

العربي في دائرة ضيقة لا تتعدى الاعجاز اللفظي .

وللخروج من هذا الوضع النقدي أولا ، والابداعي ثانيا كان لابد من الاخذ بالمناهج العلمية الجديدة وتطبيقها في دراسة الأدب العربي ، فيتطور النقد العربي ويتحرر من دائرة الاهتمام باللفظ ، لينعكس ذلك على الأدب الابداعي فيما بعد ، فيتحرر هو الاخر من طابعه الشكلي ، ليمتلىء مضمونه بالحياة الاجتماعية : ((والطريقة التي نريد أن ندرس بها الأدب العربي هي طريقة نقدية ، اذ بدون هذه الطريقة لا يمكن لأيّ دراسة من نوع تنتج أو تثمر . ولا لأيّ فكر أن يرقى أو يتقدم ، ولا يمكن أن تتخطى العقول أطوارها اللازمة ، مادامت مقيدة بتأييد فكرة أورأي تعمل على اثباته . نريد بطريقة النقد ، البحث في العوامل الحقيقية التي اعترت اللغة العربية وبلاغتها ، بحثا مبنيا على الأسباب العلمية والاجتماعية . ثم الحكم على ذلك حكما صحيحا ، بقدر ما تهتدي اليه عقولنا ، وترشدنا اليه مباحثنا ، وبدون أن نرجع الى أقوال القدماء الا من حيث أنها مراجع ، أو شيء من تاريخ اللغة ، لا أنها عمدة الآراء أو قادة الباحثين (....) نريد أن ندرس الأدب دراسة علمية كما يقول الأوروبيون . ولا يعني بالدراسة العلمية كما لا يعنى الأوروبيون أنفسهم أيضا أن الأدب يصبح ذا قواعد لا يتعداها ، كما في العلوم الرياضية أوالطبيعية . ذلك لن يكون لأنّ الأدب فن من الفنون الجميلة الحكم فيه موكول الى الذوق السليم والادراك الصحيح . وانما نتبع خطة ذات قواعدو قوانين)) (1) .

يقترح أحمد ضيف ، طريقة لدراسة الأدب العربي ، عوضا عن الطرق التقليدية السائدة ، تتلخص في جملة من الأسس والأفكار النقدية يمكن حصرها فيما يلي :

- النقد بحث في الأسباب والعوامل الحقيقية لابداع الأثر الأدبي . وهذا يعني أنه يريد من الناقد ربط الأدب بكل العناصر المكونة له من أحداث تاريخية ، وزمان ومكان

---

1) - د . ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 8 .

وأشخاص ، وتراث قومي ، وتراث انساني ، أي ربط الأدب بأصوله ومصادره وبيئتـــــه ، على أساس أن الأدب نابع من مجتمع ومصور لـــه بطريقـة أو أخرى .

2 ـ لا ينبغي للباحث أن يعتمد على آراء الأقدمين الا من حيث انهاوثائق تبيـــن الذوق أو الدلالة أو الفهم اللغوي في مرحلة معينة . وينبع هذا الرأي من أن آراء القدماء ليست حقائق علمية ثابتة ، وانما مجرد آراء تدل على حقيقة معتقد أصحابها أكثر ممـــا تدل على حقيقة الأثر نفسه ، ومن ثمة يحق للباحث الاعتماد عليها باعتبارها وثائـــق دالة ، وليست حقائق ثابتة .

3ـ النقد دراسة علمية ، والقصد من ذلك ليس اتباع قوانين العلوم الرياضيـــة أو الطبيعية ، وانما اتباع قواعد وقوانين نابعة من الأدب نفسه ، لأن الأدب فن جميـــل لا يفـهـم الا بالـتـذوق النـابـع مـن ذوق سـليـــــم ، وبهــذا يكون معنى العلمية في الأدب نابعا من طبيعة الأدب نفسه ، أي تقيد الناقد بقواعد وقوانين مستوحاة من الأدب ، وليس تطبيق مناهج علوم أخرى ، وانما الاعتماد علـى الروح العلمية أو المعرفـة .

4 ـ من أسس الطريقة النقدية في الأدب الدراسة العلمية ، التي تعتمد علـــى قوانين وقواعد أدبية ، ثم الاعتماد على الذوق السليم والادراك الصحيح . فالذوق السليـــم لا يكون الا عند الناقد الذواقة الحساس الذي يتحكم في تذوقه حتى لا يكون مجرد انفعـــالات . أما الادراك الصحيح ، فلن يتأتى للناقد الا اذا راجع نفسه ولم يعتمد آراءه وآراء غيره حقائق ثابتة ، وانما تمحصها وراجعها وقارنها . وعموما فان الاشارة الى " الذوق السليم " و" الادراك الصحيح " توحي بدقة المنهج وعلميته ، خاصة اذا أضفنا الى الذوق والادراك الدراسة العلمية النابعة من الأدب نفسه ، وبذلك يجمع أحمد ضيف بين المعرفة الأدبية والذوق الأدبي فـي دراسة الأدب والتأريخ له ، فيضع بذلك أمام القارئ أساس المنهج التاريخي ، المتمثـــل

في الجمع مابين المعرفة والذوق في الدرس الأدبـــي .

5 - ونتيجة هذه العوامل هو اصدار حكم نقدي صحيح أو أقرب مايكون الى الصحـــة ، خال من الأحكام المسبقة ، ودون الاعتماد على آراء الاقدمين الا من حيث أنها وثائق دالة ، وبذلك يكون الهدف من العملية النقدية الوصول الى حكم نقدي صحيح ما أمكن ، وبديهـــي أن يكون ذلك الحكم النقدي هدفا معرفيا من جهة ، وخطوة معرفية في الترتيب واستنتاج نتائج أخرى من جهة ثانية . فالغرض عند أحمد ضيف من تطبيق الطريقة النقدية العلمية هو :

((البحث عن روح اللغة العربية كما يقولون . وحل ما بها من الشعر والنثر حلا نفسيـــا ، والبحث عن صلة ذلك بالاجتماع ، وعن الموءثرات التي أحدثت في نفس الشاعر أو الكاتـب ميلا خاصا الى هذا النوع من البلاغة ، ثم صلة ذلك بمواهب الكاتب الفطرية ، وقيمـــة ما عنده من فنون البلاغة وضروب التعبير المختلفة ، وماله من الشخصية ، أي الابتكـــار والابداع في ذلك . وهذا يستلزم استيعاب ماكتبه الكاتب أو الشاعر بالقراءة والدرس قراءة دقيقة خالية من الميول والأهواء الشخصية بقدر الامكان .)) (1)

تهدف الدراسة النقدية العلمية في رأي أحمد ضيف الى ابراز علاقة الأدب شعرا أو نثرا بالمجتمع من خلال الكشف عن مختلف الموءثرات التي غذت المبدع أولا ، ثم عبقريته الفردية في العملية الابداعية ، اعتمادا على الدرس الدقيق ، الخالي من الميول والأهواء الشخصية . والواضح من هذه الفقرة أن أحمد ضيف يوجه الدارس الى الاهتمام بمصادر وأصول الأثر الأدبي من خلال البحث عن الموءثرات التي غذت المبدع ، ثم البحث عن العبقريـــة الفردية للمبدع ، بعد تبيان واستجلاء العوامل الموءثرة ، وبذلك يستطيع الدارس تفسيـــر الظاهرة الابداعية وعلاقتها بالمجتمع الذي أوجدها ، لنستنتج من ذلك أن الأدب تصويـــر

---

1) - د . ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 09.

للمجتمع لصدوره عنه . وهذا ما ذكره أحمد ضيف في بداية التمهيد ثم بين العملية النقدية النابعة منه .

ربط أحمد ضيف ربطا وثيقا بين المبدع وابداعه في العملية النقدية ، لا قتناعه بصدور الأدب عن المجتمع وتصويره له ، عن طريق المبدع الذي يتمثل تراث قومه ، ثم يوظفه في التعبير عن مجتمعه ، أو عن نفسه في علاقته مع المجتمع ، انطلاقا من قدراته واستعداداته الفطرية المكونة لعبقريته . ومن ثمة على الناقد أن يدرس :

أ - المبدع وحياته بتتبع الزمان والمكان والأحداث التاريخية وأثر كل ذلك في نمو شخصيته .

ب - مصادر وأصول وتأثرات المبدع ، بدراسة بيئته الثقافية ومؤثراتها القومية والأجنبية .

ج - عبقرية المبدع ، اذ بعد تحديد الأصول والمصادر والمؤثرات يبقى جزء من المبدع قد يصغر وقد يكبر ، لا أصول له ولا مراجع ، ولم يكن نتيجة تأثير أجنبي، هو عبقرية المبدع الفردية واستعداداته الفطرية التي تعطي ابداعه طابعا خاصا .

و - تأثير المبدع في المجتمع من خلال تصويره له تصويرا انتقاديا لأوضاع قائمة، أو تبشيريا بأوضاع محبذة .

وللوصول الى نتائج علمية صحيحة في العملية النقدية على الباحث أن يبتعد : (عن أهوائه وميوله عندما يقرأ كاتبا أو شاعرا يريد أن يفهمه كما هو . ولا بد أن يتخلى أيضا عن أذواقه الخاصة ، لأنّ الاستسلام الى ذوق الشخص ينافي طريقة النقد الصحيح. هذه الطريقة ، طريقة تخلي القارىء عن ذوقه الخاص ، وعن المؤثرات التي تحيط به ، تجعله يفهم الكاتب بذوق الكاتب ، ويفهم الشاعر بنفس الشاعر التي قال بها شعره ولابد من وضع القارىء نفسه في الظروف والأحوال التي أحاطت بالكاتب وقت كتابته . هذه

الطريقة هي التي تمكن القارىء أو الناقد من فهم روح الكتابة . ولا بد من أن ينسى الانسان نفسه بين صفحات الكتاب الذي يريد أن يقرأه . فاذا انتهى من تحليل الكتابة وفهمها على طريقة الكاتب نفسه ، رجع الى معلوماته الشخصية ، والى ذوقه الشخصي، والى ما اكتسبه من النقد بالتجربة والدرس في الحكم على الموء لف .)) .(1)

لاينبغي أن يكون الحكم على أثر معين حكما نابعا من وضعنا ومفاهيمنا وذوقنا الحالي، وانما على الناقد أن ينطلق في فهمه للأثر الأدبي من أوضاع الكاتب وعصره ومفاهيمه وذوقه ، حتى لا يحاسب الناس على مالا يعرفون أومالا يستسيغون . فلا يحق للناقد المعاصر أن يستهجن أشعار الجاهليين لتعصبهم القبلي أو بكائهم على الأطلال ، وانما عليه أن يحكم على تلك الأشعار منطلقا من أن العصبية القبلية هي النظام السائد ، والحامي للفرد من الضياع آنذاك . وأن البكاء على الاطلال تصوير لحياة الترحال التي كان الجاهلي يحياها ، ومن ثمة فان التصوير الدقيق ، والتعبير المبدع عن هذين الموضوعين المستهجنين الآن ، محمدة كبيرة للشاعر الجاهلي .

ولكي يدرس الناقد الأثر الأدبي بروح عصره ومفاهيمه ، وبعقلية مبدعه واحساسه ، عليه أن يتحلى بالموضوعية ، والابتعاد عن ذوقه الخاص ، وعن الموءثرات المحيطة به ، وعن الأفكار السائدة ، أي عليه بالموضوعية البعيدة عن أي حكم مسبق أو معتقد مهما كان نوعه ، وهكذا ، تتمثل الطريقة العلمية في دراسة الادب لاحمد ضيف في العناصر التالية :

1 ـ اتباع طريقة علمية ذات قواعد وقوانين خاصة بالادب ، وليست مستقاة من العلوم الاخرى .

---

1) ـ د . ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 09 ـ 10 .

2 - المزج بين الذوق والمعرفة برجوع الباحث الى ذوقه الشخصي ، وما اكتسبه من النقد بالتجربة والدرس .[1]

3- الموضوعية في الدرس بابتعاد الباحث عن أهوائه وعن الآراء السائدة ، وأحكام القدماء الا من حيث انها وثائق دالة[2] يستعين بها في اصدار أحكام .

4- البحث عن أصول ومصادر المؤلف وتأثراته المختلفة قصد تحديد الموروث في ابداعه .

5 - عبقرية المؤلف واضافاته الشخصية ، بعد الكشف عن أصوله ومصادره.

6- تأثير المبدع في المجتمع من خلال تصويره له بالكشف عن عيوبه ورسم ماينبغي أن يكون عليه .

7- ضرورة قراءة الباحث للنص المدروس بنفسه ، وعدم الاكتفاء بما ذكر في الفهارس والموسوعات والدراسات السابقة : ((اذ لا بد من قراءة الكتب نفسها والحكم عليها بناء على معرفة الشخص نفسه))[3] فان لم يفعل ذلك ، فانه سيفقد الموضوعية في الدرس وكل روح علمية، اذ سيكون عمله مجرد تكرار لأقوال وآراء وأحكام السابقين .

8 - ضرورة الاستعانة في العملية النقدية بعلوم مساعدة ، تساعد الباحث على كشف مغاليق النص : ((ومدرس الأدب يلزمه أن يطلع على أكثر ما كتب في اللغة ليقف على روحها ومؤلفيها ، وليعرف الكتاب والشعراء والفلاسفة والمشرعين وغيرهم .))[4] .

فالأدب تعبير عن المجتمع ، وللكشف عن مختلف جوانب ذلك التعبير ، على الباحث

---

1) - د . ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 10

2) - د . ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 9 - 10

3) - د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 03

4) - د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 03 .

أن يعرف مختلف جوانب ذلك المجتمع المعبر عنه ، بدراسة الكتب اللغوية و التاريخية و الفلسفية و الدينية ، وكل ما ينضوي تحت مصطلح " الأدب " بمفهومه الواسع عند أحمد ضيـف.

9ـ النزوع الى استطلاع المعرفة و التنقيب و البحث فالعقل :((ان لم يكن طلعة محبا للبحث لا ينتج ولا يدرك حقائق الأشياء.)) (1)

هذه جملة من الأسس و المبادىء ، اقترحها أحمد ضيف في تمهيد كتابه على الباحث أو الناقد ، ان عمل بها كان نقده عملا علميا جديدا .

و من الواضح أن هذه الأسس و الخطوات لا تخرج عن أسس و خطوات المنهج التاريخي ، كما حدده لانسون . الا أن منهج أحمد ضيف ، كما يتجلى من هذه الخطوات يتسم بالعمومية ، فهل اكتفى بهذه المبادىء العامة التي دعا الدارسين الى الأخذ بها أو أنه أوضح مقترحاته في بقية أقسام الكتاب ؟

---

(1) ـ د. ضيف ـ (أحمد) : المرجع السابق ، ص 04.

يحدد أحمد ضيف وظيفة الأدب في الموضوع الأول من كتاب " الكلام البليغ ودراستـــه " موضحا أن وظيفة الامتاع والتسلية قد تجاوزها الزمن ، وصارت وظيفة الأدب نفعية ، لأنه أصبح : ((صورة للأفكار والعقول وشيئا من الحياة العقلية والعلمية للأمم ، وجزءا كبيـــرا من تاريخ الانسان . ورأى بعض كبار الأدباء بأن البلاغة كالتاريخ من حيث الاستدلال بهـــا على حياة الشعوب ، غير أن التاريخ يدل على الحركة السياسية والبلاغة تدل على الحركـة العقلية والاجتماعية . أو يدل التاريخ على حياة الانسان العملية والبلاغة على حياته النفسية))(1)

ارتبط الأدب عند أحمد ضيف بالتاريخ ، فهو جزء كبير من تاريخ الانسان ، والفرق بين التاريخين الكبير والصغير أن الأول يصور الحياة السياسية أو العملية للانسان ، بينمـــا يصور الثاني الأفكار والحياة العقلية للأمم . ونظرا لهذا الارتباط الوثيق بين الأدب والتاريخ، فان دراسة الأدب لا بد أن تكون دراسة تاريخية على حد تعبير أحمد ضيف،(2) مقتديا في ذلـك بأستاذه لانسون الذي انطلق في منهجه التاريخي من الصلة العضوية بين الأدب والتاريـــخ مستنتجا أن المنهج لابد أن يكون تاريخيا .(3) وترجع صلة الأدب بالتاريخ الى وظيفتـــه التصويرية للمجتمع ، اذ يتحول تصوير المجتمع ، مع مرور الزمن ، الى شيء من التاريـــخ، ومن ثم تصبح دراسة الأدب تاريخية ، تتمثل في البحث عن علاقة المبدع بمجتمعه أخذا وعطاء، ثم علاقة الأثر الأدبي بالمجتمع ، دون اعتماد على آراء مسبقة باعتبارها حقائق ثابتة،والاعتماد في البحث على الملاحظـــة الصحيحة ، والموازنة و المقارنة ، بالاعتماد على علوم مساعدة :

((لابد أن يكون الغرض من تدريس البلاغة البحث العلمي المبني على المعلومات الصحيحـة

---

1) - د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 12

2) - د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 15 - 20

3) - Lanson(G): L'esprit scientifique et l'histoire littéraire(In Méthodes de littérature et hommes et lettres). P.28 .

للوصول الى الفهم الصحيح الخالي من التعصب القومي و الميول المذهبية (...) قال المسيو موريس كروازيه في مقدمة الجزء الأول من كتاب تاريخ الأدب اليوناني : ان جملة لخطيب أو بيت شعر لشاعر أشبه بمرآة ينعكس فيها صورة منها تدل على ماضي اللغة و التاريخ لشعب من الشعوب . و تدل على الفتى الذي وهبها هذا الشكل.)) (1)

و ذهب أحمد ضيف تصوير الأدب للمجتمع ، مستشهدا على ذلك ، برأي للأستاذ موريس كروازي أحد أعلام المنهج التاريخي الأوائل و مطبقيه ، ليؤكد ضرورة اتباع المنهج العلمي المبني على المعلومات الصحيحة ، بغية الوصول الى فهم صحيح خال من التعصب و المذهبية . و لن يحصل الباحث على معلومات صحيحة الا اذا استعان بعلوم مساعدة :

((و لأجل التمكن من الوصول الى ذلك ، لا بد للباحث في اللغة و الأدب من أن يطلع على الفنون ، و يعرف الأخلاق و النظام الاجتماعي ، لترشده الى قوة الذكاء للأمم ، و أثر الحوادث في ذلك . و لا بد من الاعتماد على المخطوطات، لأن الغرض الاولي من دراستها هو معرفة العقول التي يظهر آثارها في المؤلفات الفنية بواسطة العبارات الأصلية وضروب البيان .)) (2)

ندرك من هذا المقال أن أحمد ضيف يقترح المنهج التاريخي ، كما طبقه موريس كروازي في دراسة الأدب اليوناني ،ولانسون في التأريخ للأدب الفرنسي . فزيادة عن عناصر المنهج التاريخي السالفة الذكر ، يتحدث في المقال نفسه عن ضرورة الحرية الفكرية ، وربط الأدب بالجتمع ودراسة التاريخ العقلي والنفسي للأمم من خلال كبار العقول ، ودراسة حياة المبدعين لفهم ابداعاتهم ، والاعتماد على الملاحظة الصحيحة والموازنة والمقارنة والفهم اللفظي واللغوي ، والفهم الأدبي ، والاعتماد على المخطوطات وما يتبعها من

---

1) _ د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 18 _ 19

2) _ ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 19 .

عمليات للوصول الى العبارات الاصلية وضروب البيان ، مع الاستعانة بالفنون والاخلاق والنظام الاجتماعي ، لفهم مدى تصوير الأدب لمجتمعه .

كل هذه العناصر المنهجية ، عناصر تضمنها المنهج التاريخي ، ومن ثم يمكننا أن نقول ان أحمد ضيف دعا الى العمل بالمنهج التاريخي ، كما درسه ودرس تطبيقاته الصارمة في فرنسا ، رغم ادراكه صعوبة تطبيقه وقتذاك على الأدب العربي : ((وهذا هو أساس ما يسمونه الآن طريقة علمية ، لأنها مبنية على نوع من التحقيق العلمي الذي لا يتطرق اليه الشك . ولكن ذلك من الصعوبة بمكان في أدب العرب ، لأن الوقوف على " النسخة الاصلية " كما يقولون لايكاد يتحقق في كل المؤلفات ، ولا سيما مجموعات الشعر والنثر القديم ، غير أن ذلك لا يمنع من العمل على ذلك بقدر الاستطاعة . على أن الظاهر لنا أن معرفة المؤلفات الاصلية ، ربما لا تتحقق في الأدب العربي .)) (1)

من الممكن أن يلتزم الدارس بمبادئ المنهج ، من موضوعية ، وحياد ، وعدم الانسياق وراء القدماء ، ويتذوق الأثر الأدبي ويدرسه في علاقاته مع مبدعه ، ثم مع مجتمعه اعتمادا على العلوم المساعدة فيعرف كنهه اللغوي مكتشفا ما يعج فيه من أفكار وأحاسيس ، الا أن الصعوبة الكبرى تكمن ، في نظر أحمد ضيف ، في تحقيق النصوص لعدم توفر النسخ الاصلية لنصوص الأدب العربي القديم . وباثارة هذه الصعوبة ، يربط أحمد ضيف الدراسة الأدبية ، ومنهجه المقترح بصفاء أو نقاء النص الذى يعد، حسب اللانسونية الشرط الاساس لأية دراسة علمية ، فالحكم على أديب من خلال أثر أدبي لايكون حكما صحيحا اذا لم تكن النسبة صحيحة ، أو لم يكن النص كاملا أو لم يكن خاليا من أي تشويه كما هو من ذلك لا نسون في بنود المنهج . يبدو المنهج التاريخي ، كما اقترحه أحمد ضيف غامضا ، كما تبدو خطواته العملية غير مرتبة وغير واضحة ، وهذا أمر طبيعي ، فالمنهج عموما

---

1) ـ د . ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 20 .

أمر جديد على الطالب العربي وقتذاك . أما المنهج التاريخي فيكاد يكون بدعة بمبادئه التي تنصف الكثير مما ألفه و تعود عليه الطلاب العرب، و يحتاج من يدعو اليه الى جرأة و شجاعة لا يجرؤ عليهما أحمد ضيف ، فهو خجول يؤثر السلامة كما رأينا في ترجمته ، و لذا راح يشير اشارات خفيفة ، محتجا بأن ما يقوله و ما يكتبه موجه الى الطلاب المبتدئين (1)، ناصحا النقاد و العلماء بالرجوع الى مصادر الآراء الحديثة ، فلا يكون بذلك مسؤولا عما سيجدون في تلك المصادر الحديثة : ((أما كبار العلماء ، و أساتذة الأدب، فلا يجدون في هذه الآراء ما يشفي غلتهم ، أو يسكن حب الاستطلاع لديهم . فعليهم أن يرجعوا الى كتب الفرنجة الحديثة ، وفيها كل التفصيل لما أجملناه و أوجزناه .)) (2) و هكذا يوحي بأنه لم يقل كل ما عنده حول المنهج لأسباب تعليمية ، داعيا العلماء و الأساتذة الى الرجوع الى كتب الفرنجة الحديثة التي كانت كلها تدعو في ذلك الوقت الى المنهج التاريخي .

ثم يواصل اشاراته العلمية الجديدة ، ضمن بقية مقالات الكتاب يمكن جمعها في النقاط المنهجية التالية :

1.- مفهوم الأدب و طبيعته : ثار أحمد ضيف على مفهوم الأدب المتعارف عليه وقتذاك : ((قالوا الأدب كل ما تأدب به الانسان، يقصدون بذلك كل ما صح أن يعرف فهو من الألفاظ التي ليست لها معان محدودة .)) (3) انه مفهوم غامض لا يدل على شيء معين أو محدد لأن العرب درسوا الأدب باعتباره وسيلة لشرح الظواهر اللغوية أو الدينية ، ولم يدرسوه على أنه غاية في ذاته ، لم يدرسوه باعتباره نشاطا فنيا مثل بقية النشاطات كالرسم الموسيقى و الرقص ، ومن ثم دعا طلابه و قراءه الى هجر المفهوم المتعارف عليه وقتذاك للأدب و الأخذ بالمفهوم الجديد الذي يفرق بين " الأدب" بمعناه العام و"البلاغة" باعتبارها مصطلحا يدل على "الأدب الابداعي": ((البلاغة دراسة العقول وحالة الاجتماع

1)- د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق، ص 01.

2)- د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص 01.

3)- د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص21- 22.

فهي عبارة عن معلومات عامة، و ملاحظات للكاتب ، و تأثرات اكتسبها من الخارج،دخلت في نفسه و خرجت للناس لابسة شخصيته .

ولم تغير حركة الايجابيين (Positivstes (1)) العلمية من البلاغة الا طريقة التصور و الخيال، أما البلاغة من حيث انها فن سره في تركيب اللفظ، و وحي النفس ، فلم تتغير بحال .)) (2)

ميز أحمد ضيف بين الأدب الابداعي ، و الدرس الأدبي من حيث طبيعة كل واحد منهما أولا، و من حيث وظيفته ثانيا، مؤكدا على المفهوم الجديد للأدب الابداعي: ((البلاغة اما أن تكون عبارة عن اظهار ما يجول في نفس الانسان، من عواطف و احساسات و خيالات و غيرها، مما يدل على شخصية الكاتب أو المتكلم فحسب، واما أن تكون صورة غير صورة نفس الكاتب أو الشاعر ، أي صورة من الحياة العامة للانسان - أو جزءا من تاريخ الانسانية كما يقولون - فالأولى هي البلاغة الوجدانية و الثانية هي البلاغة الاجتماعية.)) (3)

الأدب اذن، تعبير عن المجتمع و مشاكله ، أو تعبير عن المجتمع من خلال احساسات المؤلف و مواقفه الفكرية و النفسية ، أي أن الأدب " جزء من تاريخ الانسانية كما يقولون على حد تعبير أحمد ضيف . و بتعبير "لانسون" " تاريخ الأدب جزء من تاريخ الحضارة". (4)

دون شك فان مفهوم أحمد ضيف التاريخي للأدب ، نابع من ثقافته الفرنسية المستمدة من الفلسفة الوضعية بشهادته .

أما طبيعة الأدب فتكمن في سر، النابع من قدرة الأديب على ايصال أفكاره وأحاسيسه

---

1)- استعمل أحمد ضيف مصطلح " الايجابيين" بالمعنى اللغوي المعجمي المباشر للمصطلح الفرنسي. أما المعنى الاصطلاحي الفلسفي الدال على الوضع العلمي، الذي اشتق منه مصطلح " الوضعية" فظهر متأخرا في العربية بالنسبة لأحمد ضيف.

2)- د. ضيف (أحمد): المرجع السابق ، ص 34 - 35.

3)- د. ضيف (أحمد): المرجع السابق ، ص 37 - 38 .

4)- لانسون : المنهج التاريخي ، ص 397 .

بوساطة تحكمه في اللغة ، وفي صياغته المتميزة للألفاظ ، راسما بذلك ما لا يراه غيره ،ومثيرا بتلك الصياغة في ذهن القارئ و وجدانه الأفكار و الأحاسيس التي جالت في ذهن و وجدان المبدع نفسه.

تستلزم طبيعة الأدب، بهذا التصور ، وظيفة لابد من القيام بها، تتمثل في الامتاع و الاعجاب بالصياغة و حسن التركيب من جهة ، ثم التهذيب و التوجيه و الاصلاح بما يتضمن من أفكار و أحاسيس من جهة ثانية ، أي صار للأدب وظيفتان متلازمتان: ((و الرأي الصحيح السائد هو أن الغرض من البلاغة اعجاب القارئ أو السامع ببراعة الكاتب أو المتكلم ،وإنه يطلب من البليغ أن يملأ كلامه بشيء من المعلومات الصحيحة ، وليس الشاعر مضطرا لأن يأتي بالفلسفة و الحكمة في شعره ، كما أن الغرض من التصوير هو اعجاب الناظر، و الاستيلاء على حواسه الظاهرة . بما في الصورة من الابداع و الاتقان (...) و الأدباء العصريون الآن يرون أن البلاغة فن من الفنون الجميلة مثل التصوير و الموسيقى، الغرض منها تهذيب النفس و ترقيق العواطف ، و تقوية الملاحظة .))(1)

لا يختلف مفهوم الأدب عند أحمد ضيف ، عن مفهومه عند لانسون ، فهو عند كليهما تعبير عن المجتمع ، أو عن الأديب الذي يصدر في أفكاره و أحاسيسه عن المجتمع، قصد امتاع القارئ و اثارة احساسه و انفعالاته و خياله بفضل خصائص الصياغة و الأسلوب، ثم ترقية ذوقه و توجيه احساساته و أفكاره بفضل الصور الفكرية أو العاطفية المقدمة اليه بصياغة جميلة أو أسلوب مميز ، و من ثم نستطيع القول ان مفهوم الأدب عند أحمد ضيف طبيعة و وظيفة مفهوم لانسوني .(2)

2 ـ تاريخ الأدب و وظيفته : ترجع صلة الأدب الوثيقة بالتاريخ الى ارتباط الأدب بالمجتمع صدورا و انعكاسا، لأن الأدب جزء من النشاط الانساني ، و بالتالي فهو جزء من

---

1) ـ د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص 32.

2) ـ لانسون : المرجع السابق : ص 395 ـ 399 .

من التاريخ الانساني .

و من هنا نستطيع القول ان المنهج التاريخي نابع من طبيعة الأدب التاريخية ، فهو يشمل عمليات بحث عديدة تكشف مختلف جوانب الأثر الأدبي و تضعه موضعه من التسلسل الفكري و الفني مستعينا لأجل ذلك ، بعلوم و فنون مساعدة . و من ثم يتضح لنا أن تاريخ الأدب أشمل و أوسع من النقد الأدبي . فالنقد يدرس الأثر الأدبي ذاته . أما تاريخ الأدب فيضيف الى ذلك دراسة الأدب في علاقاته المختلفة . و هذه الرؤية التاريخية للأدب هي التي دفعت أحمد ضيف الى القول ان :((تاريخ البلاغة هو البحث في مجموعما تنتجه قرائح الأمة من علوم و فنون . أو هو مجموع الحركة الفكرية في الأمة (...) وعلى كل حال فتاريخ البلاغة بالطريقة المعروفة الآن ، لا يوجد في كتب العرب بهذا التسلسل ، كما هو عندالأوروبيين.))(1)

لم يحدد أحمد ضيف ، تاريخ الأدب ، في الأدب الابداعي ، وانما وسعه ليشمل " مجموع الحركة الفكرية في الأمة" ، وهذا لارتباط الأدب الابداعي بالمجتمع ،أي لارتباطه ببقية النشاطات الفكرية التي تؤثر فيه من جهة ، وتكشف العديد من جوانبه من جهة أخرى. ولا يتضح تاريخ الأدب عنده و منهجه الا عندما يستعين برأي أستاذه "لانسون" في تحديدو توضيح ذلك:((و ظن جماعة من الأدباء أيضا أنه يكفي الاطلاع على تاريخ البلاغة و تصفحه ،ليقف الانسان وقفة اجمالية على سير الحركة الفكرية ، وليكتفي بذلك من عناء قراءة كل كاتب أو شاعر أو مؤلف . ومن بين هؤلاء رنان (*Renan*) (...) ورد عليه في ذلك الأستاذلنسون (*Lanson*) في مقدمة كتابه تاريخ البلاغة الفرنسية ، و قال ان ذلك معنى سلبي للبلاغة لأنه يجعلها أشبه بتاريخ للأفكار أو الأخلاق ... قال : "و لا مناص من الرجوع الى المؤلفات نفسها ، لا الى الملخصات و المختصرات ، اذ لا يكفي معرفة فن التصويربقراءة تاريخية ، بدون أن ينظر الانسان الى الصور نفسها . و البلاغة كالفنون لا يمكن التفرقة

---

1) - د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ، ص 30 - 31 .

بينها وبين شخصية الكاتب . اذ أنها تحتوي على معان ودقائق تتجدد كلما أنعم الانسان النظر فيها . كما أن القصيدة الواحدة كلما قرأها القارىء تأثرت نفسه بأثر جديد ، وفهم منها شيئا جديدا ، بل هي عبارة عن تمرين فكري ، ونوع من ترقية الذوق ، وضرب من السرور ، وقال الأستاذ لانسون (Lanson) : "والبلاغة لا تتعلم ولا تحفظ ، ولكن يتعهدها الانسان بالتنمية ، ويميل اليها ويحبها ،"[2] فمن خواصها أنها توجد للنفس لذة عقلية وسرورا نفسيا ، وذلك يساعد على تربية الذوق واستعداد الفكر لقبول الجمال ، كما أنها وسيلة من وسائل تربية النفس تربية فنية .))[3]

لقد اعتقد نقاد كبار خطأ أن تاريخ الأدب هو البديل عن قراءة العديد من النصوص الأدبية ، بتقديمه لخلاصات وأفكار وآراء ، الا أن هذا المعتقد مناقض لروح المنهج التاريخي الذي يهدف الى تدريب ذوق القارىء وترقيته ، بتبصيره بمختلف زوايا الغموض في الأثر الأدبي ، جامعا من أجل ذلك ، مابين الذوق والمعرفة ، لامتاع القارىء وتعليمه تطوره وتقدمه من جراء ذلك .اعتمد أحمد ضيف في تبيان ضرورة قراءة النصوص الأدبية ، وعدم الاكتفاء بملخصاتها ، والاعتماد في ذلك على الذوق والمعرفة على آراء لانسون ، المبثوثة في مقدمة كتابه " تاريخ الأدب الفرنسي " ففهم الأدب وتاريخه فهما لانسونيا ، ودعا طلابه الى تبنيه ، لاقتناعه أن تطور الأدب العربي مرتبط بتحرره من المفاهيم الأدبية السائدة آنذاك عند العرب ، مقدما المفهوم اللانسوني بديلا .

3- مفهوم النقد : سبق القول أن النقد مرتبط بتاريخ الأدب ، فهما متكاملان، حيث يدرس النقد الأدبي ويحكم عليه ، ثم يأتي تاريخ الأدب ليضعه موضعه بالنسبة للمبدع أولا ،

---

1)- Lanson(G) : Histoire de la litterature française. hachette Edition43. P.IX

2)- Lanson(G) : Idem . P.IX

3) - د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 33 - 34

ثم الأدب القومي ثانيا ، اعتمادا على عدة مهارات ومعارف حددها " لا نسون " وتبعها أحمد ضيف ، الذي يشرح النقد مستعرضا أهم صوره عند الفرنسيين والعرب . فالنقد لديه يتمثل في : ((القراءة والفهم والتفسير والحكم ، هي أصول النقد وهي حده أيضا . اذ لا يمكن حد النقد حدا تاما ، لعدم اندماجه في قانون عام ، لانه ليس علما من العلوم التي لها قواعد خاصة ، وانما هو فن من الفنون التي تضبط بالعلوم وتتقدم بتقدمها ، فانه مبني على قوة الذكاء وسلامة الذوق : وذلك ليس داخلا تحت قانون عام ، فضلا عن أنه لابد من ظهور أثر الناقد الشخصي في حكمه على ما يقرأ ، لانه انما يحكم على غيره بمزاجه الخاص. ولذلك كانت الفروق كثيرة بين آراء النقاد . لانّ النقد صورة من صور عقولهم المختلفة .))(1)

يتمثل النقد اذن ، عند أحمد ضيف ، في جملة من الفعاليات الذوقية ثم الذهنية ، تبدأ بقراءة الاثر الادبي وتذوقه ، ثم فهمه بالاستعانة بعدة علوم وفنون ومعارف ، وتحليله بناء على المعلومات الدالة حول المبدع والمجتمع ، للانتهاء باصدار حكم نقدي على الاثر الأدبي ، حكما يكون بعيدا عن التعصب والهوى . وبديهي أن هذا المفهوم جزء من عناصر المنهج التاريخي ، لاعتماده على عنصري " الذوق" و " المعرفة " وهما أساس المنهج التاريخي في دراسة الادب . فالذوق هو الوسيلة للنفاذ الى جمال الاثر الادبي، والمعرفة هي الحبل الذي يربطه بالبيئة والمجتمع والتاريخ ، أي الحبل الذي يربطه بالعلم . وهكذا فالنقد عنده يتمثل في الجمع بين " الذوق" و " المعرفة " بعيدا عن أي تعصب أو نزعة مذهبية شأنه في ذلك شأن " لا نسون " الذي جمع هو الاخر مابين " الذوق " و" المعرفة " نابذا كل تعصب أو نقد مذهبي . فمثلما رفض "لانسون " النقد المذهبي ، متمثلا في نظرية " تين " ثم نظرية " برونتيير " ، رفضه أحمد ضيف : ((ولو أردنا أن نشرح مذهب تين بتفصيل أوسع لطال بنا البحث ، وربما عاد علينا ذلك بالملل ، لانّ الرجل غير معروف عندنا ، ولاننا

---

1) _ د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 90 .

لم تتعود اندماج الأدب في الفلسفة ، ولأن مذهبه مذهب علمي جاف لايسوغ لنا قبوله .)) (1)

كما رفض مذهب " برونتيير " بعد استعراضه لانه يصبو الى جعل النقد علما من العلوم بينما الأدب فن ، ومن ثم فان نظرية " برونتيير " لم تتحقق بعد ، ولن تتحقق . (2)

ومثلما رفض لانسون المنهج التأثري الصرف ، رفضه أحمد ضيف بعد تقديمه للقارىء وشرح أسسه وأهدافه وغنياته : ((ولكن هذا المذهب ليس له طريقة خاصة تتعلم ، بل هو مذهب شائع بين القراء . فكل انسان يمكنه أن يشعر ويتأثر بما يقرأ (...) مهما أنكر مذهب التأثير والانفعال القواعد والقوانين العامة للنقد الأدبي ، فلا يمكن انكار أن هناك جهة عامة تتفق فيها جميع الأذواق : هذه الجهة في رأينا هي ما يوجد في الفنون من المعاني الانسانية العامة .)) (3)

لقد رفض المنهج التأثري في دراسة الأدب ، لاقتناعه بأن النقد أو الدرس الأدبي ذوق وفكر ، أي تمتع وتعلم ، ومن ثم أنكر على المنهج التأثري ما أنكره عليه لانسون . (4) وهكذا انتقد أحمد ضيف النقد العلمي كما تجلى عند تين وبرونتيير ، كما انتقد النقد التأثري كما تجلى عند جول لومتر ، مقترحا الجمع مابين الذوق والمعرفة . يلاحظ دارس كتاب أحمد ضيف " مقدمة لدراسة بلاغة العرب " أنه استهل حياته العلمية بثورة مهذبة على مناهج دراسة الأدب العربي وتدريسه آنذاك . فقد لاحظ أن مفهوم الأدب عند العرب عام جدا لدرجة الغموض ، وأن مناهج دراسته وتدريسه لاتحفل الا بالجانب الشكلي اللفظي . بينما الأدب تصوير للحياة العقلية ، فهو تعبير مباشر عن المجتمع أو غير مباشر عن طريق تصوير آلام وأفراح المبدع ، وبالتالي يكون تصويرا للمجتمع .

---

1) ـ د. ضيف (أحمد) . المرجع السابق ص 123

2) ـ د. ضيف(أحمد) : المرجع السابق ص 148 ـ 149

3) ـ د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 155 ـ 156

4) ـ لانسون : المرجع السابق ص 402 ـ 405

نتج عن ارتباط الأدب بالمجتمع في ذهن أحمد ضيف ، أن عد الأدب وتاريخه جزءا من تاريخ العقول البشرية ، أي عده جزءا من التاريخ العام ، ومن ثم ، فالمنهج الملائم لدراسة هذا الجزء من التاريخ العام هو المنهج التاريخي الذي يتمثل في الجمع ما بين الذوق من جهة والمعرفة من جهة أخرى ، على النقيض من ذلك المناهج النقدية التي تعصبت للعلم وحده أو الذوق بمفرده ، فيرفض من ثم النقد العلمي البحت والنقد التأثري الصرف داعيا الى اعتماد القواعد والقوانين العلمية النابعة من الادب نفسه ، مع الذوق الرفيع والمدرب ، بعيدا عن كل تعصب قومي أو ديني أو مذهبي ، ثم الاعتماد على علوم وفنون كالمخطوطات والتاريخ والفلسفة لفهم النص الأدبي بعد قراءته وتذوقه وفهم لغته ومضمونه كل هذه الأسس المنهجية ، والخطوات العملية ، والآراء النقدية ، لا تخرج عن المنهج التاريخي ، الذي تعلمه أحمد ضيف من أساتذيه لانسون وكروازي .

لقد أعجب بالمنهج التاريخي أسسا وقواعد وخطوات ، ودعا طلابه لاتباعه في دراستهم للأدب العربي ، فهو الكفيل بتطوير الدرس الأدبي ، مثلما تطور درس الأدب عند الأوروبيين .

والملاحظ أنه لم يكن دقيقا وواضحا في تقديم المنهج تقديما منهجيا ، حيث جاءت دعوته مبعثرة بين ثنايا الكتاب . ومرد ذلك في رأينا ميله الى التدرج في نقل الأفكار النقدية الجديدة تماشيا مع شخصيته الهادئة المتجنبة لمختلف مظاهر الصراع ، ثم ادراك بأن الواقع العلمي المصري غير مؤهل لتقبل المنهج التاريخي بحذافيره ، لأن ذلك قد يقلب الكثير من الحقائق والمفاهيم مثيرا زوابع نقدية ، هو في غنى عنها ، ثم لأن الظروف العلمية من نصوص محققة وغيرها ما كانت ملائمة بعد ، وأخيرا قد يكون لمستوى استيعابه للمنهج دور في ذلك أيضا .

وعموما ، فانه أول من ثار على مناهج دراسة الأدب العربي وتدريسه ، واقترح

بديلا عن ذلك ، يتمثل في الاقتداء بالأوروبيين ، وتطبيق المنهج الجامع مابين الـــذوق والمعرفة بعيدا عن أي تعصب علمي أو مذهبي أو ذوقي ، والاستعانة بالعلوم المساعـد للوصول ما أمكن الى الحقيقة الصحيحة ، فكان بذلك أول لانسوني عربي من حيث الصلـة والدعـوة .

الفصل الثالث :

أحمد ضيف

وتطبيقه للمنهج التاريخي

درس أحمد ضيف في جامعة السوربون خلال سيادة المنهج التاريخي ، فتتلمذ على موريس كروازي ولانسون ، وأعد رسالة لنيل دكتوراه الجامعة باشراف الأستاذ(م ٠ ج ٠ رينييي M.G. Reynier) أحد أتباع لانسون ، ولذلك أعجب باللانسونية منهجا للبحث، فدعا طلابه - بعد عودته - الى ترك الطرق المتبعة في دراسة الأدب العربي وتدريسه آنذاك ، مقترحا عليهم المنهج العلمي الذي طبقه الغربيون في دراسة آدابهم أمثال كروازي ولانسون ، كما هو مبين في الفصل السابق ، وبذلك كان أول دعاة اللانسونية في النقد العربي الحديث. لقد كان واضحا في مهاجمة طرق دراسة الأدب العربي وتدريسه ، لادراكه أن تلك الطرق لا تحفل الا باللفظ ، لاعتبارها الأدب مجرد متعة ، بينما الأدب متعة ومعرفة عند الأمم المتطورة . وللوصول الى النتيجة نفسها لابد من اتباع مناهجهم التي يعد المنهج التاريخي خلاصتها . فهل اتبع أحمد ضيف منهجه المفضل في كتابيه التطبيقيين ؟ ذلك ماسنحاول الاجابة عنه في الصفحات التالية من خلال دراستنا لكتابيه :

- بحث في الغنائية والنقد الأدبي عند العرب (1)
- بلاغة العرب في الأندلس .

---

(1) - نشر هذا البحث لأول وآخر مرة بفرنسا سنة 1917 م ، أما المناقشة فتمت في شهر جانفي من سنة 1918 م .

Deifl Ahmedl: Essais de lyrisme et de critique litteraire chez les arabes. Jouve& cie editeurs . Paris 1917 .

قد يتساءل قارىء كتاب "بحث في الغنائية والنقد الأدبي عند العرب " عن موضوعه المركب من موضوعين قابلين للانفصال درسهما أحمد ضيف في بحث واحد ، الا أن أحمد ضيف أجاب عند ذلك في المقدمة شارحا اشكالية هذا العنوان المركب من موضوعين ، قد يتبادر الى الاذهان انفصالهما عن بعضهما ، ولكن الملاحظة الدقيقة المتأنية تبين غير ذلك .

فالشعر العربي غنائي من حيث طبيعته ، لم يعرف شكله تغيرا يذكر منذ أقدم عهوده حتى الآن ، ولم تعرف مضامينه تطوراتجذرية ، ومن ثم فان الثبات سمة الشعر العربي الأساسية ونجد سمة الثبات هذه لصيقة النقد العربي ، لأنه نقد تقريريثابت لثبات الشعر العربي . ان الثبات سمة أساسية في الشعر العربي وغنائيته في النقد العربي وتقريريته في التصوف ووحدانيته . انه ثبات نابع من ثبات وسكون البيئة الصحراوية العربية بسعتها وجدبها ، فهيلا تقدم لساكنها سوى روءية حسية بسيطة ، أو روءية تأملية مجردة تجرد الصحراء ، روءية مطلقة لا يحدها حد فلا تدفع صاحبها للتصور أو التخيل ، فكل شيء مبسوط أمامها . (1)

سعى البحث وصاحبه اذن الى الكشف عن أصول وأسباب هذا الثبات الذى وسم الشعر والنقد العربيين ، وأعاقهما عن التطور والنمو ، مثل بقية آداب العالم . ويكمن أفضل سبيل للوصول الى ذلك في : ((دراسة الشعر الغنائي والنقد العربي في توازنهما كما سيتضح من محاولتنا . وتتبع أدق خصائص الأدب العربي في نهاية الأمر ، من طابعه الأساس المستوحى من الصحراء التي لا تستطيع تزويد التأمل العربي الا بما تملك : الجلال والنبل من جهة ، والفقر والقحط جهة أخرى . وذلك هو عمق الاحساس الذى سيغذي الشعر العربي البدائي . وستمكننا دراسة دقيقة لهذا الالهام الشعري الأساس من فهم موقف النقد ازاءه ، ذلك النقد الذي صار نقدا تقريريا منذ بدايته لتشبعه بالمبادىء لا غير .)) (2) لقد بنى

1)- Deifl Ahmed): *Essais sur le lyrisme et la critique litteraire chez les arabes* . PP. 1-8

2)-Deifl Ahmed): *Idem*. PP. 7-8 .

أحمد ضيف اشكالية بحثه على خصائص البيئة الصحراوية العربية وأثرها في الشعر العربي الذي اتسم بالثبات في غنائيته ، موءثرا بذلك على النقد العربي الذى اتسم هو الآخر بثبات تقريريته تماشيامع ثبات الشعر . ومن ثم جعل محور بحثه السعي الى استجلاء أصول ذلك الثبات وأسسه ونتائجه في الشعر والنقد العربيين ، لا نطلاقه في كل ذلك من موقف نقدي يعد من أسس المنهج التاريخي ويتمثل في ارتباط الأدب بالمجتمع ، يصدر عنه ثم يصوره . فجعل الشعر العربي يصدر عن البيئة العربية الصحراوية الثابتة بجلالها ونبلها وفقرها وقحطها ، ثم يصورها فيكون بذلك قد صدر عن ثبات ليصور الثبات ، ويكون النقد العربي قد فعل الشيء نفسه لا رتباطه بذلك الشعر الصادر من الثبات والمصور له . هكذا يمكننا القول أن تشبع أحمد ضيف بالمنهج التاريخي كان السبب الاساس في توجيه بحثه هذا ، الوجهة المنهجية هذه .

يدرس في الباب الأول من البحث غنائية الشعر العربي النابعة من مخزون عاطفي والهام عارم ، غير أن صدور ذلك المخزون العاطفي ، والالهام العارم عن بيئة صحراوية فقيرة مجدبة طبعهما بقلة التنوع في الاصل وخلال التطور وفي الهدف ، لينعكس كل ذلك في أجناس الشعر العربي في كل تجلياتها . (1)

تنبع غنائية الشعر العربي اذن من المخزون العاطفي والالهام العارم للانسان العربي العاطفي جدا ، شأنه في ذلك شأن كل الساميين ، (2) فهو لا يستطيع كبح جماح عواطفه وانفعالاته واحساساته ، فلا يتعدى شعره ، بناء على ذلك ، التعبير عن احساس شخصي أو حالة نفسية للشاعر نفسه ، أي التعبير عن انفعال ، وعادة ما يكون الانفعال حبا أو كرها ، فتغنى الشاعر العربي لذلك بانفعالات الحب في الغزل والنسيب والخمريات والرثاء والوصف ، كما تغنى بانفعالات الكراهية في الهجاء والفخر ، ولذلك لم تتعد قصائده المائة بيت

---

1)- Deifi Ahmed; : Idem. P.9

2)- Deifi Ahmed : Idem. PP. 11 et 181.

في الكثير من الاحيـــان .

اعتمد في رأيه هذا على نظرية الجنس في الابداع ، كما تبلورت عند الناقد الفرنسي رينان Renan ، حيث يرى أن الجنس السامي عاطفي لا يستطيع التحكم في أحاسيسه ، ويفتقر الى التفكير المنطقي وسعـة الخيال . ومعروف الآن أن نظرية رينان في تفسير الابداع تفسيرا عرقيا وذلك بتقسيم البشرية الى ساميين وحاميين وآريين، لا تسندها حقائق علمية ثابتة ، كما أن اختلاط البشرية عبر العصور طمس الصفاء العرقي ان وجد ، لدرجة أن الابداع قد يظهر عند فرد من أسرة ، لم تعرف الابداع قط، وقد يظهر فرد لاعلاقة له بالابداع في أسرة مبدعة . فالابداع معادلة صعبة مكونة من عناصر عديدة ومتداخلة كالوراثة والظروف الاسرية والظروف الاجتماعية العامة والزمان والمكان والصدفة في بعض الاحيان .[1]

لقد كانت نظرية رينان العلمية ، بغض النظر عن قيمتها وموقفنا منها ، كانت من منطلقات أحمد ضيف في اثبات أصل أو نشأة الغنائية في الشعر العربي ، فلم تكن مذهبا فنيا أو اختيارا حرا ، وانما كانت حتمية بيولوجية ، زادتها نموا وازدهارا البيئة الصحراوية بسعتها ورتابتها و تشابه مناظرها . فهي مصدر الهام الشاعر العربي العاطفي الانفعالي ، لا تقدم له سوى صور مادية محسوسة ثابتة لا تغيير فيها ولا تجديد ، فجاء شعره متواتر الايقاع رتيبا ، متشابه الأغراض والموضوعات ، فلا تغيير ولا تجديد في الصور فمن من سيأتي بذلك ؟ !.

لقد جعلت الصحراء العربي انسانا متأملا أكثر منه مفكرا ، فالتحم بها وصدر عنها في أحاسيسه وصوره ، فجاء شعره صادرا ومعبرا عنها .[2] كانت الصحراء بسعتها ورتابتها

1/- Deif(Ahmed): Idem. p.11 .

2/- Deif(Ahmed) :Idem. P.P.21-22 .

السبب الثاني في تطور غنائية الشعر العربي ، وفي الحفاظ على هذه الغنائية بانغلاق نطاقها أمام العربي وعزله عن الثقافات الاخرى ، فراح يتوهم أن أفضل عالم عالمه ، وأفضل شعر شعره ، ولم يكترث لايّ فكر أجنبي ، (1) ومن ثم لم يتعد مضمون القصيدة العربية حياة المظاهر البدوية من الوقوف على الاطلال ووصف الناقة والتغزل ، فالوصف والمدح وغير ذلك من الأغراض الشعرية التي تمثل حياة العربي اليومية ، فصار مضمون القصيدة متشابها عند الشعراء ، كما صار شكلها متشابها أيضا ، وصارت المعلقات النموذج الشعري المحتذى شكلا ومضمونا . (2) اقتنع العرب بأن المعلقات هي النموذج الشعري الأمثل ، فأغراضها تصور حياتهم اليومية في مختلف مظاهرها ، وبناؤها يسهل حفظها وترديدها ويتلاءم في رتابته وتكراره مع رتابة الحياة العربية وتكرارها ، ولذلك راح الشعراء يصبون انفعالاتهم وأحاسيسهم في ذلك القالب الشعري الثابت ولم يحاولوا الخروج عليه ، فانسدت أمامهم أبواب التجديد في الموضوعات وفي البناء ، وراحوا يغالون في الصور البلاغية هروبا من الرتابة والتكرار ، ويتألقون في تعابيرهم وألفاظهم ، مفضلين بذلك اللفظ على المعنى ، لا رتباط سبل التجديد والتطور عندهم باللفظ . أما المعنى ، فمشترك ومتفق عليه لاشتراك العرب في حياة يومية ذات نمط واحد عندهم . (3)

حجبت الصحراء الافكار الأجنبية عن العرب ، فانشغلوا بتفتيق لغتهم حتى أخذوا بها ، وصار التعبير اللغوي هدفا في حد ذاته ، وتحولت الصحراء بذلك من مصدر للالهام الحي الى منبع القيود والحدود العائقة لايّ تطور في الشعر العربي ، (4) فطبعت ساكنها بطابع المحافظة والتمسك بالعادات والتقاليد والموروثات ، خوفا من الجديد الذي يهدد ذهنه ،

---

1)- Deifl Ahmed): Idem. P. P. 26-27.

2)- Deifl Ahmed): Idem. P. P. 46-47 .

3)- Deifl Ahmed): Idem. P. P. 48-49.

4)- Deifl Ahmed): Idem. P. 53.

ومن ثم تشبع العربي بتقديس القديم وتقليده ، مقيما لنفسه جدارا أمام التجديد والتطور العقلي مكتفيا بالتجديد اللغوي (1) .

وجد الشاعر العربي نفسه مكبلا بقيود أصله السامي وبيئته الصحراوية في ابداعه الشعري، فاضطر الى التزام مضامين وأشكال شعرية متفق عليها للتعبير عن انفعالاته نحو عالمه المغلق، فلم يجد لنفسه متنفسا سوى التألف اللفظي .

عندما جاء الاسلام ، ازدادت قيود الشاعر العربي ، حيث فرض عليه النمط الاجتماعي الجديد علاقات اجتماعية جديدة ذات مبادىء وقيم تحتم عليه التخلي عن العديد من الاغراض الشعرية المرتبطة بمبادىء وقيم هجرت لاعتبارات دينية أخلاقية ، فتقلصت المضامين الشعرية ، ثم اكتسبت اللغة قداسة لا رتباطها بالقرآن الكريم وثبتت معانيها بثبات النص المقدس ، فسدت كل المنافذ أمام الشعر العربي المقهور (2) . ان هذه الظروف التي مربها الشعر العربي تمثل في رأي أحمد ضيف الحواجز التي أعاقته ومنعته من التطور خارج غنائيته مكونة العامل الثالث في غنائية الشعر العربي .

ترجع غنائية الشعر العربي اذن ، عند أحمد ضيف ، الى ثلاثة عوامل موضوعية وجهت الشعر العربي هذه الوجهة (3) : أولها الاصل السامي للانسان العربي اعتمادا على نظرية رينان في تفسير الابداع تفسيرا عرقيا . وثانيها البيئة العربية الصحراوية الثابتة الجرداء وتفاعلها مع العنصر السامي ، انطلاقا من نظرية " تين " المتمثلة في " العرق والبيئة والزمان" حيث تفاعل العنصر السامي مع البيئة الصحراوية الجرداء . أما الزمن ، فتطور من الحياة الجاهلية المغلقة بفعل العرق والبيئة الى الحياة الاسلامية التي زادت الشعر العربي

---

1)- *Deifl Ahmed): Idem. P.P. 53-54* .

2)- *Deifl Ahmed): Idem. p. p.60-61* .

3)- *Renan: Histoire des langues sémitiques* .

انغلاقا ، بنمط الحياة الاجتماعية الجديد المتزمت ، وارتباط اللغة بالنص القرآني ، حسبما جاء في كتاب " روني باسي Basset René (1) من تحليل لتطور الشعر العربي وغنائيته ، ثم جموده بفعل القيود الدينية واللغوية التي قيده بها الاسلام (2) وهو العامل الثالث في غنائية الشعر العربي وثباته .

وهكذا فسر غنائية الشعر العربي اعتماداً على العوامل السالفة الذكر، من منطلق منهجي ، يتمثل في ربط الظاهرة الأدبية بمجتمعها صدورا وتصويرا ، معتمدا في ذلك كتاب " روني باسي " من حيث تحليله وتتبعه لتطور الشعر العربي ، وكتاب لانسون " تاريخ الأدب الفرنسي " في مقارنته لظواهر سلبية أو ايجابية من الشعر العربي بالشعر الفرنسي . (3) لقد درس في الباب الثاني النقد الأدبي عند العرب ، مستهلا بحثه باستعرض (4) نشأة النقد الفرنسي وتطوره معتمدا في ذلك على كتاب " تاريخ الأدب الفرنسي " للانسون مستخلصا من ذلك أن النقد الأدبي عرف مكانة مرموقة ضمن الآداب الغربية بصفة عامة والأدب الفرنسي بصفة خاصة لدوره الرئيس في تطور تلك الآداب وتوجيهها توجيها علميا :

((النقد حكم على أثر . حكم مبني على مبدإ ما . ولولا خشية التحذلق لقلنا : حكم ذو معيار . ومن الممكن أن يكون هذا المعيار متعدد الأنواع ، فيتعدد التمييز ما بين الصالح والطالح ، الجمال والقبح . ومن ثمة يمكن وجود أنواع عديدة من النقد ، بمعايير مختلفة ، الا أنها تلتقي جميعا في التفكير بأن يكون الحكم على الأثر الأدبي مبنيا على أسس .)) (5)

---

1)-Basset(René): La poésie Arabe Anté-islamique. Ernest leroux editeurs . Paris 1980 .

2)-Basset(R): Idem. P.P. 41-51.

3)-Deif(Ahmed): Idem. P.P. 49-50.

4)-Deif(Ahmed): Idem. P.P.65,66.67 , ...etc.

5)-Deif(Ahmed): Idem. P. 68.

لم يظهر النقد الأدبي في الآداب الأوروبية بهذا المفهوم ، وانما مر بعدة مراحـــــل من التطور ، بعد ظهور تراكم أدبي مكن النقاد الأوائل من استخلاص الأسس والقواعد النقدية. وعلى هذا الأساس ، لم يظهر النقد الفرنسي الا ابتداء من القرن السادس عشر ، أي بعدمـا تجمع تراث أدبي فرنسي أفرز قضية الصراع مابين " الجديد " الفرنسي و " القديم " اليوناني اللاتينـــي .

نشأ النقد الفرنسي مع قضية الصراع بين "القديم " المتشبث بالتراث اليونانـــي واللاتيني ومعاييرهما الجمالية المطلقة والخالدة ، و " الجديد " الداعي الى الاقتداء بالآداب الحديثةونتداك مثل الأدب الايطالي محاولا تسفيه آراء أنصار القديم ، ضمن جماعة " الترب " كما بين ذلك لانسون في كتابه " تاريخ الأدب الفرنسي " .[1]وشيئا فشيئا ، تطور :((النقد الفرنسي حتى عرف وجود الجديد في القرن التاسع عشر ، كما سلف القول ، بمساعـــدة التاريخ .)) [2] فأصبح النص الأدبي يفهم من خلال الوسط الاجتماعي والعصر الذي ظهر فيـــه . تتبع أحمد ضيف تطور النقد الفرنسي مذكان نقدا اجماليا همه الأساس التراكيب اللغويـــة السليمة أو الصور البلاغة الجميلة ، أو المضمون الديني ، أو العبرة الأخلاقية ، حســـب ذوق المرحلة ، حتى صار نقدا تاريخيا يربط النص الأدبي بالبيئة التي ظهر فيها متغذيا منها ومصورا لها ، ثم بالزمان الذي ظهر فيه وعما اعتوره من أحداث . وبذلك ربط الأثـر الأدبي - من منطلق نقدي - بماسبقه من تراث وأصول ، وما سينتج عنه من التأثير في الآداب الأخرى ، كل ذلك قصد ترتيب الآثار الأدبية وترتيب الأدباء ، فالأثر الأدبي لا يفهم بمعـزل عن مبدعه . [3] وهكذا تخلص الى أن ذروة النقد الأدبي عند أحمد ضيف تكمن في النقـــد

1)- Deifi Ahmed): Idem. P. P. 63-67. et Lanson(G): histoire de la littérature française. P. P. 275-336.

2)- Deifi Ahmed): Idem. P. 69.

3)- Deifi Ahmed): Idem. P. P. 70-71.

التاريخي كما عرفه الـفرنسيون ، وكما قرأه في كتاب لانســون .

بعد استعراض نشأة النقد الفرنسي وتطوره ، واستخلاص مفهوم النقد الأدبي من خلال ذلك ، انتقل الى استعراض النقد العربي ومقارنته بالنقد الفرنسي حيث لاحظ منذ الوهلة الأولى اختلاف نشأة النقد العربي عن الفرنسي[1]، فهو لا يرجع الى تراث أدبي قديـــم ، كالتراث اليوناني أو اللاتيني بالنسبة للنقد الفرنسي ، ولم يعرف التأثر بآداب أجنبيـــة معاصرة له . فارتبطت نشأته بنشأة الشعر العـربي نفسه ، فكان اما استحسانا وامـا استقباحا، اما مدحا واما ذما ، شأنه في ذلك شأن الشعر العربي الذي كان اما مدحا واما هجاء كما سلف القــول .

لم يكن النقد العربي وليد عمل فكري متعمد ، وانما كان وليد انفعالات واحساسات ذوقية أو خلقية لا تخضع لنزعة أو شروط موضوعية تتحكم فيها أو تحد من تطرفها ، فكـــان تبعا لذلك مجرد أحكام لا تستند على أي بحث أو مقاييس . فلما اعتمدت المعلقات نمــاذج شعرية مثلى ، تحولت غنائية الشعر العربي الى تلاعب رائع بالكلمات ، فاكتسب النقـــد بذلك مقاييس نقدية - تتمثل في الالتزام بالنموذج الشعري الأمثل ومحاكاته - حولتــــه الى نقد تقريري همه الوحيد البحث في أي نص شعري عن مدى مشابهته للنموذج الشعـــري الأمثل ، أي المعلقة .[2] وبناء على هذه الفروق في النشأة والتطور مابين النقدين العربـــي والفرنسي،أقام أحمد ضيف مقارنة ، ليستنتج بعدها،أفضلية النقد الفرنسي ، فهو نقد حي ، نام،له آفاق متفتحة على الآداب القديمة والحديثة . أما النقد العربي ، فهو ابن بيئتـــه الأدبية ، آفاقه الفكرية والجمالية محدودة ، لم يعرف أي تأثر ، ومن ثمة فهو نقد ثابـــت منذ نشأته ، عاجز عن التطور بعجزه عن تطوير الأدب العربي المكبل بالعوامل الثلاثـــة[3]

---

1)- Deif(Ahmed):Idem. P.P.71-72.

2)- Deif(Ahmed):Idem. P.73.

3)- Deif(Ahmed):Idem. P.P. 75-76.

السالفة الذكر :((تتلخص مختلف أسباب هذا العجز ، السالفة الذكر ، في عاملين : غياب تام للتأثير الأجنبي ، وخضوع النقد الى تقاليد دينية أو أدبية سابقة له))(1) ومكبلة له جعلته نقدا تقريريا منذ نشأته .

عرف النقد العربي القديم ، خلال تطوره ، مرحلتين أساسيتين : الأولى مرحلة النص القرآني التي كان من الممكن أن تطوره ، الا أن نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين سد مرة أخرى مناقذ التطور أمام النقد . فالنص القرآني مقدس ومعجز ، ومن ثم تركزت جهود النقاد والدارسين والشارحين في فهم هذا النص فهما دقيقا بكشف أسراره اللغوية، فنشأ بذلك علم النحو والمعاجم ، ثم الكشف عن بعض أوجه اعجازه فنشأ علم البلاغة والمعاني.

لم توءد دراسة القرآن الكريم الى تفتح على الآداب الأجنبية ، فهو بلسان عربي مبين ، بهر العرب بلغتهم ، فما الدافع اذن الى الانتقال منه الى آداب أجنبية مادامت الصلة بينه وبينهاضعيفة جدا لاتتعدى اشارات قصصية تمثل تراث المنطقة المشترك أو ألفاظا أخضعت لقوالب اللغة العربية . كما لم توءد دراسته الى دراسات نقدية ذات طابع أدبي، فهو مقدس من حيث المضمون ، ومعجز من حيث البناء ، فماذا عسى الناقد الأدبي يقول؟

اكتسبت اللغة العربية من القرآن الكريم قداسة ، فاكتسبت بالتالي قضية اللفظ شيئا من القداسة ، محرزة أهميتها بالنسبة للمعنى في النقد العربي بعد ذلك ، ومن هنا فضل النقاد العرب اللفظ على المعنى ، فاللفظ جزء من اللغة العربية ، لغة القرآن ، فهو بذلك جزء من القرآن الكريم ، ورمز للوجود العربي في العالم حيث يرتكز وجودهم على الدين الاسلامي الذى يتضمنه القرآن الكريم ، العربي اللسان . انه وجود مبني على " الكلمة" وبالتالي يجب أن تكون الكلمة أساس كل ابداع أدبي . أما المرحلة الثانية التي عرفها النقد العربي القديم ، فهي مرحلة الصراع ما بين القديم والجديد في عهد بني العباس، حيث اختلط العرب بالعنصر الفارسي اختلاطا بلغ حد الامتزاج أحيانا ، فتعصب العرب " للقديم " الذى يمثل نموذجهم الشعري في المعلقات ونموذجهم اللغوي والأدبي في القرآن

1)- Deif(Ahmed): Idem. P.81.

الكريم وتزعم هذا التيار علماء اللغة العربية الذين كانوا يرون في القرآن الكريم وفي الشعر الجاهلي نموذجهم اللغوي الذي لا ينبغي الميل عنه ، حتى لا يبعد الناس عن الفهم السليم للقرآن ، ومن ثم ارتبط " القديم " بالحفاظ على اللغة ونصاعة فصاحتها ، دون الاكتراث بابراز القيم الجمالية أو الأدبية لهذا " القديم " ، كما فعل الفرنسيون الذين تحزبوا " للقديم " وقيمه الجمالية والأدبية دافعين بذلك أنصار " الجديد " الى تقديم حجج مختلفة وقوية (1) : أما الجديد فتعصب له الفرس والمولدون بعقلهم الآري : ((العقل الخيالي الخلاق والقوى من الأسرة الهندو أوروبية الكبيرة ، العقل الفنان ، الفلسفي والمفكر ، الذي سيؤثر بقوة في الأدب العربي منذ هذا الحين ، وسيمكنه من التطور في كامل أنحاء امبراطورية الخلفاء)) . (2)

رفض العقل الآري ممثلا في الفرس والمولدين التقاليد الأدبية العربية ، فهجر شعراؤه، أمثال بشار بن برد وأبي نواس وابن الضحاك وغيرهم لغة الجاهليين ، وثاروا على بنية القصيدة الجاهلية ، فعل أبي نواس الذى لم يفهم عقلية الأعرابي الذي يبكي الرسوم البالية تاركا خمارة البلد حيث الأنس والمتعة . وحق لأبي نواس أن لا يفهم ، فهو حضري ولد وتربي وعاش في المدينة . أما الأعرابي فهو لا يبكي الرسوم لذاتها حزنا على ما لحق بها من خراب ، وانما يبكي ما تثير فيه من ذكريات الصبا والحب والبطولة والحياة اليومية . انهما أسلوبان حضاريان مختلفان نبعا من نمطين اجتماعيين مختلفين ، يخلقان بالضرورة ذوقين مختلفين يلائم كل منهما النمط الاجتماعي الذى نبع منه . وبذلك فان الكثير من الأحكام النقدية على أدب أو شعر المولدين والفرس بحاجة الى اعادة نظر .

---

1)- *Deif(Ahmed): Idem. P. P. 102-103.*

2)- *Deif(Ahmed): Idem. P. 104.*

ثار أنصار " الجديد " على " القديم " فتخففوا من صلابة لغة الجاهليين ، وخاضوا موضوعات شعرية نهى الاسلام عن الخوض فيها كالخمريات والغزل بأنواعه والمدح والهجاء ، فرجع المجددون الى الموضوعات الجاهلية ، دون استحداث أجناس أدبية أو مذاهب جديدة ، فقويت شوكة أنصار القديم عندما أدركوا أن دعاة التجديد لم يضيفوا جديدا لم تعرفه العرب، وبذلك ضاعت لأحاسيس النقدية الجديدة في خضم " النزعة التقعيدية " للغة ، وظهرت أعمال نقدية نزعت هي الأخرى نزعة تقعيدية " نظرية " لا علاقة لها بالاثار الادبية من حيث التطبيق : ((والغريب هنا ، كما هو الشأن عند كل النقاد العرب ، أن النقد نظري بحت يقترح قواعد على غرار النحو ، الا أنها قواعد لاعلاقة لها بالاثار أو المؤلفين .

في أوروبا ينبع النقد من الاثر نفسه (...) ويستمد أصوله من عبقرية الكاتب ، أما عند العرب فالأمر عكس ذلك تماما ، فالنقد سابق للآثار ، وعلى الأديب أن يتبع النموذج المقترح . فاذا ما ذكرت أشعار ، فلتطبيق القواعد النقدية عليها .))(1) وبذلك صار النقد العربي نقدا تقريريا بأتم معنى الكلمة ، رغم ظهور نقاد كبارمثل : ابن قتيبة (ت276 هـ - 828 - 889) وقدامة بن جعفر (ت 337 هـ / 907) وأبي هلال العسكري (ت1005م) وابن رشيق (995 - 1064) وعبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ / 1078) والباقلاني (941 / 1013) وعبد العزيز الجرجاني (ت 3 12 هـ / 1002م) والآمدي (ت 371 هـ / 987م) وغيرهم . وكانت لكل واحد منهم روءية نقدية خاصة ليس لها امتداد بارز في التراث النقدي العربي ، لأنها روءية نظرية غير مستمدة من استقراء التراث الأدبي ، فتور قابلة للتطبيق النقدي العملي ، وتبعا لذلك لم يعرف العرب نقدا أدبيا أو تيارات نقدية وهذا ما جعل أحمد ضيف يستنتج : ((أن العرب عرفوا نقادا كبارا ، ولم يعرفوا منهجا نقديا،

---

1)- *Deif Ahmed): Idem. P. 141.*

بمعناه الدقيق في أدبهـــم .)) (1)

انه استنتاج منطقي ، نكاد نوافقه عليه تماما ، لو لا أنه نسي أن النقد العربي لم يعرف أصول النقد الفرنسي ومراحله التطورية ، وبالتالي فالاختلاف بينهما أمر طبيعي وحتمي ولكن اعجابه بالنقد الفرنسي أنساه هذا الأساس الذي يقوم عليه النقد الفرنسي نفسه .

لقد أنساه اعجابه بالأدب الفرنسي عموما ، والنقد بصفة خاصة أحيان أنه يدرس أدبا يختلف في نشأته وأسسه وتطوره عن الأدب الفرنسي ونقده ، وبذلك أصدر أحكام نقديـــــة قد تنطبق على الأدب الفرنسي ونقده أفضل مما تنطبق على الشعر العربي ونقده .

وعموما نستطيع القول ان أحمد ضيف بنى بحثه هذا بناء تاريخيا عندما تبنى المقولـة التاريخية : " الأدب ظاهرة اجتماعية " فهو يصدر عن المجتمع ويصوره من خلال المبدع الذي يعد نتاجا له بنسبه كبيرة ، الأمر الذي جعله يربط ما بين الشعر العربي والمجتمع العربي من حيث العرق أولا والبيئة الجغرافية الصحراوية ثانيا والبيئة الاجتماعية ثالثا.من خلال أهم حدث تاريخي عرفته هو الاسلام ونصه المقدس . وبتفاعل هذه العوامل اتسم الشعر العربـــي بالثبات شكلا وموضوعا ، ووجد الشاعر العربي نفسه مقيدا بقيود نابعة من العوامـــــل السالفة الذكر ، فقصر همه على اقتداء النموذج الشعري العربي ، وبذلك انتقل الثبات الى النقد الأدبي ، الذى لم يستطـع كسر قيود العوامل المقيدة للشعر العربي ، منساقا الـــى العناية باللفظ على حساب المعنى لأسباب بيئية ودينية ، وعندما حاول التقعيد لم ينطلق من النص الأدبي ، وانما جاء بقواعد نقديـة نظرية غير مستمدة من التراث الأدبي ، فبقـــي تبعا لذلك النقد في واد والشعر العربي في واد آخر ، ومن ثمه عرف العرب نقادا كبـــارا ولم يعرفوا نقدا منهجيا.

---

1):- Deif(Ahmed): Idem. P.188.

انها نتائج أدبية لها قيمتها النقدية والتاريخية ، ما كان من الممكن الوصول اليهـــا وقتذاك لو لم يتبع أحمد ضيف المنهج التاريخي في تحديد موضوع بحثه أولا ودراسته ثانيـــا وزيادة عن منطلقه المنهجي التاريخي ، تستشف ملامح المنهج التاريخي من خلال بناء البحث بناء منهجيا ، حيث اعتمد على مراجع عربية وأخرى فرنسية ، استقى منها مادة بحثــــه مقارنا الآراء والأفكار مراعيا تسلسلها الزمني ، سعيا منه الى إصدار آراء وأحكام موضوعيـــة ، بتعدد مصادرها ، ثم بنزاهة علمية لا ستعماله طريقة " التهميش " بدلا من طريقة " التضمين" الشائعة في المؤلفات العربية حتى ذلك الوقت اعتناء بالفكرة دون مصدرها ، ومعلـــوم أن هذه العملية من أوليات المنهج التاريخي .

لقد طبق المنهج التاريخي في بحثه هذا تطبيقا يتناسب مع طبيعته الهادئة الراغبة عن اثارة الجدل والخصومات من جهة ، ثم مع واقع التراث العربي وقتذاك ، حيث كـــان يصعب على الباحث جمع نصوص ومصادر محققة وموثقة لقلة وجودها وانعدامها في بعض الموضوعات من جهة أخرى،وأخيرا مع ما كان عليه المستوى العلمي المنهجي العربي آنذاك ، حيث لم يكن قد تلقى في الأزهر ودار العلوم تعليما منهجياحديثا ، وبالتالي فان تحصيلـــه المنهجي في فرنسا كان محدودا ، كما أن البيئة العلمية الجامعية العربية لم تكن قد تعودت بعد على التطبيقات المنهجية الصارمة التي قد تثير تساؤلات كثيرة ، ونتيجة كـــل هذه العوامل وغيرها جاء تطبيق أحمد ضيف للانسونية - رغم اعجابه ودعوته للاقتداء بالمنهج العلمي - محتشما ، وجاءت نتائج بحثه الأدبية والنقدية هادئة رغم جدتها وقتذاك . وبذلك يمكننا الجزم أنه طبق المنهج التاريخي في هذا البحث ، وجاء بنتائج أدبية ونقدية ، تكررت عند معاصريه وتلاميذه ولاحقيه ، فيما بعد وعدت حينئذ ثورات أدبية لطابع العنف والتجريح الذي اتسمت به . وبالتالي يعد كتابه " بحث في الغنائية والنقد الأدبي عند العرب " باكورة التأليف العلمي العربي الحديث في ميدان النقد ، وترجمته الى العربية - رغم قدمه الآن - ستكشف عن أصل الكثير من الأحكام النقدية التي غذت النقد العربي الحديث ، والتي كانـــت نابعة من روعية لانسونية .

أما كتابه " بلاغة العرب في الأندلس " فيستهله بتكرار رأيه حول مفهوم الأدب ووظيفته رافضا المفهوم العربي الشائع آنذاك الذي يرى الأدب : ((ضربا من الفكاهة والتسلية (...) أو عبارة طريفة ، أو حكمة بليغة ، أو بيت شعر يملك النفس ، ويسحر اللب بتركيبه البليغ وألفاظه الفصيحة .)) ، [1] مفضلا عليه المفهوم الجديد الذي يرى أن الأدب تعبير عن المجتمع ، بكل ما يضطرب فيه من أحاسيس وانفعالات وأفكار وآراء وأحداث : ((ان البلاغة - أو الأدب كما يقولون - هي خلاصة كد العقول والأفهام ، وثمرة هذا الاضطراب الفكري الذي ما برح دليلا على قوة الادراك وحياة النفوس العاقلة . والغرض من الكتابة البليغة أن يجعل الكاتب أو الشاعر الألفاظ وسيلة من وسائل التعبير عن لحظة من لحظات الحياة لا يكتفي بأن يدركها عقله ادراكا ثم يتركها تمرولا تعود،ولكنه يحرص عليها ويحيطها بعبارات تكشف عن أسرارها وتبين حقيقتها .)) [2] انه تعبير عن لحظة من لحظات الحياة الفردية ... أو الاجتماعية للمجتمع الذي غذاه .

تكرر هذا المفهوم الاجتماعي للأدب في كل أعمال أحمد ضيف ، لاقتناعه بأن الأدب ظاهرة اجتماعية ، تصدر من المجتمع وتوجه اليه،ومن ثم اقتنع أن تاريخ الأدب جزء من التاريخ الانساني ، وأفضل منهج لدراسة الأدب هو " الطريقة التاريخية"على حد تعبيره هو نفسه،والطريقة تمثل المنهج عنده .أرخ أحمد ضيف للأدب الأندلسي في كتابه هذا ، مطبقا المنهج التاريخي ، فكان الكتاب من المؤلفات الحديثة في التأريخ للأدب الأندلسي ، ان لم يكن أولها . استهله المؤلف بسرد قائمة من المصادر الأدبية والتاريخية باللغتين العربية والفرنسية اعتمد عليهما في التأليف ، فدل بذلك على خروجه عن نظام الرواية التضمين الذي كان معمولا به حتى ذلك

---

1) د . ضيف (أحمد) : بلاغة العرب في الأندلس . مطبعة مصر : القاهرة 1924 ص أ

2) د . ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص أ- ب .

الوقت في التآليف العربية . ومعلوم أن هذا النظام يحرص على نسبة الأفكار لأصحابها دون ذكر دقيق لمصادرها ، فلا يعين القارىء أو الباحث على التأكد من سلامتها أو مراجعتها فالمؤلف الذي يقول : قال الجاحظ كذا وكذا، لا يذكر عادة من أي كتاب استقى هذه المعلومة ورقم صفحتها وبنسخ أي وراق الى غير ذلك من المعلومات البيليوغرافية المساعدة للباحث ، وانما يكتفي بذكر اسم صاحب الفكرة ، وتعد هذه العملية خطوة خطاها العرب في طريق الأمانة العلمية ، الا أنها لم تتبع ببقية الخطوات التي تعلمها أحمد ضيف في فرنسا .

- كما أن سرده لمؤلفات فرنسية له دلالة منهجية ، اذ يعني ذلك أنه عمل بفكرة ضرورة الأخذ عن الثقافات الأجنبية ، وتجاوز الرأي الواحد ، للعمل بعقلية مقارنية بين ما نقول عن أنفسنا وما يقول الغير عنا . وهذا من أسس المنهج التاريخي المبني على الفروق . وزود كتابه في نهاية بفهرس للموضوعات المدروسة ، دالا بذلك على النظام المنهجي في التأليف، متخليا عن نظام " الخطبة " أو نظام "الحديث المدون" الذي كان النظام السائدحتى ذلك الوقت . أما صلب الكتاب ، فتضمن ، الى جانب التمهيد ، دراسات تمهيدية درس فيها كل العوامل الرابطة بين الأدب والمجتمع ، فدرس بذلك دخول العرب الى الأندلس والعصور السياسية التي مروابها ثم العصور الأدبية ، ثم الحياة العقلية بما فيها من علوم وتعليم وعناية بالكتب وانتشار للغة العربية ، منتقلا بعدها الى دراسة الفنون الأندلسية وأثرها في أوروبا وبخاصة مجالس الغناء والأدب وأثرها في تطور الأدب الأندلسي ، ليخلص في النهاية الى دراسة النثر في الأندلس بأنواعه وأساليبه والشعر في الأندلسمع أوجه التشابه بينه وبين الشعر في المشرق وأسباب ذلك .

خلال دراساته التمهيدية هذه تحدث عن البيئة الجغرافية وتنوع مناظرها بين الجبال والسهول والوديان عبر الفصول المختلفة ، وتحدث عن العنصر الأعجمي (الاسباني) من حيث

جنسه ودينه ولغته وتعلق العديد من العرب بالروميات لسحرجمالهن . كما تحدث عن "تفاعل العناصر السالفة الذكر فيما بينها ، وأثر كل ذلك في الادب الاندلسي شعرا أو نثرا ، وبذلك انتقل الى دراسة طائفة من الشعراء الاندلسيين حسب التسلسل الزماني . درس أشهر شعراء الاندلس مبتدئا بأبي عامر بن شهيد (382 هـ - 426 هـ)فابن زيدون (1003م - 1070م) وابن عبد ربه (860 م - 940 م) وابن دراج القسطلي (347 هـ - 421 هـ) والمعتمد بن عباد (1040 م - 1095 م) الى أن يتوقف عند لسان الدين بن الخطيب (1313م - 1374م) والموشحات الاندلسية ، متبعا في دراسته لهم المنهج التاريخي ، حسب الامكانات العلمية المتاحة له آنذاك ، فكان يبدأ دراسته لكل شاعر بايراد ترجمة له في الهامش - صنيع لانسون في التأريخ للأدباء الفرنسيين في كتابه تاريخ الأدب الفرنسي - يذكر فيها نسبة وميلاده ووفاته وظروف حياته بشيء من الاختصار ، رابطابين الشاعر وبيئته التي ولد وعاش فيها ، ثم يورد نماذج من شعره مبديا رأيه فيها ، محاولا تبيان علاقة الأثر الادبي بالبيئة الثقافية والاجتماعية . فعندما تحدث عن ابن الحداد (ت 480 هـ) مثلا أورد في الهامش [1] لنبذة عن حياته ، وفي المتن رسم له صورة تبين شخصيته ومكانته في عصره ، وأثر ذلك في ابداعه الشعري ، مركزا على أثر حبه لنصرانية في شعره : ((واشتهر عنه أنه أحب في صباه فتاة نصرانية ذهبت بلبه ، وكان يسميها نويرة قد اتخذ عشقها وسيلة للتكلم في أوصاف المسيحية القسس والكنائس والصلوات ، من الاشياء النادرة في الشعر العربي، فخرج عن عادة الشعراء في الاقتصار على أوصاف النفوس وآلامها عند الكلام على العشق.وهذايدلعلىشيء من الابتكار وسعة الخيال ، وتأثر الشعر وعقول الشعراء بما يرون في الحياة .)) [2]

---

1) - د . ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 183 - 185

2) - د . ضيف (أحمد) / : المرجع السابق ص 185

درس أحمد ضيف الأدب الاندلسي انطلاقا من البيئة الاندلسية بعواملها الطبيعية والبشرية والحضارية والثقافية ، وأثرها في المبدع ، كما هو الشأن عند ابن الحداد الذي أورد لـه عدة مقطوعات شعرية مستوحاة من الوسط المسيحي الذي كان يعاشره لاجل حبيبتـه " نويرة " متحدثا فيها عن الكنائس والصوامع ويوم الفصح والاسقف والقس وثقاء المظهري ، وتراتيل الراهبات لصحفهن بحسن الالحان ،(1) الى غير ذلك من الامور المسيحية التي لا تظهر في شعر أي شاعر ، ومن ثمة فان ظهورها في شعر مسلم يحتاج الى دراسة تاريخية توثيقيـة تبين علاقة الشاعر بذلك الوسط الديني ، ثم جوانب تأثره بـه .

وهكذا دأب أحمد ضيف مع بقية الشعراء والكتاب الاندلسيين ، درس كل واحد منهـم ضمن اطارة الزماني والجغرافي والثقافي منقبا عن مصادره وأصوله أولا ، ثم تصويره لبيئتـه ثانيا ، فطبق بذلك مقولة أجتماعية الادب على الادب الاندلسي ، ورتب أدباءه ترتيبـا زمانيا بعد دراسة كل واحد منهم دراسة تاريخية ، حسب الوسائل العلمية المتوفرة لديـه ، كما طبق في كتابه هذا فنيات بحث ترجع الى المنهج التاريخي في ذلك الوقت مثـل المصادر والمراجع والهوامش والفهرس ، وبذلك نستطيع القول انه طبق في هذا الكتاب أيضا المنهج التاريخي تطبيقا محتشما لقلة الوسائل العلمية أولا ، وضعف الروية العلميـة آنذاك في الوسط الجامعي بما في ذلك تكوينه المنهجي الذي اعتقد أنه كان هشا بسبـب دراسته الازهرية والفرنسية ثانيا وطبعه الميال الى الهدوء والبعد عن الصراع العلمي ثالثا ، الامر الذي جعله يطبق المنهج التاريخي تطبيقا هادئا .ومع ذلك أرخ للادب الاندلسي ، وحسب نتائج البحث في قوائم التاليف الحديثة يبقي كتابه هذا أول كتاب حديث في التأريخ للادب الاندلسي ، وأضيف حسب المنهج التاريخي .خلاصة القول ان أحمد ضيف درس المنهـج على أعلامه أمثال الأخوين كروازي ولانسون وريني ، فأعجب به ، واقتنع أنه المنهج الأليـق .

---

1) - د. ضيف (أحمد) : المرجع السابق ص 185 - 186 .

لدراسة الأدب العربي دراسة علمية حديثة اقتداء بالأوروبيين ، فدعا طلابه وقراءه الى العملية . ثم تجاوز ذلك الى التطبيق ، فحاول تطبيقه في رسالته حول " الغنائية والنقد الأدبي عند العرب " منطلقا من أن الأدب ظاهرة اجتماعية ، وأن الشعر - مثل بقية الأجناس الأدبية - يصدر عن المجتمع ويصوره من خلال المبدع وتفاعله مع ذلك المجتمع أخذا و عطاء ، وبذلك استنتج أن الشعر العربي غنائي لصدوره عن أناس ينتمون الى العرق السامي ذي الخصائص الانفعالية ، وعن بيئة صحراوية قاحلة ثابتة تحد من أفق المبدع وتسد عليه التأثيرات الأجنبية ، ثم استنتج تبعا لذلك أن النقد الأدبي ارتبط هو الآخر بالشعر العربي من حيث النشأة ثم التطور ، فبدأ أحكاما ذوقية انفعالية صادرة عن أناس لهم خصائص وراثية انفعالية ، ثم ثبت على طابعه الذوقي ذاك لثبات الشعر نفسه ، حيث لم يستطع الخروج من البيئة العربية المغلقة ، فصب جل اهتمامه على اللفظ باعتباره المتنفس الوحيد للشاعر . ولما جاء الاسلام ، ازداد النقد تقيدا وثباتا لاكتساب اللغة العربية قداسة ، مرجعها قداسة النص القرآني العربي اللسان منهجه ، ومنع الاسلام الشاعر من الخوض في موضوعات وأغراض تتنافى والنمط الاجتماعي الجديد ، فوجد الشاعر نفسه مكبلا من حيث المضامين بالمحرمات والمكروهات ، ومن حيث اللغة بقداسة النصوذج القرآني ، وانعكس كل ذلك على النقد الذي لجأ الى التقعيد ، اقتداء بالنحو ، الا أنه تقعيد فكري نظري غير مستمد من التراث الأدبي نفسه ، وبذلك يخلص أحمد ضيف الى أن العرب عرفوا نقادا كبارا ولم يعرفوا نقدا منهجيا ، حسب المفهوم التاريخي للمنهج بطبيعة الحال فهو يرى أن العرب لم يعرفوا النقد المنهجي لأن نقدهم لم يصدر عن استقراء للتراث الأدبي وهذه خاصية من خاصيات المنهج التاريخي ، ومن ثم فكل النتائج التي توصل اليها جاءت لاتباعه المنهج التاريخي . كما طبق المنهج التاريخي في تأريخه للأدب الأندلسي ، حيث

انطلق في تأريخه من ارتباط الأدب الأندلسي بالبيئة الأندلسية المتعددة الجوانب ، ليستنتج أن التجديد الذي عرفه الشعر الأندلسي يرجع من حيث المضامين والأغراض الى ثراء الحياة الأندلسية طبيعيا وبشريا واجتماعيا ، فالطبيعة زاهية متغيرة ، والبشر خليط من الأجناس والعقليات ، والمجتمع ثري ثقافيا وحضاريا ، فجاء الشعر الأندلسي مزينا بموضوعات طريفة ، أما من حيث الشكل ، فيرجع التجديد الى التفاعل البشري والثقافي بين مختلف عناصر المجتمع الأندلسي من عرب وبربر ويهود ونصارى ، وتجلى تفاعل كل تلك العناصر في تطور شكل القصيدة العربية من قصيدة ذات وزن واحد الى قصيدة ذات وزن متغير وألفاظ بسيطة ، بعضها عامي ، سميت بالموشح ، ومن ثم فالموشحات نتيجة حتمية ملائمة للمجتمع الأندلسي الذي يشبه في تركيبه بناء الموشح نفسه .كما يتجلى تطبيقه المنهج التاريخي من خلال فنيات البحث التي اعتمدها كذكر المصادر والمراجع عربية وفرنسية والتهميش ، وهذه فنيات أساسية في المنهج التاريخي نعدها الآن من بديهيات البحث ، أما زمن أحمد ضيف ، فكان التأليف العربي خلوا منها ، واعتمادها يعد تطورا منهجيا كبيرا .

والقول بأن أحمد ضيف دعا الى تطبيق المنهج التاريخي أو عمل على تطبيقه ، لايعني أنه كان متمكنا من المنهج وأسسه وفعالياته . فقد جاء حديثه عن المنهج أو " الطريقة " مضطربا . فكثيرا مايكرر الفكرة الواحدة مرات عديدة ، وعادة ما يذكرها دون شرحها الشرح الكافي . كما جاء تطبيقه للمنهج باهتا ، فهو ينطلق في دراساته التطبيقية من أن الأدب ظاهرة اجتماعية ، ثم يبدأ في دراسة العوامل المكونة للمجتمع دراسة نظرية تحتاج الى الدقة العلمية المعتمدة على الوثائق المتنوعة ، لينتقل بعد ذلك الى البرهنة على الصلة الوثيقة بين الشعر والعوامل الاجتماعية من خلال أحكام عامة تحتاج الى الدليل التاريخي الموثق . كما أنه عادة ما يصدر أحكاما أساسها الذوق . أما اعتماده الفنيات المنهجية ، فالعملية تكاد تكون سطحية . فرغم دعوته في كتابه " مقدمة لدراسة بلاغة العرب" الى الرجوع الى النصوص الأصلية واعتماد المخطوطات ، فانه لم يعتمد على المخطوطات في دراساته التطبيقية ، واستعماله

المصادر والمراجع لم يبلغ مستوى من الدقة العلمية ، تسهل على القارئ الاستفادة منهــا ، خاصة وأن هوامشه تحتاج الى الدقة العلمية .

لقد كان حديثه عن المنهج التاريخي مضطربا ، تنقصه الدقة ويعوزه الوضوح ، كما كان تطبيقه هشا تنقصه الصرامة والجرأة ، ومرد ذلك حسب اعتقادنا أمور ثلاثة مجتمعة أو متفرقة تتمثل في :

أولا : تلقي أحمد ضيف تعليما دينيا في الأزهر ، وشبه ديني في دار العلوم ، فسافر الـى باريس جاهلا لأبسط مقومات المنهج ، وبذلك صعب عليه الانتقال التام من عقلية الى نقيضها واستيعاب النقيض تماما .

ثانيا : اذا افترضنا أنه استوعب المنهج التاريخي تمام الاستيعاب ، فأن تطبيقه في دراســة الأدب العربي يتطلب توفر أمرين اثنين : أولهما مواد البحث العلمي من كتب ومصادر ومجلات ومكتبات ، كانت كما هو معروف في بداية نشأتها وقتذاك ، وثانيهما توفر جو علمي أكاد يمي يستسيغ المناهج الحديثة وما قد تثير من زوابع علمية تخض الحقائق المتعارف عليها ، وهـذا مالم يكن قد تأصل بعد .

ثالثا : شخصيته الهادئة المؤثرة للراحة والهدوء ، والنافرة من كل مظاهر الصراع .وباجتماع هذه العوامل الثلاثة ، يصعب على صاحبها أن يكون داعية مجددا أو باحثا مبتكـــرا . ومع ذلك فقد عد رائدا مجددا : ((ونحن لا نبالغ في تقدير ذلك المفكر ، لانه خرج على التقاليد التي كانت مرعية في فهم الأدب ودراسته ، ونظر اليه بعين المفكر الذي يعتقد أن التجديـد في ذلك واجب عليه لبلاده ولغته وأمته .))(1) وقد لا تكون أصداء تجديده قوية وبارزة في تآليفه

---

1) - ضياب (عبدالحي) : التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر . القاهرة 1968 ص 116.

لقلتها وقلة ذيوعها ، الا أن أصداء تجديده تغلغلت وانتشرت بفضل أفواج طلابه الذين أعجبوا به ، واتبعوا طريقه حتى شهدله بذلك صديقه أو عدوه الدكتور طه حسين : ((أما حظه في الجامعة فحسن جدا خليق بالغبطة ، فقد وفق الاستاذ لان يفتح أمام تلاميذه مناهج جديدة للبحث سلكوها فوفقوا منها لخير كثير.)) [1] ولكن طه حسين عاب عليه قلة أبحاثه وسرعته في التأليف وملله مستنتجا أنه موءلف غير مجيد رغم امكانياته العلمية واللغوية ، الا أنه اعترف له بالتوفيق في فتح آفاق طلبته العلمية على مناهج جديدة للبحث سلكوها ووفقوا فيها ، ففعلوا مالم يفعل أستاذهم ، ليحقق بهم ما لم يستطع تحقيقه بنفسه . لذا يمكننا القول انه كان رائد اللانسونية في النقد العربي الحديث حسب ظروفه وقدراته العلمية ، دعا الى تطبيقها وحاول ذلك في دراسته للشعر العربي ونقده ، ثم في الأدب الأندلسي. فكان أول من أصدر أحكاما أدبية ونقدية جديدة كانت منطلق التجديد في الدرس الأدبي عند العرب ..

---

1) - طه حسين : حديث الأربعاء ج 3 ط 10 . دار المعارف . مصر ، ص 73 .

الباب الثالث

طه حسين واللاانسونية

الفصل الأول

طه حسين: حياته وصلته باللانسونية

1 - الميلاد والنشأة : ولد طه حسين في ضاحية من ضواحي قرية " مغاغة " بالصعيد الأوسط ، يوم 14 نوفمبر 1889 م (1) في أسرة متوسطة الحال ، كانت تتمتع بدخل منتظم ولو كان محدودا ، فقد كان والده موظفا في شركة السكر، فكانت الأسرة تطمح الى تثقيف بعض أبنائها العديدين الذين وجد " طه " نفسه ضائعا بينهم ، فقد : ((كان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه ، وخامس أحد عشر من أشقته . كان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكانا خاصا يُمتاز من مكان اخوته وأخواته . أكان هذا المكان يرضيه ؟أكان يوءذيه ؟ الحق أنه لا يتبين ذلك الا في غموض وابهام .)) (2) .

لم يتبين موضعه بين اخوته الكر لسببين : أولهما أنه كان متوسطا اخوته وأشقاءه فلم يحظ بفرحة الأوائل ، ولا بعطف الأواخر . وثانيهما أنه أصيب في سنواته الأولى بالرمد فأضاع علاج شعبي بصره الى الأبد .

احس باختلافه عن اخوته وأشقائه ، لوضعه الخاص في أسرته حيث : ((كان يحس من أمه رحمة ورأفة ، وكان يجد من أبيه لينا ورفقا ، وكان يشعر من اخوته بشيء من الاحتياط في تحدثهم اليه ومعاملتهم له . ولكنه كان يجد الى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمه شيئا من الاهمال أحيانا ، ومن الغلظة أحيانا أخرى .

وكان يجد الى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئا من الاهمال أيضا ، والازورار من وقت الى وقت . وكان احتياط اخوته وأخواته يوءذيه ، لانه كان يجد فيه شيئا من الاشفاق

---

1) - تراجع ترجمته في :

- د. السكوت (حمدي) ود. مارسدن (جونز) : طه حسين . (سلسلة أعلام الأدب المعاصر في مصر) الجامعة الأمريكية بالقاهرة 1975م

- علي (أحمد) : طه حسين : رجل فكر وعصر . دار الأدب بيروت 1985م .

2) - طه حسين : الأيام ج1 ط 59 . دار المعارف بمصر . ص 17

مشوبا بشيء من الازدراء .)) (1).

وشيئا فشيئـا أدرك أنه لايستطيع فعل كل مافعله كل ما يفعله اخوته وأ خواته ، ثم أدرك أن لغيره من الناس عليه فضلا ، فهو أعمى لا يرى ما يراه غيره ، فلا يستطيع فعل ما يفعلـه الغيـر.

أدرك واقعه المر ، لانه عالة على غيره في أبسط الامور ، فعز ذلك في نفسه ، وأثـار حفيظته ، خاصة وأنه : ((كان من أول أمره طلعة لا يحفل بما يلقى من الامر في سبيل أن يستكشف ملا يعلم .)) (2) فوطن نفسه على مكابدة الصعاب ، والصبر على الالم في سبيـل معرفة كل مالا يعرف ، واجتياز كل العقبات التي تعترض سبيله ، ليكون الأفضل دائما . وقد أدخل الكتاب في سن مبكرة ، فحفظ القرآن كله ، ولما يتعد التاسعة من العمر ، (3) فلم يبـق أمامه الا الالتحاق بالأزهر ليصبح " شيخا " يعلم الصبيان ، ويقرأ القرآن في المآتم مثـل أمثاله من العميان حسب تفكير والده . أما هو فكان طموحه أكبر ، وكان يرى الأزهر قبلـة العلـم .

2 - في الأزهر : كان يطمح الى أن يكون عالما أزهريا ، بلباسه المميز ، وأن يتـزود بالعلم الوافر من نحو وفقه ، فدخله سنة 1902م . ولكن آماله سريعا ما خابـت ، وتيقـن أن ما يسمع من دروس لا تختلف كثيرا عما سمع في الكتاب . فاشمأز من شيوخه وطرقهم التعليمية : ((ولبث الصبي دقائق لا يميز مما يقول الشيخ حرفا . حتى اذا تعودت أذناه صوت الشيـخ وصدى المكان سمع وتبين وفهم (...) سمع الشيخ يقول : " ولو قال لها أنت طلاق " أو أنت ظلام أو أنت طلال أو أنت طلاة ، وقع الطلاق ، ولا عبرة بتغيير اللفظ . " يقول ذلك متغنيا به ،

---

1) - طه حسين : المرجع السابق ص 17 - 18

2) - طه حسين : المرجع السابق ص 19

3) - طه حسين: المرجع السابق ص 33 .

مرتلا له ترتيلا في صوت لا يخلو من حشرجة ، ولكن صاحبه يحتال أن يجعله عذبا .)) [1] أدرك أن شيوخ الازهر لا يقدمون علما ، وانما يتفننون ، أو يكررون كلاما محفوظا ، يكون في بعض الأحيان بعيدا عن المنطق ، والا فما علاقة الطلاق ببقية الكلمات المذكورة ، عدا حرفي الطاء واللام ، ومن ثم يرتبط مستقبل انسانين أو أسرة كاملة ، حسب هذا الشيخ ، بالتفوه بحرف أو حرفين ! .

ثارت ثائرته على الأزهر والأزهريين لمثل هذه الأمور ، ولم يشعر الا وهو يتحدى بعض شيوخه ساخرا منهم ومسفها كلامهم ، فأثار حفيظة البعض منهم ، ولم ينتش في حلقته الا القليلين جدا أمثال الشيخ سيد المرصفي الذي عده نغمة جديدة في الأزهر بدروسه حول "ديوان الحماسة " ، حاول فيها دفع الطلاب الى دراسة الشعر وفهمه وتذوقه ، فكانوا معجبين به من جهة ، وغير مبالين بتندره على شيوخهم وكتبهم الأزهرية [2] من جهة أخرى !.

لم ير الطلبة في درس المرصفي الا جانب التسلية - أما "طه حسين " ومجموعة قليلة من أصحابه ، فرأوا فيه الشيخ النموذجي . فهو دائم الثورة على الأزهر وشيوخه ، حافظة للشعر ، ذواقة ، عالم بدقائق اللغة مستقيم الخلق ، قريب الى الناس . ولهذا توطدت الروابط بينه وبين " طه "، فربطتهما صداقة متينة أثارت غضب مشيخة الأزهر على المرصفي ، وأوصلت " طه " وصاحبيه الى مجلس التأديب لقوله : ان الحجاج لم يكفر وانما أساء الأدب والتعبير عندما رأى الناس يطوفون بقبر النبي ومنبره فقال ، أي الحجاج ، " انما يطوفون برمة وأعواد " [3] عوقب وصديقيه على هذه الخاطرة التي خطرت له في درس من دروس الأدب ، لأنه رأى في كلام الحجاج حقيقة تاريخية ، الا أن تعبيره عنها لم يكن يليق بمقام النبي عليه الصلاة

---

1) - طه حسين : المرجع السابق ص 144

2) - طه حسين الأيام ج 2 ،ط29،دار المعارف . مصر ص 158 - 160

3) - طه حسين: المرجع السابق ص 166 - 170

والسلام ، وبذلك فان الحجاج قد أساء الأدب لا غير . أما مشيخة الأزهر فكانت ترى أن مجرد اساءة الأدب في مثل هذا المقام قد تتحول الى كفر اذا لم تردع في حينها . والغريب في الأمر أن مشيخة الأزهر لم تعلم بهذه الخاطرة الا بوساطة وشاية طالب ، اعتمدتها مصدرا موثوقا به . فتألم " طه " لذلك مرتين " مرة لأن المشيخة اعتمدت الوشاية دون تحر ، ومرة أخرى لأنها بقبولها وشاية الطلاب ببعضهم البعض تعلمهم أخلاقا لا تحمد عقباها .

لم ير "طه " حلا لمشكلته مع الأزهر أفضل من كشفه عن حقيقته أمام الناس ، فكتب مقالا ... هاجم فيه الأزهر وشيخه ، مبينا مساوئ الأول وعيوب الثاني ، واتصل بالسيد أحمد لطفي السيد مدير " الجريدة " لنشر المقال ، فأثناه عن ذلك رغم اعجابه بالمقال ، وبأسلوب صاحبه وجرأته ازاء الأزهر ، رمز الجمود ، خاصة وأنه - أي لطفي السيد- كان مفكر الطبقة البرجوازية ، المنادي بالفكر الليبرالي للأخذ بأسبابه . (1) وعرض عليه الاتصال المستمر بينهما ، فاتحا بذلك أمامه عالما جديدا :((وفي مكتب مدير الجريدة ظفر الفتى بشيء طالما تمناه ، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش بعد أن سئم بيئة العمائم .)) (2)
وازداد ضيقا وتبرما ببيئة " المعممين " بفقرهم وبؤسهم وقناعتهم المادية والفكرية ، عندما تعرف على بيئة " المطربشين " حيث انفتحت أمامه آفاق جديدة وعوالم لم تكن تخطر له ببال. فالناس في هذه البيئة أثرياء ، يحيون حياة مرفهة ، يعملون في وظائف متنوعة ومهمة، والعلم عندهم مختلف عن " علم الأزهر " .

عزم على الانضمام الى هذه البيئة " المطربشة " مقتديا برمزها أحمد لطفي السيد المفكر الليبرالي ، فكانت الجامعة منفذه الى البرجوازية المصرية والى الفكر الليبرالي . ((واذا صاحبنا يقبل عليها وينتسب اليها . واذا هو يختلف مع غلامه الأسود الى دروس الأزهر

---

1) - د. شرف (عبد العزيز): طه حسين و زوال المجتمع التقليدي ، ص 90 - 91

1) - بوحسن (أحمد) : الخطاب النقدي عند طه حسين، ص 27 - 31

2) - طه حسين : الأيام ج 2 ص 173

مصبحاوالى دروس الجامعة ممسيا . واذا هو يجد للحياة طعما جديدا ، واذا هو يتصل ببيئة جديدة وبأساتذة لاسبيل الى الموازنة بينهم وبين أساتذته في الازهر.))(1). وكيف يمكنه الموازنة بين قديم الأزهر في ذلك الحي العتيق ، وما يحيط به من

3 - في الجامعة : التحق بالجامعة اثر تلك الأزمة التي قطعت الصلة الروحية بينه وبين الازهر بعدما كرهه وعلمه ، فكان التحاقه بالجامعة انتقالا من عالم الى عالم آخر :
((واستمع الفتى لأول درس من دروس الجامعة في الحضارة الاسلامية . فراعه أول ماراعه شيء لم يكن له بمثله عهد في الازهر ، فهذا أحمد زكي بك يبدأ الدرس بهذه الكلمات التي لم يسمعها الفتى من قبل : " أيها السادة : أحييكم بتحية الاسلام ، فأقول السلام عليكم ورحمة الله " وانما كان الفتى يسمع في الازهر كلاما آخر يتجه به الشيوخ الى الطلاب وانما يتجهون به الى الله عز وجل فيحمدونه ويثنون عليه ، ولا يحي فيه الشيوخ طلابهم ، وانما يصلون فيه على النبي وعلى آله وأصحابه أجمعين ! . ثم راع الفتى بعد ذلك أن الأستاذ لم يقل في أول درسه : ((قال المؤلف رحمه الله)) و انما استأنف الدرس يتكلم من عند نفسه و لا يقرأ في كتاب ... وكان كلامه واضحا لا يحتاج الى تفسير ، وكان سويا مستقيما لا فتلة فيه و لا اعتراض عليه .)) (2) .

لقد انتقل من نظام تعليمي غيبي - فالأستاذ فيه مجرد راوية ، و الخطاب موجه الى الله عز و جل أو الى الرسول عليه الصلاة و السلام ، و المعنى غير واضح لا يفهم الا بالشرح و التأويل - الى نظام تعليمي جديد ، مباشر و ملموس ، يوجه فيه الخطاب الى الطلاب و يصدر الأساتذة فيه عن أنفسهم بلغة مفهومة .

كانت نتيجة هذا الانتقال العقلي ، أن استمع الى الدرس نفسه ثانية مع الصف الثاني

---

1) - طه حسين : المرجع السابق ، ص 181 .

2) - طه حسين : الأيام ج3 . ط6 . ص 6-7 .

و قضى ليلته تلك يستمتع بحلاوة العلم الجديد ، حتى اذا سمع المؤذن يدعو الى صلاة الفجر تثاقل و تثاقل ، ولم ينهض يومه ذاك الى الصلاة . (1)

تغيرت حياة طه حسين لاتصاله بالجامعة التي فتحت عقله على ميادين علمية لم يكن يتصورها ، فاسترجع الأمل في الحياة ، وصار يراها عيدا متواصلا :((و يمضي العام الأول من الحياة الجامعية عيدا كله ، لا يحس الفتى سأما أو ضيقا به (...) فقد أقبل أساتذة جدد ملكوا عليه أمره و استأثروا بهواه ، فهذا الأستاذ كارلو نالينو المستشرق الايطالي يدرس باللغة العربية تاريخ الأدب و الشعر الأموي . و هذا الأستاذ سنتلانا يدرس بالعربية أيضا ، وفي لهجة تونسية عذبة ، تاريخ الفلسفة الاسلامية و تاريخ الترجمة خاصة . و هذا الأستاذ ميلوني يدرس باللغة العربية كذلك تاريخ الشرق القديم . و يتحدث الى الطلاب عن أشياء لم يتحدث عنها أستاذ قبله في مصر . (...) و هذا أستاذ ألماني ، هو الأستاذ ليتمان ، قد أقبل يتحدث الى الطلاب عن اللغات السامية و المقارنة بينها و بين اللغة العربية ، ثم يأخذ في تعليمهم بعض هذه اللغات . واذا الفتى يخرج من حياته الأولى خروجا يوشك أن يكون تاما لولا أنه يعيش بين زملائه من الأزهريين و الدرعميين وطلاب مدرسة القضاء وجه النهار وشطرا من الليل(.)) (2)

اتسع مفهوم " العلم" في عقله متجاوزا اللغة و الشريعة الى مجالات عديدة كاللغات السامية و التاريخ و الأدب و الجغرافيا ، و الفلسفة ، انطلاقا من منظور جامعي أكاديمي أحضره المستشرقون الذين ذكرهم ، أو الذين لم يذكرهم ، من جامعاتهم الأوروبية التي عرفت تطورا كبيرا من حيث المناهج التعليمية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

كاد اعجابه بأساتذته المستشرقين و بعلومهم الحديثة أن يحوله تحويلا خطيرا يفنيه في العلم الأوروبي افناء ، ولم ينجه من هذا الافناء الا طائفة من الأساتذة المصريين الذين: (3)

---

1)- طه حسين : المرجع السابق ، ص 07 .

2)- طه حسين : المرجع السابق ، ص 34 .

3)- طه حسين : المرجع السابق ، ص 37 .

((أتاحوا له أن يأوي الى ركن شديد من الثقافة الشرقية الخالصة ، و أتاحوا لمزاجه أن يأتلف ائتلافا معتدلا من علم الشرق و الغرب جميعا . وكان الأساتذة المصريون يختلفون فيما بينهم اختلافا شديدا ، كان منهم المطربشون و المعممون و الذين سبقت العمامة التي رؤوسهم ثم انحسرت عنها و جاء مكانها الطربوش .))(1)

نرى من هذا الوصف للهيئة التعليمية التي ساهمت في تعليمه بالجامعة أن الأغلبية من أساتذته كانوا ينحون نحو ذلك النمط التعليمي الجديد الذي يهدف الى تزويد الطالب بمعلومات و معارف منسقة ، ومرتبة ترتيبا منطقيا يسهل على الطالب استيعابها ، ثم تزويده بأسس علمية و عقلية تساعده على البحث و الدرس ، وتقصي الحقيقة العلمية التي قد تخالف معتقداتنا .

أدرك أن هذه العلوم التي بهرته لم تتطور و تصل الى ما وصلت اليه ، الا بعدما التزم الأساتذة الأوروبيون - في دراسة ظواهرها - بقواعد و أسس هي المنهج العلمي ، و اقتنع بضرورة الأخذ بالمنهج العلمي في الدراسة و البحث اقتداء بأساتذته المستشرقين، وبالمنهج التاريخي بالذات، فهو يصرح في صدر رسالته عن أبي العلاء سنة 1914م بأن مصادر بحثه العربية مثل تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ، وتاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي للأستاذ أحمد عمر الاسكندري، تمتاز :((بشيء من الميل الى المنهج التاريخي الحديث في تحقيق ما نعرض له من شأن أبي العلاء، و لكن هذا الميل على نقصه في هذه المصادر جميعا، و بعده عن تشابه المعقول - يتفاوت فيها قلة و كثرة، كما يتفاوت صحة و فسادا .))(2)

1)- طه حسين : المرجع السابق ، ص 37.

2)- طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء (سلسلة : من تاريخ الأدب العربي).
المجلد الثالث : دار العلم للملايين ، ط1 ، بيروت 1974 ، ص 384.

على الرغم من أنه يحدد النصاب المعقول للمنهج التاريخي وقتذاك ، فان رحلته مع المنهج بصفة عامة ، و مع المنهج التاريخي بصفة خاصة ، بدأت أيام كان طالبا في الجامعة الأهلية يستمع للمستشرق كارلو نالينو *C. Nallino* (1872-1938) وهو يمحص كلمة "أدب" متتبعا تطورها ، ومستعرضا لمراحل الشعر العربي حتى عصر بني أمية ، و يستمع الى سانتلانا يدرس الفلسفة الاسلامية متتبعا تطورها ، و منقبا عن روافدها ، ثم يستمع الى ليتمان *Enno Littman* (1875 - 1958) و هو يتتبع تطور اللغات السامية مقارنا بعضها ببعض . و كانت الرؤية التاريخية أساس التعليم الجامعي آنذاك ، وبدأت أصداؤها تظهر في أول بحث لطه حسين سنة 1914م كما سبق القول .

4 - في السوربون : فتحت الجامعة أمام "طه حسين" آفاقا واسعة . فبعدما كانت هدفا يصبو اليه ذلك الأزهري الكفيف، صارت وسيلة لتحقيق آمال ما كانت تخطر له ببال . حيث دفعته الى تعلم اللغة الفرنسية ، ثم الى التفكير في السفر الى فرنسا لدراسة العلم من مصادره (1) . و بعد مغامرات وأحداث، (2) أحرز على منحة سنة 1914م الى فرنسا - مدينة مونبولي - للتخصص في التاريخ ، بعدما أنهى الدراسة الجامعية سنة 1912م ، و قدم أول رسالة لنيل درجة الدكتوراه من الجامعة الأهلية سنة 1914م ببحثه "ذكرى أبي العلاء". ولم تزد اقامته في "مونبولي" عن سنة واحدة ، درس فيها اللغة الفرنسية و شيئا من اللاتينية زيادة (3) عن الأدب و التاريخ ، و تعرف خلالها على المرأة التي سيبصر الدنيا بعينيها ، على حد تعبيره ، والتي ستصبح زوجته وأهم دعامة في حياته .

في السنة الموالية ، و بعد ما حلت أزمة البعثة الناجمة عن ظروف الحرب العالمية

---

1) - طه حسين : الأيام ج3 . ص 44 - 47 .

2) - طه حسين : المرجع السابق : ص 47 - 78 .

3) - طه حسين : المرجع السابق ، ص 113

الأولى ، رجع الى فرنسا ، والى السوربون بالذات ، حيث تعمق في اللغة الفرنسية ، مع مواصلة دراسة اللاتينية . ونظرا للثغرات العلمية العديدة في تحصيله بمصر ، لم يستطع متابعة دروس الجامعة واستيعابها بيسر ، فاضطر الى دراسة أجزاء من مقرر المرحلة الثانوية حتى يتسنى له فهم محاضرات الأدب والتاريخ ، فصار : ((تلميذا ثانويا اذا أوى الى بيته وطالبا جامعيا اذا اختلف الى دروس السوربون))[1] وهكذا راح يعد لنيل درجة الليسانس في التاريخ مثل أي طالب فرنسي ، الى أجانب اعداد بحث في علم الاجتماع حول: فلسفة ابن خلدون " باشراف المستشرق " كازا نوفا "[2] والعلامة " اميل دوركايم " لنيل دكتوراه الجامعة .[3]

خلال دراسته لنيل درجة الليسانس في التاريخ تتلمذ على اساتذة كبار[4] في التاريخ أمثال جوستاف بلوك[5] ، أستاذ التاريخ الروماني.

---

1) = طه حسين : المرجع السابق ص 106

2) = كازانوفا P. Casanova مستشرق فرنسي ، درس ودرس في الكوليج دوفرانس اللغة العربية وآدابها ، انتدبته الجامعة المصرية سنة 1925م لتدريس فقه اللغة توفي في مصر سنة 1926 . له دراسات عديدة في المجلات المتخصصة حول مختلف أوجه الحضارة العربية (العقيقي نجيب : المستشرقون ، ج 1 دار المعارف ط 4 . مصر ص 219 ـ 220).

3) = طه حسين : المرجع السابق ص 121

4) = طه حسين : المرجع السابق ص 121 ـ 130 ، علي أحمد : طه حسين ، دار الآداب ص 389 ـ 393

5) = جوستاف بلوك Gustave Bloch (1848 ـ 1923) بحاثة فرنسي ، درس في ليون وباريس التاريخ الروماني الذي ألف فيه عدة مؤلفات أشهرها " أصول مجلس الشيوخ الروماني (1883) . Grand Larousse Encyclopedique, T2, Paris = 1973

وجوستاف جلوتز أستاذ التاريخ اليوناني[2] ، وشارلي ديهل[1] أستاذ تاريخ القرون الوسطى وشارل سينيوبو س[3] أستاذ التاريخ الحديث ، وألفونس أولار[4] أستاذ تاريخ الثورة الفرنسية . كما تتلمذ على جوستاف لانسون[5] في دراسة الأدب الفرنسي.

---

1) - جوستاف جلوتز : Gustave Glotz (1862 - 1935) موءرخ فرنسي . خريج المدرسة العليا للأساتذة . أستاذ التاريخ اليوناني بالسوربون منذ 1897 .

له موءلفات عديدة منها " التعذيب في بلاد اليونان البدائية وتضامن الأسرة في القانون الجنائي باليونان " (1904) و " العمل عند اليونان قديما " واتسمت أعماله بالطابع النقدي والدقة العلمية .

(Grand larousse encyclopedique. T5. Paris. 1973)

2) - شارلي ديل C. Diehl (1859 - 1944) بحاثة فرنسي . خريج المدرسة العليا للأساتذة متخصص في التاريخ البيزنطي . له موءلفات عديدة منها " أفريقيا البيزنطية (1896) ووجوه بيزنطية " و" تاريخ الامبراطورية البيزنطية (Grand larousse Encyclopedique T4. Paris 1973.)

3) - شارل سينيو بوس (C. Seignobos) 1854 - 1942 م . موءرخ فرنسي . تأثر كثيرا بالمدرسة التاريخية الألمانية ألف عدة موءلفات أشهرها : " تاريخ الحضارة (1884-1886) و" مدخل الى الدراسات التاريخية ". بالاشتراك مع " لانجلوا " (1897) و " التاريخ السياسي لأوروبا الحديثة " (1897) كانت طريقته النقدية الموسومة بالوضعية تعتمد أساسا بالحدث التاريخي المادي (Grand larousse encyclopedique. T9. Paris 1973)

4) - ألفونس أولار : A. Aulard 1849 - 1928 . موءرخ فرنسي . أهم آثاره كتاب " التاريخ السياسي للثورة الفرنسية " موءسس مجلة " الثورة الفرنسية " .

(Grand larousse encyclopedique. T01. Paris 1973.)

5) - جوستاف لانسون : يراجع الفصل الأول من الباب الأول لهذا البحث .

أمافي مرحلة البحث ، فلقد نو بأساتذته أجمعين ، خاصا بالذكر ألفريد كروازي (1) أستاذ الأدب اليوناني القديم ومؤرخه ، والسيد " كازانوفا " (2) أستاذ اللغة والأدب العربية اللذين أرشداه علميا ، وساعداه ماديا على انجاز رسالته للدكتوراه حول " فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ."

اعتمد في اعداد هذه الرسالة على جملة من المراجع الاجنبية حول ابن خلدون وعلم الاجتماع ، ومرجعين حول المنهج التاريخي هما :

1 ـ المدخل للدراسات التاريخية لمؤلفيه لانجلوا وسينيوبوس . (3)

2ـ المنهج التاريخي المطبق في العلوم الاجتماعية لشارل سينيوبوس .

ندرك من هذا الاستعراض لأساتذته في السوربون أنه تتلمذ على كوكبة من كبار الأساتذة الذين كانوا العصب العلمي لفرنسا خلال الربع الأول من القرن العشرين ، فهم الذين بلوروا المنهج التاريخي وطوروه ليطبق في مختلف المجالات العلمية . لقد استفاد من أساتذة التاريخ السالف الذكر في مرحلة الليسانس ، ثم في مرحلة الدبلوم في التاريخ ، كما استفاد بعد ذلك، خلال اعداد رسالته ، من كتاب " لا نجلوا وسينيوبوس " الذي عده " لانسون " خير كتاب حول المنهج التاريخي الصرف ، ناصحا أي طالب آداب باطالة التفكير فيه (4) فكان طه

---

1) ـ ألفريد كروازي *A.A. Croiset* 1845 ـ 1923 هيليني فرنسي حقق وألف العديد من المؤلفات . أشهرها كتابه المشترك مع أخيه " تاريخ الأدب اليوناني"

Grand larousse encyclopedique . T3 . Paris . 1973.

2) ـ طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية (ترجمة عبد الله عنان) .سلسلة الأعمال الكاملة مجلد 8 . دار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1975 ص 11

3) ـ ترجم الدكتور عبد الرحمن بدوي هذا الكتاب سنة 1962 ، ونشره ضمن كتاب " النقد التاريخي" . وكالة المطبوعات الكويت .

4) ـ لا نسون : منهج البحث ص 397 .

حسين من العاملين بهذه النصيحة ، جعل هذا الكتاب مرجعه النظري في اعداد الرسالة .

واستفاد كذلك من ارشادات ألفريد كروازي الذي كان طه حسين قد أعجب به وبأخيه موريس في دراساتهما للآداب اليونانية القديمة .[1] لقد استقى من تلك الدراسات ، التي كانت نموذجا منهجيا للانسون في دراسة الآداب دراسة تاريخية ،[2] الأسس النظرية والخطوات العملية للمنهج التاريخي - كما وضحها لا نجلوا وسنيوبوس - مطبقة في التأريخ لأحد الآداب القديمة والعريقة ، وكذلك من المنهج كما رآه مطبقا في كتابات أستاذه لانسون في تأريخه للأدب الفرنسي قديمه وحديثه من خلال كتابه الشهير : " تاريخ الأدب الفرنسي " الذي كان مرجع الطلاب في هذه المادة ، ثم من كتبه الأخرى حول العديد من أدباء فرنسا ومفكريها .[3]

تشبع طه حسين بالروح التاريخية وبالمنهج التاريخي في دراسة الأدب ، من دراسته التاريخ ومنهجيته عند أكبر أساتذة التاريخ الفرنسيين في مطلع القرن العشرين ، ومن دراسته الأدب عند الأخوين كروازي ، ثم تتلمذه على " لانسون " ، فعرف المنهج التاريخي نظرية وتطبيقا من مختلف مصادره ، وعاصر ازدهار اللانسونية وذيوعها ، وكان تاريخيا أحد تلاميذها الأوائل من العرب . وبديهي أن يتعلم منها الشك المنهجي وحرية الرأي والمجاهرة بأكثر الآراء جرأة وتقديس العقل ، ونبذ القديم اذا لم تكن له مزية سوى القدم ، وحب الجديد ، ولو عارض الكثير من العقول المتجمدة وكان سببا في الكثير من المتاعب .

لقد وجد طه حسين - الشاب الطموح ، والثائر العنيد - في السوربون مناخا فكريا ملائما لميوله النفسية والعقلية الثائرة ، فراح يتشبع بالأسس التي يقوم عليها التفكير العلمي المنطقي ، وبالفلسفة الموضعية لأوغست كونت[4] وتجلياتها المنهجية في التاريخ

---

1) - طه حسين : رسالته الى مفتاح طاهر ، ضمن كتابه *Meftah Tahar: Taha Hussayn sa critique et ses sources française . P. 151*

2) - لانسون : منهج البحث ص 395

3) - الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث

4) - طه حسين : الأيام ج 3 . ص 119.

ثم في التأريخ للاداب ، وبذلك رجع سنة 1919 م الى مصر بعقل وذوق يختلفان كثيرا عما ألف المجتمع المصري .

5 - وظائفه وآثاره : عين اثر عودته من باريس سنة 1919 م في الجامعة أستاذا للتاريخ بحكم تخصصه : ((وكان تاريخ اليونان هو الموضوع الذي اختاره صاحبنا لدروسه في هذا العام .))(1) فألفت اليه الانظار بدروسه تلك!ألفت الانظار اليه بدروسه حول التاريخ اليوناني : أولا لاختياره تاريخ اليونان بالذات ، اذ كان يري اليونان من أعظم الأمم حضارة وثقافة - ان لم تكن أعظمها - ودراسة تاريخهم ضرورة علمية لأي طالب حتى يدرك أصول الحضارة الأوروبية الحديثة التي يعدها طه حسين النموذج الذي ينبغي الاقتداء به في مختلف مظاهره .(2) اذا كان تاريخ اليونان يعد الآن من الموضوعات الدراسية العادية في مختلف المقررات التعليمية ، وفي العديد من البلدان العربية ، فان الأمر كان خلاف ذلك أول عهد طه حسين بالتدريس الجامعي ، حيث كان المشايخ والعديد من المثقفين يعتقدون أن دراسة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية أنفع من دراسة تاريخ أمم كافرة . وثانيا للطريقة العلمية التي قدم بها درسه الأول ثم دروسه الأخرى معتمدا عند الضرورة على الوصف الجغرافي لبلاد اليونان ،(3) رابطا الأحداث بأماكنها ، ثم محللا ومعللا وممحصا ومنتقدا لها على ضوء " الشك المنهجي " والتحليل المنطقي في سردها ودراستها ، خلال ماكان معمولا به في تدريس التاريخ بالجامعة ، حيث كانت دروس التاريخ لا تزيد عن عملية نقل من كتب القدماء في غير نقد ولا تعمق ، وفي أيسر ما كان يمكن من فقه التاريخ .(4)

---

1) - طه حسين : المرجع السابق ص 150

2) - علبي (أحمد) : طه حسين ص 427 - 513

3) - طه حسين : الايام ج 3 . ص 150 .

4) طه حسين : الايام ج3 . ص 40

ـشغل كرسي التاريخ اليوناني والروماني ما يقارب الست سنوات دأب خلالها على تقديم التاريخ اليوناني والروماني : ((وأخذ يقرر في جرأة أن مصر اذا شاءت أن تكتسب احترام النفس وأن تمضي قدما في طريق الحياة الحديثة ، فلا بد لها من أن تعود الى تثقيف نفسها وتبدأ من جديد بدراسة الاصول . وأخذ يوءكد المرة تلو الاخرى ، وفي سلسلة من الاعمال التي خاطب بها الجمهور، مبلغ الحاجة الى الدراسات القديمة من حيث هي أساس لكل ثقافة حية .))(2) (1) وترجم جملة من النصوص الشعرية اليونانية لاسخيلوس و سوفوكليس ، تدعيما للافكار الجريئة التي كان يقدمها في دروسه وضمنها كتابه " صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان 1920) ، على اعتبار أنها النموذج المسرحي الذي انطلق منه الاوروبيون بصفة عامة والفرنسيون بصفة خاصة في بناء المسرح الحديث . وترجم كتاب " نظام الأثينيين " (1921 م) لارسطاليس ليكون نموذجا للفكر السياسي ، وكتب جملة من الدراسات عن بعض مفكري اليونان والرومان جمعها في كتابه " قادة الفكر " 1925 م ، أبرز فيها عبقرية أولئك القادة ، وضرورة اقتداء الشباب بهم . وهكذا راح يدعو الطلاب والمثقفين الىالاقتداء بالفرنسيين في الرجوع الى الفكر الكلاسيكي اليوناني الروماني ، والاخذ بالمنهج العلمي الحديث .

ورغم العنت الذي جوبه به في تلك المرحلة ، الا أنه لم يضعف ولم يتراجع عن منهجه ، بل راح يشدد الخناق على المحافظين ويغالي في الدعوة [illegible] حتى جذب اليه جمهورا واسعا من الطلبة ، وأصبح رأس التيار المجدد في الجامعة المصرية .(3) لم يكن

---

1) ـ مثل كتابيه : نظام الاثينيين لارسطاليس وقادة الفكر .

2) ـ جب (ها ملتون) : دراسات في حضارة الاسلام (ترجمة د. احسان عباس وآخرون) دار العلم للملايين . ط3 . بيروت 1979 ص 360

3) ـ طه حسين : مستقبل الثقافة (المجموعة الكاملة) المجلد التاسع . دار الكتاب اللبناني بيروت .ط1.1973.ص 54 ـ 60

طه حسين موءرخا ، وانما حتمت عليه ظروف المنحة دراسة التاريخ ثم تدريسه بعد ذلك.

أما ميوله الفطرية فكانت تشده دوما الى الأدب منذ دراسته في الأزهر على الشيخ المرصفي ثم في الجامعة الأهلية ، وكان تدريس الأدب رغبة تلح عليه ، فراح يعد العدة لتحقيقها بترجمة نصوص أدبية أجنبية ، وكتابة العديد من المقالات الأدبية بعنوان " حديث الأربعاء " منذ 1922 م أثار فيها قضايا أدبية مثيرة مثل : " القدماء والمحدثون " والغزل والغزلون" و " ساعة مع شاعر جاهلي " أثارت اعجاب القراء ، وأبرزت قدراته الأدبية لدى الطلبة والمسوءولين عن الجامعة . كماساقته كتاباته الصحافية الى ولوج الساحة السياسية ، فغرق في الصراعات الحزبية حول السلطة والدستور حتى أذنيه .(1)

جعلته كل هذه الأمور يتبوأ كرسي الأدب العربي سنة 1925 م بدلا من الدكتور أحمد ضيف الذي كان أخفت صوتا ، أدبا وسياسة ، وذلك اثر تحول الجامعة من أهلية الى حكومية .(2)

كان هجوم طه حسين ، من كرسي الأدب العربي على العقلية المحافظة أشد وأعنف ، حيث انتقل من الدعوة الى الاقتداء بنماذج فكرية أوروبية قديمة وحديثة من خلال دروس التاريخ ومترجماته ، الى مهاجمة العديد من المسلمات والمعتقدات من خلال التشكيك في صحة الشعر

---

1) ـ طه حسين : الأيام ج 3 . ص163

2) ـ ينفي الدكتور طه حسين أي دخل له في خروج الدكتور أحمد ضيف من الجامعة ، على اعتبار أنه هو الذي غضب من ترقية طه حسين سنة 1925 الى رتبة أستاذ ، دون ترقيته هو الأقدم شهادة وعملا بالجامعة . ولكن حملة طه حسين على أحمد ضيف التي ذكر فيها عنه أنه مكث بباريس أكثر عشرة أعوام ، كتبت له في نهايتها رسالته جعلنا نتساءل لماذا يتحامل عليه خاصة وأن تواريخ البعثة والمناقشة ثابتة وتدحض زعم طه حسين . ثم لماذا رقي طه حسين سنة 1925 م الى درجة أستاذ أيمع دخول الجامعة تحت اشراف الدولة دون ترقية أحمد ضيف الذي لم تكن له أية صلة بالأحزاب والسلطة ؟

(يراجع رأى طه حسين في هذه القضية في كتاب :

د. محمد الدسوقي : طه حسين يتحدث عن أعلام عصره . الدار العربية للكتاب . ليبيا ـ تونس ط 3 . 1982 ص 50 ـ 51) .

الجاهلي ، فكانت الطامة الكبرى حيث قوبا كتابه " في الشعر الجاهلي " ـ الذى تضمن محاضرات 1925 ـ بهجومات عنيفة أو صلته الى المحكمة ومجلس النواب ، حتى سحب الكتاب من الأسواق ، وأعيدت طباعته سنة 1927 تحت عنوان " في الأدب الجاهلي " مع ادخال تغييرات طفيفة عليه .

ومن هنا راح طه حسين يتدرج في الوظائف من أستاذ ، الى عميد لكلية الاداب (1928 م) الى موظف بوزارة لمعارف (1932) ، وعين مرة أخرى عميدا (1936) ثم مستشارا لوزير المعارف فرئيسا الجامعة الاسكندرية (1942) فوزيرا للمعارف (1950) كان طوال هذه المدة يدرس ويشرف على الرسائل الجامعية ، ويساهم في أعمال اللجان العلمية والتربوية . وبعد خروجه من الوزارة ، تفرغ للنشاطات العلمية والثقافية ، فكان عضوا نشطا بالمجمع اللغوي ، ثم رئيساله بعد وفاة أحمد لطفي السيد سنة 1963 م ، وعضوا في المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ومقرر لجنة الترجمة بالمجلس منذ انشائه ، واستمرفي نشاطاته هذه الى أن وافته المنية يوم 28 أكتوبر 1973 م . (1)

كانت وظائفه عديدة ومتنوعة تنوع آماله وطموحاته ، وكان نتاجه العلمي غزيرا جدا (2) ، فمن الترجمة الى التاريخ ، ومن الدرس الأدبي ونقده الى الابداع الأدبي ، ومن السياسة الى التربية وعلم الاجتماع . لقد كان متعدد الميول والمواهب موسوعي النشاط ورغم ذلك فان المحور الأساس لكل أعماله كان الاعجاب بالحضارة الأوروبية عموما ، والفرنسية خصوصا ، ودعوة المصريين والعرب الى الأخذ بأسباب تلك الحضارة ـ قديمة وحديثة ـ كي يلحقوا بها .

واذا كان لكل مجال من مجالات نتاجه العلمي والثقافي في الحضارة الفرنسية

---

1) ـ د. السكوت (حمدي) ود. مارسدن (جونز) : طه حسين ص 15 ـ 16

2) ـ تراجع ببليوغرافيا أعماله في المرجع السابق . ص 67 ـ 212

نموذج يدعو الى الاقتداء به أو الأخذ بأسبابه ، فان ما يهمنا هو الدرس الأدبي لديـه .

ان دراسات طه حسين الأدبية عديدة جدا ، منها ماكتب بحثا مثل " ذكرى أبـي العلاء" 1915 ومنها ماقدم دروسا جامعية للطلبة مثل " في الشعر الجاهلي 1926 أو " فـي الأدب الجاهلي " 1927 ومنها ماكتب مقالات نشرت في الصحف والمجلات مثل " حديـث الأربعاء" 1925 ، 1926 ، 1945 و " من حديث الشعر والنثر" 1936 و " فصول في الأدب فـي الأدب و النقد" 1945 و" خصام ونقد" 1955 و " نقد واصلاح" 1956 و " من أدبنا المعاصـر" 1958 ومنها مشاركته في تحقيق نصوص تراثية او الاشراف على تحقيقها مثل : " نقد النثر لقدامة ابن جعفر" 1933) و "شروح سقط الزند" و (1945 - 1948) و " تجريد الاغاني" (1955 -1963 لابن واصل الحموي . (1) رأينا كيف كان طه حسين معجبا بأساتذته المؤرخين عامة وبالأخوين كروازي وسنيوبوس ولانسون خاصة ، وبالتالي فان اعجابه بالنهج التاريخي أمر بديهي ، فكيف دعـا الى تطبيقه في الدرس الأدبي ؟ وكيف يتجلى في دراساته الأدبية ؟ ذلك ما سيتضح لنا في الفصلين التاليين :

---

(1) تراجع تفاصيل ذلك في المرجع السابق ص 67 - 212 .

الفصل الثاني :

طه حسين ودعوته للمنهج التاريخي

لا ترجع ثورة طه حسين على المنهج التقليدي - منهج الأزهريين - الى زمن دراسته بفرنسا . فقد رأينا سابقا كيف مج عقله ، وهو طالب بالأزهر ، قول شيخه بثبوت " الطلاق" لمجرد تلفظ الرجل بكلمة مشابهة لكلمة الطلاق مترنمابما قال موءلف الكتاب ، دون تحليل أو تعليل لذلك الرأي.ثار على ذلك المنهج لانّ عقله - حبيس البصر - كان يدفعه الى معرفة دقائق الأمور ، فكان يرفض النتائج المبهمة ، الا أنه لم يكن يعرف طريقة تجنب ذلك الابهام . (1)

واذا كانت ثورته لا ترجع كما ذكرت الى زمن دراسته بفرنسا ، فان دعوته الى الأخذ بالمنهج العلمي الحديث ، لا ترجع هي الاخرى الى ذلك الزمن ، وانما ترجع الى فترة دراسته بالجامعة الأهلية التي بهرته بعلمها ،وبمنهجية التعليم والتفكير فيها منذ سماعه أول درس بها لاحمد زكي بك 1866 - 1934). ثم راح ذلك الاعجاب ينمو ويتبلور بفضل أساتذته المصريين والمستشرقين ، وبصفة خاصة الاستاذ " كارلو نلينو " الذي يعده طه حسين موءسس الروءية العلمية الحديثة في دراسة الأدب العربي ، فبفضله درس طه حسين ورفاقه لاول مرة الأدب العربي القديم دراسة منظمة ، وعرفوا أن الشعر العربي لا يختلف اختلاف أغراضه فحسب ، وانما يختلف باختلاف موضوعاته التي قيل فيها والظروف التي أحاطت به والموءثرات التي أثرت في قائليه وفي سامعيه أيضا . وعرفوا لاول مرة بفضله أيضا دور السياسة في نشأة فنون مختلفة من الشعر العربي في العصر الاسلامي . وعرفوا أيضا امكانية دراسة الأدب العربي على أساس من الموازنة بينه وبين الاداب القديمة الكبرى .كما عرفوا أن الأدب مرآة لحياة العصر الذي ينتج

---

1) - أنظر الفصل الاول من الباب الثالث من هذا البحث ص 180 - 187

فيه ، فهو صدى لها أو دافع من دوافعها . (1)

لقد سمع من أساتذته عموما ، وأستاذه كارلونالينو بصفة خاصة ، أن البحث العلمي الرصين يتطلب الأخذ بالمنهج العلمي الحديث ، كما سمع أن هذا المنهج هو جملة من الأسس والعمليات والعلوم على الباحث أن يأخذ بها ، فجمع شتات كل ما سمعه محاولا تطبيقه في أول بحث قدمه سنة 1914 م الى الجامعة لنيل درجة الدكتوراه

1 - دعوته الى المنهج التاريخي من خلال كتاب " تجديد ذكرى أبي العلاء":

في تمهيده لهذا البحث يطرح جملة من الافكار والآراء المتعلقة بموضوع البحث ومنهجيته ، موضحا أنه سيدرس " أبا العلاء " وفلسفته من خلال أشعاره . وكان باستطاعته أن يرجع الى كتب الأقدمين ، فيسرد طائفة من الأخبار الخاصة بأبي العلاء ، مع جملة من النصوص الشعرية ، قائلا بأنه أعد بحثا ، الا أنه خالف المنهج المعهود ، فهو يقول في أول فقرة :

((ليس الغرض في هذا الكتاب أن نصف حياة أبي العلاء وحده ، وانما نريد أن ندرس حياة النفس الاسلامية ، في عصره ، فلم يكن لحكيم المعرة أن ينفرد باظهار آثاره المادية والمعنوية . وانما الرجل وماله من آثار وأطوار نتيجة لازمة ، وثمرة ناضجة ، لطائفة من العلل اشتركت في تأليف مزاجه ، وتصوير نفسه ، من غير أن يكون له عليها سيطرة أو سلطان)) (2)

انه سيدرس " أبا العلاء وفلسفته " ، الا أن دراسته هذه ستؤدي به الى دراسة النفس الاسلامية ، فالمعري ثمرة ونتيجة لازمة لطائفة من العلل والعوامل الاجتماعية اشتركت

---

1) - طه حسين : مقدمة لكتاب كارلو نالينو: تاريخ الآداب العربية ، دار المعارف بمصر ط2 ، ص 9 - 10 .

2) - طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء (ضمن من تاريخ الأدب العربي، المجلد الثالث) دار العلم للملايين ، بيروت ط1 ، 1974 ، ص 375 .

في تأليف مزاجه ، وبكلمة أخرى فقد أدرك طه حسين أن الأديب أو المبدع ليس طفرة منفردة منعزلة ، وانما ثمرة من ثمرات المجتمع تأثربه ، ليؤثر فيه بدوره : ((والخطأ كل الخطأ أن ننظر الى الانسان نظرنا الى الشيء المستقل عما قبله وما بعده : ذلك الذي لا يتصل بشيء مما حوله ، ولا يتأثر بشيء مما سبقه أو أحاط به : ذلك خطأ، لانّ الكائن المستقل هذا الاستقلال لا عهد له بهذا العالم . انما يأتلف هذا العالم من أشياء يتصل بعضها ببعض ، ويوءثر بعضها في بعض . ومن هنا لم يكن بين أحكام العقل أصدق من القضية القائلة : بأن المصادفة محال ، وأن ليس في هذا العالم شيء الا وهو نتيجة من جهة ، وعلة من جهة أخرى .)) .(1)

درس النفس الاسلامية من هذا المنطلق العلمي ، لانها علة تكوين المعري ، الذي سيتحول بدوره الى علة بعدما اشتهر وذاع صيته ، وصار يوءثر في الغير وكان المنطلق المنهجي واضحا وكان يلتقي ، بغض النظر عن مصدره ، مع المنهج التاريخي في قضيتين تتمثل الا ُولى في كون الاديب ثمرة من ثمرات المجتمع ، والثانية في أنه كما تأثر بتراثه ، فانه سيتحول هو الآخر الى تراث موء ثر في لاحقيه . وعليه سيكون عمل الباحث تأريخا للعلل والاسباب كما حدثت ، وليس له أدنى دخل فيها ، فعلى الموءرخ تطبيق المنهج الحديث المكشف عن العلل والأسباب : ((فالموءرخ الذي لا يوء من بالمذاهب الحديثة ، ولا يصطنع في البحث طرائقه الطريفة ، ولا يرضى أن يعترف بما بين أجزاء العالم من الاتصال المحتوم ، ولا أن يسلم بأن الشيء الواحد على صغره وضآلته ، انما هو الصورة لما أوجده من العلل ، ولا يطمئن الى أن الحركة التاريخية جبرية ليس للاختيار فيها مكان . الموءرخ القديم الذي يرفض هذا كله ، ولا يميل اليه ، ملزم مع

---

1) _ طه حسين : المرجع السابق ص 375 _ 376 .

ذلك أن يبحث عن حياة الامة الاسلامية ، اذا بحث عن حياة أبي العلاء ، فانه ان لـــ
يفعل ذلك ، استحال عليه أن يفهم الرجل، أو يهتدي من أمره الى شيء .)) (1)

رفض طه حسين طريقة القدماء في التأريخ، لأنه آمن بالمذاهب الحديثة في البحـ
و اقتنع بطرائقها الطريفة ، فرفض بالتالي الكثير من الروايات التي أحصاها المؤرخون
كتبهم من غير تثبت و لا تحقيق، لقلة نصيبهم من النقد، لعدم ثبوتها أمام البحث وال
كما رفض مدح الأشخاص أو ذمهم، بناء على حسن ما ينسب اليهم من الآثار أو قبحه ، لأن ذ
ليس من عمل المؤرخ أولا، وثانيا لأن الأشخاص لا ينفردون بالأعمال ، فهم نتيجة من جهة و
من جهة أخرى، ومن ثم لا يحق لنا أن نحملهم مسؤولية أعمالهم وحدهم . و رفض احتكارا
و الغلو في الثقة بالنفس ، باهمال ذكر المصادر أو تجاهلها لأن مفهوم العلم قد تطور :(
كان يمتاز الرجل في العصر القديم ، بكثرة ما أحصى من العلم ، وما وعى من الأخبار، فكا
المعقول أن يضن على الناس بمصادر علمه حتى لا يشارك فيه . أما الآن فقد أصبح الرجل ي
بحسن البحث و التحليل، و اتقان التتبع و الاستقراء، و اجادة النظر و الاستنباط. و منا
أن اظهار مصادره للناس، يعينه على اظهار حظه من ذلك، و اعلان قسطه من التفوق والنبـ

لقد تغير مفهوم العلم من التحصيل و الحفظ الى البحث و التحليل ، و اتقان التـ
و الاستقراء، ومن ثم . لا بد أن يتحول المنهج من سرد للأخبار و ابهار السامعين بكثرتهـ
و جدتها و طرافتها ، الى بحث و تحليل تلك الأخبار للكشف عن عللها من جهة و نتائجها
جهة أخرى، انها رؤية جديدة للتاريخ ، اقتنع بها طه حسين وأعلن اعتمادها أسلوبا فـ
البحث : ((و اذ قد بينا أن الرجل خاضع في أدبه و علمه ، لزمانه و مكانه ، فليس لنا
من أن نقدم بين يدي الكتاب، فصلا في عصر أبي العلاء، وآخر في بلده . ولما كانت الأ

1)_ طه حسين : المرجع السابق ،ص 377 .
2)_ طه حسين : المرجع السابق ، ص 380 _ 381 .

أشد ما يحيط بالرجل أثرا فيه ، خصصنا فصلا آخرلأسرة أبي العلاء. فاذا فرغنا من هذا كلـه عمدنا الى الحياة التاريخية للرجل، ففصلناها تفصيلا، ثم انتقلنا منها الى منزلته الأدبيـة فبينا قسمته من الشعر و النثر، و خصائصه فيهما، ثم الى منزلته العلمية فشرحناها شرحـا مستوفى. ومن بعد هذا كله ، تناولنا فلسفته فاجتهدنا في أن نكشف عنها و نجليها ، ونبيـن تأثرها بما قبلها، وتأثيرها فيهما بعدها.)) (1)

حدد المبادئ و الأسس العلمية التي ينبغي الأخذ بها، وبين مقابل ذلك ما ينبغـي التخلي عنه في البحث، ثم أبرز الخطوات العملية التي بنى عليها بحثه عن "أبي العلاء" شأنه في ذلك شأن أساتذته المصريين المتفتحين على الثقافة الأوروبية الذين وجد فـي مصادرهم الحديثة حول"أبي العلاء" شيئا : ((من الميل الى المنهج التاريخي الحديث.)) (2) ثم أساتذته المستشرقين الذين وجد في مصادرهم حول أبي العلاء المنهج التاريخي الحـق: ((لأن لها من التاريخ كل خصائصه ، وكل مناهج البحث عنه .)) (3) ذلك المنهج التاريخي الـذي سمع به في دروس أستاذه "كارلو نالينو" حول الأدب العربي من الجاهلية الى عهد بني أمية سنة 1910م ، حيث حدثهم كثيرا عن تاريخ الأدب و التأريخ له و كيفية ذلك، ثم أخبرهـم (4) أنه سيطبق في دروسه تلك المنهج المطبق في التأريخ للآداب الأوروبية : ((ان المطلوب مني ليس الا أن أطبق على الآداب العربية أساليب البحث التاريخي التي عادت على تاريخ آدابنا الافرنجية بطائل عظيم .)) (5) .

---

1)- طه حسين: المرجع السابق ، ص 381.

2)- طه حسين: المرجع السابق، ص 384.

3)- طه حسين: المرجع السابق، ص 386.

4)- كارلو نالينو:تاريخ آداب اللغة العربية ، دار المعارف، مصر.ط2، ص 54- 57.

5)- كارلو نالينو: المرجع السابق ، ص 57.

منهجه اذن، هو المنهج التاريخي الحديث، الذي يختلف بالضرورة عن المنهج التاريخي القديم . فالمنهج القديم يقوم على تاريخ الأخبار و المعلومات و الروايات، و نسبتها الى أصحابها ، ثم سردها ، دون تحليل أو تعليل من منطلق احترام الماضي و تقديسه أحيانا. أما المنهج التاريخي الحديث، فلا يكتفي بجمع الأخبار و الروايات و نسبتها ، وانما يتعدى ذلك الى البحث و التحليل و التعليل و الاستقصاء لهذه الروايات بغية الكشف عن أسبابها و نتائجها ، وبذلك تصبح نسبتها مسألة نسبية ، ويصبح الماضي يعامل معاملة الحاضر، أي يدرس دراسة موضوعية .

كانت دعوة "طه حسين" سنة 1914م الى المنهج التاريخي الحديث صريحة ، فقد وجد ضالته في هذا المنهج الحديث لاعمال فكره في دراسة الأدب العربي بعيدا عن أي قيد أو تقديس، فدعا الباحثين الى العمل به كما فعل هو .

2 - دعوته الى المنهج التاريخي في كتاب" في الشعر الجاهلي":

علم طه حسين بالمنهج التاريخي ابان دراسته في الجامعة الأهلية ، أي قبل دراسته بباريس التي درس فيها المنهج التاريخي البحت على سينيوبوس و غيره من المؤرخين الفرنسيين المحدثين، ثم عرفه مطبقا في دراسة الأدب و التأريخ له عند الأخوين كروازي ولانسون الذي قعد للمنهج التاريخي في دراسة الأدب.

و بعد عودته من فرنسا ، و تعيينه أستاذا للتاريخين اليوناني و الروماني بالجامعة، كتب جملة من المقالات الأدبية ، نشرها في مجلتي " السياسة " و "الجهاد" شارك بها في تلك المعارك الأدبية الشهيرة حول موضوع:" القدماء و المحدثون" ، ثم واصل الكتابة حول مواضيع عديدة ، ليجمعها بعد ذلك في كتابه الشهير " حديث الأربعاء" بأجزائه الثلاثة . و على الرغم من قيمة هذا الأثر الأدبية و التاريخية ، فاننا لا نعده عمل بحث علمي، فهو جملة :

((فصول كانت تنشر في صحيفة سيارة ليقرأها الناس جميعا فينتفع بقراءتها من ينتفع ويتفكه

بقراءتها من يتفكه، ولم يكن بد لكتابتها من أن يتجنب التعمق في البحث و الالحاح في التحقيق العلمي، اذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا.))(1)

لقد تجنب عن قصد و وعي "التعمق" و الالحاح في التحقيق العلمي، في هذا الأثر لعدة أسباب : منها أن الصحف السيارة لا تستطيع مسايرة شروط البحث من حيث فنيات النشر و الوقت ، و منها أن هذه الكتابات موجهة للعامة و الخاصة على حد سواء ، و من ثم لا بد من مراعاة مستوى عامة القراء، و منها أن الباحث لا يستطيع تطبيق أسس البحث العلمي حول موضوعات متعددة ، و في وقت وجيز لا يتعدى الأسبوع لكل مقال .

جعلت هذه العوامل طه حسين يتجنب تطبيق المنهج العلمي الدقيق في مقالاته هذه رغم ادراكه و وعيه بضرورة تطبيقه ، لأن من يتجنب شيئا لأسباب معلومة ، يكون مدركا بالضرورة لعدم التجنب حالة تبدل الظروف، الأمر الذي نجده في كتابه :" في الشعر الجاهلي ".

تضمن هذا الكتاب مجمل الدروس و المحاضرات التي ألقاها سنة 1925م على طلبة الجامعة ، ضمن مقرر" الأدب العربي" حيث اقتصر على موضوع "الشعر الجاهلي" وحده ، ليكون له متسع من الوقت في البحث و التمحيص و الاستقصاء .

درس الشعر الجاهلي، مطبقا المنهج العلمي الحديث ، فكان درسه جديدا من حيث المنطلقات ، ثم النتائج ، و كان مدركا لذلك الادراك كله : ((هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديد، لم يألفه الناس عندنا من قبل. وأكاد أثق بأن فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وبأن فريقا آخر سيزورون عنه ازورارا . و لكني على سخط أولئك و ازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث ، أو بعبارة أصح أريد أن أقيده ، فقد أذعته قبل اليوم حين

---

1)- طه حسين : حديث الأربعاء ، ج1 ، دار المعارف بمصر ، ط 11 ، ص 05 .

تحدثت به الى طلابي في الجامعة .)) (1)

كان مدركا لنتائج عمله هذا، العلمية و غير العلمية، فكان مقتنعا بذلك الاقتناع كله، بل كان مصرا على اقتناعه هذا، غير عابئ بسخط الساخطين، لأن ما يهمه هو رضى تلك: ((الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم في حقيقة الأمر عدة المستقبل و قوام النهضة الحديثة و ذخر الأدب الجديد .)) (2)

انه لا يتوجه بهذا العمل الى عامة الناس، و لا الى تلك الفئة من الشيوخ و المعممين الذين قنعوا بما عندهم من كلام الأقدمين، و انما يتوجه الى تلك الفئة القليلة التي استنارت بعلم الأوروبيين، و اقتنعت بأن التقدم و التطور لا يتأتيان الا بالأخذ بأسباب التقدم الأوروبي فأخذت تعد العدة لتغيير المجتمع المصري باقامة المؤسسات الاجتماعية مثل الدستور و غيره، و المناداة بالديمقراطية (3). فكان طه حسين يجسد هذه الرؤية، و يعمل على توضيحها في مجال الدرس الأدبي بدراسته " الشعر الجاهلي " دراسة تاريخية منهجية .

انطلق في دروسه هذه من قضية شغلت الساحة الأدبية بمصر كثيرا وقتذاك، وهي قضية القديم و الجديد في الأدب وأيهما الأفضل، فنبه الى وجه آخر من وجوه القضية، هو جانب البحث بين القديم و الحديث، حيث لاحظ أن البحث في الأدب، يخضع هو الآخر الى رؤيتين متناقضتين : رؤية ترى في أقوال القدماء حقائق علمية تاريخية مسلم بها، و رؤية تضع علم المتقدمين كله موضع البحث ، و هذا من منطلق الشك المنهجي ، وأعلن بأنه من

---

1)- طه حسين: في الشعر الجاهلي . مطبعة دار الكتب المصرية .ط1. القاهرة 1926،ص01.

2)- طه حسين: المرجع السابق ، ص 01.

3)-د.شرف(عبدالعزيز) : طه حسين وزوال المجتمع التقليدي. الهيئة المصرية العامة الكتاب القاهرة 1977 ، ص 146 - 149 .

أنصار الرأي الثاني لأنه يريد : ((ألا نقبل شيئا مما قال القدماء في الأدب وتاريخه الا بعد بحث وثبت ان لم ينتهيا الى اليقين فقد ينتهيان الى الرجحان)) . (1)

انه لا يقبل آراء القدماء ، الا بعد البحث والتثبت ، اللذين قد يوصلان الباحث الى الحقيقة ، فان لم يصل اليها فسيقترب منها ما أمكن ، على حد تعبير " لانسون " قبله . (2)

ان في وسعه بعبارة أخرى دراسة " الشعر الجاهلي " على الطريقة التقليدية فيكرر فيها الاراء المألوفة ، ويقول أصاب فلان وأخطأ فلان ، وبذلك تبقى الأمور على حالها . ولكنه أراد التغيير ، وخلخلة الواقع الثقافي ، فاختار لذلك طريقة المجددين الذين لا ينطلقون من رأي مسلم به ، ولا يثقون في اجماع القدماء ، وبالتالي فهم سيتساءلون ((أهناك شعر جاهلي ؟ فان كان هناك شعر جاهلي فما السبيل الى معرفته ؟ وماهو؟ وما مقداره ؟ وبم يمتاز من غيره ؟ ويمضون في طائفة من الأسئلة يحتاج حلها الى روية وأناة والى جهود الجماعات العلمية لا الى جهود الأفراد .)) (3) انها جملة من التساؤلات ترجع الى الخطوات العملية الأولى التي أوصى " لانسون " باتباعها في دراسة الأثر الأدبي . وهي جهود كبيرة قد لا يستطيع فرد واحد القيام بها ، ولكن تظافر الجهود في عمل جماعي كفيل بالتغلب عليها ، حسب طه حسين ، وحسب أستاذه لانسون قبله . (4)

تساءل هذه التساؤلات وغيرها ، فاستنتج : ((أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الاسلام ، فهي اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة

---

1) _ طه حسين : في الشعر الجاهلي . ص 02

2)- *Lanson(G): Essais de methode, de critique et d'histoire littéraire Hachette. Paris 1965. P. 45.*

3) _ طه حسين : في الشعر الجاهلي ص 05

4)- *Lanson(G): Opcit. P.P. 51-52 .*

الجاهليين .)) [1] ، وبحث عن الحياة الجاهلية فلم يجدلها أثرا واضحا اللهم الا في : ((القرآن من ناحية ، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى .)) [2]

وكان مصدر هذه التساؤلات منطلقا منهجيا واضحا اقتنع به وبجدواه ، اقتداء بالأوروبيين الذين طبقوه منذ زمن في العديد من العلوم والفنون : ((أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث. والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء ، كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما :)) [3] وراح يدعو الى الأخذ بهذا المنهج في دراسة الأدب العربي القديم والتأريخ له وذلك بضرورة نسيان الباحث قوميته وكل مشخصاتها ، ودينه وكلما يتصل به ، وأن لا يتقيد بشيء ، ولا يذعن لشيء الا المنهج العلمي الصحيح ، تلافيا للمحاباة ، وارضاء للعواطف . [4]

كان منهجه اذن هو منهج الشك الديكارتي ، الذي يعتبر موقفا فلسفيا من الحياة كلها وأسلوبا في التعامل معها ، والذي كان المنطلق الفكري للمنهج التاريخي الصرف الذي استحدثه " سنيوبوس " - أستاذ طه حسين - في التاريخ ثم طبقه لانسون " في دراسة الأدب والتأريخ له [5] : ومن ثم ، يدعو طه حسين في كتابه هذا الى المنهج التاريخي. فالتساؤلات التي انطلق منها في دراسته الشعر الجاهلي أولا ، والبحث عن أصول هذا الشعر وتصويره للحياة الجاهلية ثانيا ، ودراسته فنيا ولغويا من منطلق الكشف عن الحس الجمالي الجاهلي ، والمستوى الدلالي الجاهلي لتلك الأشعار ثالثا ، والالتزام بالموضوعية

---

1) - طه حسين : في الشعر الجاهلي ص 07

2) - طه حسين : المرجع السابق 08

3) - طه حسين : المرجع السابق ص 11

4) - طه حسين :المرجع السابق ص 12

5) - طه حسين : المرجع السابق ص 13

والحياد والشك رابعا ، كل ذلك يكون مجمل أسس المنهج التاريخي وخطواته كما حددها لانسون
ومن ثم يمكننا القول أن طه حسين دعا في كتابه هذا الى تطبيق المنهج التاريخي - بدعوته
الى الالتزام بأسس هذا المنهج وبخطواته - تحت اسم " منهج الشك الديكارتي " الذي يعتبر
قاعدة وأصلا من أصول المنهج التاريخي . والتساؤل الذي يطرح نفسه هنا هو : لماذا لم يشر
صراحة الى المنهج التاريخي في دراسة الأدب ؟ هل كان تصريحه بالتزام منهج الشك الديكارتي
يهدف الى ايهام القارىء بأنه -أي طه حسين- اهتدى الى تطبيق الشك الديكارتي في دراسة
الأدب ، أسوة بالفلاسفة والمؤرخين والفنانين ؟ أم أنه فعل ذلك ، لانه أراد أن يحث الطلبة
والقراء على الأخذ بهذا المنهج في مختلف النشاطات الفكرية ، وأن يظهر لهم بالتالي أن
احالتهم عليه أنفع من احالتهم على مجال تطبيقي واحد ؟ أم أنه لم يشر الى " المنهج
التاريخي في دراسة الأدب " لتشبعه بالمنهج التاريخي العام واعتباره الاهتمام بالفرع ثانويا
بالنسبة الى الاصل ؟

خلاصة القول ان طه حسين دعا الى تطبيق المنهج التاريخي " في دراسة الأدب العربي
ضمن كتابه " في الشعر الجاهلي " وحاول تطبيقه ، فكيف كان ذلك ؟ وما هي نتائج تطبيقه
هذا المنهج ؟

3 - المنهج التاريخي في كتاب " في الأدب الجاهلي "

اضطر طه حسين اثر الضجة التي أثارها كتاب "في الشعر الجاهلي" ، ونزولا عند قرار المحكمة
ونصائح البعض من زملائه ، الى ادخال تغييرات طفيفة على كتابه ، فأضاف فصلا عن " النشر
وتمهيدا مفصلا عن تدريس الأدب العربي ودراسته ، وأصدره سنة 1927 م بعنوان"في الأدب الجاهلي"(1)

---

1) - سامح كريم : ماذا يبقي من طه حسين ؟ 67 - 71

استعرض في التمهيد واقع تدريس الأدب العربي بمصر الذي كان آنذاك موزعا بين مذهب الأزهريين التقليدي، ومذهب المستشرقين العلمي الذي استحدثته الجامعة المصرية ، ومذهب ثالث مشوه رديء لا يأخذ بحظ من أسلوب القدماء في النقد ، ولا من أسلوب المستشرقين في البحث ، كان قائما في مدرسة القضاء ودار العلوم والمدارس الثانوية المصرية .(1) ثم جاءت الحرب العالمية الأولى ، فأصاب الجامعة عسر مالي ، اضطرها الى الاستغناء عن المستشرقين ،وبذلك عادت الى تدريس الأدب العربي على مذهب مدرسة القضاء ودار العلوم ، أي على ذلك المذهب المشوه العقيم .(2)

تلك هي حال تدريس الأدب العربي بمصر آنئذ كما رآها طه حسين ، الذي كان قد عقد العزم على اصلاحها ، مقترحا ادخال تغيير جذري في طريقة اعداد معلمي اللغة العربية وآدابها بدراستهم الأدب العربي دراسة علمية حديثة تمكنهم فيما بعد من دفع الطلاب الى قراءة النصوص العربية وفهمها وتذوقها ، ولن يتأتى لهم ذلك ، الا اذا كانوا على مستوى جيد من الدراسة العلمية للأدب العربي مستعينين في ذلك بعلوم مساعدة ولغات أجنبية قديمة وحديثة تعرفهم على روائع الآداب العالمية حتى يضعوا الأدب العربي موضعه الخليق به ، ويستطيعون تدريسه لطلابهم . وبديهي أن هذه الدعوة ، جزء من ذلك الصراع الثقافي العلمي الذي كان قائما بين الجامعة من جهة وبين الأزهر ودار العلوم و مدرسة القضاء من جهة أخرى ، لتباين منطلقات الجهتين فكريا واجتماعيا ، كما سلف القول . ثم استعرض مقاييس أو مذاهب التأريخ للأدب ، مبتدئا بالمقياس السياسي الذي يتمثل في تقسيم الأدب

---

1) ـ طه حسين : في الأدب الجاهلي (سلسلة من تاريخ الأدب العربي) المجلد الأول، دار العلم للملايين بيروت ط1 1970 ص11

2) ـ طه حسين : المرجع السابق ص 13 ـ 16

الى عصور مرتبطة بالعصور السياسية التي مربها العرب . وعلى الرغم من اعترافه بأهمية السياسة والأحداث السياسية في تطور الأدب ونموه ، الا أنه بين الخطأ الفادح في ربط العصور الأدبية بالعصور السياسية ، مستدلا بذلك على ضيق أفق الآخذين بهذا المقياس، ومبينا الأخطاء العلمية التي لحقت الأدب العربي من جراء انبهار الكثرة من الدارسين والطلبة به على عقمه .[1] وكان مصيبا في حملته على هذا المذهب وأصحابه ، اذ من الواضح أن العصور السياسية ترجع الى أحداث تاريخية معلومة أو الى تواريخ معينة ، كانت هي البداية أو النهاية لعصر من العصور التاريخية . ولكن تلك الأحداث أو التواريخ لا يمكن لها أن تكون الحد الفاصل بين ذوق أدبي وذوق آخر ، أوبين جنس أدبي وجنس آخر ، لأن الظاهرة الأدبية بطيئة التحول من جهة ، متنوعة الأسباب من جهة أخرى .

وكان ثمة ، في مقابل هذا المقياس ، الذي يدعي [illegible] ، مقياس علمي ، اشتط أصحابه في الدعوة الى " علمنة " الدرس الأدبي ، أسوة ببقية [illegible] التي اقتبسوا منها مناهجها لدراسة الأدب والتأريخ له ، أولهم " سانت بوف " الذي أراد أن يصل من دراسته لشخصيات الكتاب والشعراء دراسة [illegible] ترتيبا [illegible] لهذه العبقريات ، شأنه في ذلك شأن علماء النبات [illegible] " تين " الذي مضى الى أبعد مما مضى اليه سانت بوف ، حيث رأى أن الفرد عبارة عن [illegible] عوامل ثلاثة هي : الجنس والمكان والزمان . وبدراسة هذه العوامل دراسة علمية دقيقة نستطيع فهم عبقرية الأديب .[3] وثالثهم " برونتيير " الذي مضى في طريق " علمنة " الأدب الى أبعد من صاحبيه ، عندما رأى أن الأدب ظاهرة انسانية تخضع لما يخضع اليه الانسان ونظرا الى أن الانسان مر بمراحل نشوء وارتقاء ، كما بين ذلك داروين ، فان الأدب وفنونه ،

---

1) ـ طه حسين : المرجع السابق ص 37 ـ 42

2) ـ طه حسين : المرجع السابق ص 42 ـ 43

3) ـ طه حسين: المرجع السابق ص 43ـ 44

قدمر هو الآخر بمراحل نشوء وارتقـــاء .(1)

وبعد أن استعرض أعلام التيار العلمي في دراسة الأدب والتأريخ له ، وبين وجهات نظرهم ، ومنطلقاتهم ، والنتائج المستهدفة ، رفض طريقتهم رفضا باتا ، حيث اتضح لـــه أن هذه النزعة العلمية تملكت الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر ، عندما رأوا نتائـــج التطور العلمي تغير حياتهم تغييرا جذريا ، فانصرفوا بذلك عن كل مالا تظهر عليه صبغـــة علمية ما : ((ولم يكن بد للفلسفة والآداب والتاريخ من أن تحيا ، ولم يكن بدلها من أن تلائم بين حياتها وبين بيئتها الجديدة التي تحيافيها ، فلتأخذ هي أيضا صبغة علميـــة ما.فأما الفلسفة فقدأسرع بها أوجست كونت الى هذه الصبغة العلمية الوضعية المعروفـــة وأما التاريخ فقد أسرع أصحابه (....) وأما الأدب فقد أسرع به هوءلاء الثلاثة الذين قدمنـا الاشارة اليهم الى هذه الصبغة العلمية التي حاولوا أن يصبغوه بها ولكن أوفقوا فيمـــا حاولوا ؟ كلا ! لم يوفقوا ولا يمكن أن يوفقوا ، لا لشيء الا لما قدمناه من أن تاريخ الأدب لا سيتطيع بوجه من الوجوه أن يكون " موضوعيا " صرفا ، وانما هو متأثر أشد التأثر وأقسواه بالذوق ، وبالذوق الشخصي قبل الذوق العام .))(2)

رفض طه حسين التيار العلمي في دراسة الأدب ، كما ظهر عند سانت بوف وتيـــن وبرونتيير ، منطلقا من أن الأدب ابداع ، ومن الصعب جدا اخضاع الابداع لقوانين علميـة ثابتة مستقاة من هذا العلم أو ذاك ، وبالتالي فان دراسة الأدب تعتمد أولا على الذوق والتذوق ، لتستعين بعد ذلك بعلوم ومعارف في دراسة جوانب من الأدب دراسة موضوعيـــة ويتضح من رفض طه حسين للمنهج العلمي ، والحجج التي أستند اليها في رفضه ، أنـــه

---

1) ـ طه حسين : المرجع السابق ص 44 ـ 45

2) ـ طه حسين : المرجع السابق ص 45 ـ 46

اعتمد على روءيــة أستاذه " لانسون في رفض ... الأخر للنزعة العلمية عند هوءلاء ، فلقـــــد أرجع كل منهما ظهور هذا التيار الى انبهار الأوروبيين بالتطور العلمي في القرن التاسع عشر . ورفض كلاهما قوانين " تين " انطلاقا من أنها لا تنبت زرعا متشابها ، كما رفضا " علمنـــــة " الأدب اقتداء بالعلوم التجريبية ، لأن ... الدراسة الأدبية ، ولن يعـــــرف الانسان ذوق وطعم أي شيء الا بالتذوق . أما التحاليل ... فهي تكشف عن بعـــض المكونات ولا تكشف مطلقا عن ذوق أي شيء ، ومن ثم فان دراسة الأدب تبدأ بتذوقه . (1) اننا لنلمح أسباب رفض طه حسين للمقياس العلمي جميعها في مقالة لانسون حول المنهج التاريخي ولولا اختلاف أسلوب الرجلين ... الأداب منقولة عن لانسون نقلا .

وبعد أن رفض المقياس السياسي ، رفض كذلك المقياس العلمي الذي رفضه لانسون قبله ، واقترح مقياسا ثالثا اقتنع به ، ورأى أنه المنهج الأمثل لدراسة الأدب : ((وما أظن الا أنك قد أحسست هذا المذهب الثالث الذي نختاره ونقف عنده ونتخذه سبيلا الى البحث عن أدب اللغة العربية وتاريخه ، أحسست هذا المذهب ولمحته في كل ما قدمناه من الفصول . فنحن لا نطمئن الى أن يكون تاريخ الآداب علما كله ، لأن ذلك يبرئه من شخصية المؤلف ويحرمـــه الذوق ويضطره الى أن يكون جافا عقيما ... علي أن يكون تاريخ الآداب من الفن والخفة والخصب بحيث يحبب الأدب الى الناس من جهة ، ويستطيع تفسير الظواهـــر الأدبية واستكشاف الصلة بينها من جهة أخرى . ونحن لا نطمئن الى أن يكون هذا التاريخ فنا كله (...) فتاريخ الآداب اذن يجب أن يتجنب الاغراق في العلم ، كما يجب أن يتجنب الاغراق فـــي الفـــن .)) (2)

---

1)- *Lanson(G): Opcit . P.P.40-43.*

2) ـ د طه حسين : المرجع السابق ص 47 ـ 48

يتمثل هذا المقياس أو المنهج الأدبي الذي نادى به طه حسين لتطبيقه في دراسة الأدب العربي والتأريخ له في الجمع بين العلم من جهة والفن من جهة أخرى ، شأنه في ذلك شأن لانسون : ((ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والاحساس ، واصطناع الحذر حتى يصبح الاحساس وسيلة مشروعة للمعرفة .))(1) فاعتمد كل منهما العلم أو المعرفة والفن أو الاحساس قاعدة للمنهج ، واذا كنا قد رأينا كيف فصل لانسون بين عنصري المنهج وربط بينهما ، فكيف كانت روءية طه حسين لأسس منهجه الأدبي وخطواته ؟

شرح أسس وخطوات منهجه في جملة من العناصر ، على موءرخ الأدب أن يلتزم بها ويطبقها حتى يكون بحثه عملا علميا ، وتتلخص في :

1- الاستعانة بطائفة من العلوم الصرفة مثل فقه اللغة والنحو والصرف والبيان والتاريخ ، تساعده في الكشف عن كثير من خبايا النص الأدبي .(2)

2- العمل العلمي وهو جملة من المهارات والفنيات يقوم بها الباحث عند دراسته أي موضوع أدبي : ((أريد أن أدرس شعر أبي نواس ، فأنا مضطر أول الأمر الى أن أبحث عن هذا الشعر . ولهذا البحث المنظم قواعده وأصوله فاذا وجدت هذا الشعر فأنا مضطر الى أن أقرأه وأحقق نصوصه وأقارن مقارنة علمية دقيقة بين النسخ التي تشتمل عليه . فاذا استخلصت من هذه النسخ المختلفة والنصوص المتباينة نصا انتهى اليه بحثي واختياري ، فأنا مضطر الى أن أقرأ هذا النص قراءة الباحث المنقب الذي يريد أن يفهم ويفسر ويحلل ويستخلص ما في هذا الشعر من خصائص لغوية أو نحوية أو بيانية . فاذا أنا فرغت من هذا كله فاستكشفت النص وحققته وفسرته واستخلصت خصائصه ومميزاته ، مستعينا

---

1) - لانسون : منهج البحث في تاريخ الاداب . ص 404

Lanson(G): Opcit. P. 39 .

2) طه حسين : في الأدب الجاهلي ص 48 - 49

في هذا كله بهذه العلوم المختلفة التي يجمعها لفظ أجنبي لا أعرف كيف أترجمه الى العربية " L'érudition " فقد انتهى القسم العلمي الخالص من عملي مؤرخا للآداب .)) (1)

3ـ العمل الفني ، وهو تذوق النص الأدبي ، قصد ابراز مواضع الجمال فيه، مع اجتهاد الباحث - ما أمكن - في أن يخفف من تأثير شخصيته في ذلك التذوق ، ومن ثم لا يستطيع من يزعم بأن ذوقه هو الأصح أو الأسلم ، فلكل انسان ذوقه الخاص . (2)

4 - قد يوهم تقسيم المنهج الى قسمين : علمي وفني ، بتمايزها في التأليف و انفصالهما عن بعضهما البعض ، فاستدرك طه حسين لذلك انهما مرتبطان ومتداخلان ، فلا وجود في أي كتاب من كتب تاريخ الأدب لقسم فني وآخر علمي ومن ثم ينجز الباحث البحث بمختلف أقسامه العلمية والفنية . أما اذا كان الموضوع كبيرا ، متسع الأطراف ، فان تظافر جهود العديد من الباحثين أمر لا مفرمنه ، فيحقق بعضهم النصوص ويقتلونها بحثا وتدقيقا ، ويدرس غيرهم تلك النصوص دراسة لغوية صرفة . ويتفرغ البعض الآخر للبحث عن شخصية كاتب أوشاعر في آثاره وفي آثار معاصريه ، ثم تأثيره في اللاحقين ، ثم يجتهد في تحقيق الصلة بينه وبين عصره وبيئته ، (3) وبذلك يستفيد مؤرخ الأدب من جهود هؤلاء الباحثين في دراساتهم الجزئية للموضوعات الكبيرة ، ليضع تاريخ أدبه القومي ، أو تاريخ جنس أدبي أو أديب .... ولن يتأتى ذلك الا بتقسيم العمل حسب رأي طه حسين ورأي لانسون قبله . (4)

5) - التأريخ للأدب العربي ليس بالأمر الهين ، اذ على المؤرخ ، في رأي طه حسين ، أن يتسلح بعلوم عديدة ، وأن يستعين بجهود غيره من الباحثين ، ثم عليه بعدذلك

---

1) - طه حسين : المرجع السابق ص 49

2) - طه حسين :المرجع السابق ص 49

3) - طه حسين : المرجع السابق ص 49 - 50

4) - لانسون : منهج البحث في تاريخ الأدب ص 420 - 421

أن يتعامل مع مادة عمله ، ولا يكتفي بما قال غيره ، أي عليه بدراسة الآثار الأدبية التي يؤرخ لها ، فيقرأها وينقدها ويحللها حتى يصفها لغيره وصفا علميا فنيا صادقا .[1]

6 - الخطوات المنهجية السالفة الذكر هي العناصر الأساسية لمنهج البحث الأدبي ، الذي اختاره طه حسين بديلا للمنهج العلمي والمنهج السياسي التقليدي . ولكن تطبيق منهجه المقترح بحاجة الى مبدأ أساسي ، لا وجود لأي بحث علمي بمعزل عنه وهو حرية الفكر التي تضمن لأي باحث النزاهة والموضوعية والصدق في البحث أولا ، والجهر بالنتائج مهما كانت طبيعتها ثانيا . ولولا حرية الفكر لما عرفت العلوم منذ النهضة الأوروبية ذلك التطور السريع، ولما عرفت الفنون والآداب هي الأخرى ماعرفت من التطور والازدهار .والأدب العربي بحاجة ماسة الى التحرر من القيود الدينية والأخلاقية : ((لن توجد العلوم اللغوية والأدبية ولن تستقيم فنون الأدب الا يوم تتحلل اللغة والأدب من التقديس ويباح لنا أن نخضعهما للبحث كما تخضع المادة لتجارب العلماء . ولكن هذه الحرية التي نطلبها للأدب لن تنال لأننا نتمناها ، فنحن نستطيع أن نتمنى ، وماكان الأمل وحده منتجا ، وما كان يكفي أن تتمنى لتحقق أمانيك . انما ننال هذه الحرية يوم نأخذها بأنفسنا لاننتظر أن تمنحنا اياها سلطة ما ، فقد أراد الله أن تكون هذه الحرية حقا للعلم ، وقد أراد الله أن تكون مصر بلدا متحضرا يتمتع بالحرية فيظل الدستور والقانون . فلتكن قاعدتنا اذن أن الأدب ليس علما من علوم الوسائل يدرس لفهم القرآن والحديث فقط ، وانما هو علم يدرس لنفسه ويقصد به قبل كل شيء الى تذوق الجمال الفني فيما يؤثر من الكلام .))[2]

ان تطور الدرس الأدبي عند العرب رهين دراسة الأدب في ذاته ولذاته ، وفي جو فكري

---

1) - طه حسين : المرجع السابق ص 52 - 53

2) - طه حسين : في الأدب الجاهلي ص 56 - 57

أساسه الحرية في التفكير وفي التعبير حتى يكون الباحث صادقا مع نفسه ومع مادة دراسته حنيذاك تصبح الحقيقة العلمية مطلب الجميع، ومن ثم يمكن لموءرخ الادب العربي أن يوءرخ له من منطلق علمي صرف ، بعيدا عن القيود المختلفة .

من التمعن في منهج البحث الأدبي الذي اقترحه طه حسين ، من حيث أسسه وخطواته العملية والفنية ، ندرك أنه يقترح المنهج التاريخي كما حدده لا نسون .

فيشترط من حيث الأسس والمبادىء ، حرية الفكر لقيام أي بحث أدبي جاد ، والاعتماد على المعرفة من جهة والذوق من جهة أخرى في التعامل مع النصوص الأدبية ، بنفسه دون الاعتماد على آراء السابقين ، والاستعانة في بحثه بعلوم مساعدة تعينه على كشف خبايا النصوص ،والسعي الى الحد ، ما أمكن ، من الذوق الشخصي للباحث خلال تعامله مع النصوص ، والبعد عن التزمت العلمي بمحاولة تطبيق مناهج العلوم التجريبية على الأدب . انها جملة من الأسس والمبادىء سبق أن أكد عليها لانسون .[1] لقد أورد طه حسين من حيث الخطوات العملية والعلمية كل الخطوات التي ذكرها لانسون ، الا أنه أوردها مبعثرة ، فهو يجمع خطوات لا نسون الست الأولى فيما أسماه بالعمل العلمي ، وأفرد خطوة لانسون السابعة بالعمل الفني حيث قال : ((بدأ القسم الفني الذي أجتهد ما استطعت في أن أخفف تأثير شخصيتي فيه ، ولكنني أعتمد فيه ، سواء أردت أو لم أرد ، على الذوق .)).[2] أما لا نسون فيقول في هذه الخطوة : ((وبعد ذلك نقيم المعنى الأدبي للنص (...) وفي هذا بنوع خاص يجب أن نستخدم الاحساس والذوق الشخصيين ولكن في هذا أيضا يجب أن نحذرهما ونراجعهما .))[3] وبديهي أن مضمون كلام الرجلين واحد .

أما الخطوتان الثامنة والتاسعة ، فقد أشار اليهما ضمن حديثه عن تقسيم العمل ،حيث

---

1) - أنظر الفصل الثاني من الباب الأول من هذه البحث

2)طه حسين : في الأدب الجاهلي ص 49 .

3) لانسون : منهج البحث في تاريخ الأدب ص 410 - 411

نلمس الخطوة الثامنة ضمن حديثه عن تفرغ بعض الباحثين لدراسة نص من النصوص : ((من حيث هو متصل بالعصر اللغوي الذي أنشىء فيه أو غير متصل ، ومن حيث مقدار هذا الاتصال، ومن حيث ما للمؤلف من حظ في العلم بلغته واتقانه ، ومن حيث ما كان يمكن للغات الأجنبية من تأثير في لغة المؤلف ، وغير ذلك مما يتصل بهذا النحو من البحث .)) (1)

والبحث عن صلة النص بالعصر اللغوي الذى أنشىء فيه ، وحظ المؤلف من العلم بلغته القومية أو بلغات أجنبية ، لا يختلف في شيء عن البحث عن مصادر النص والملابسات التي استجاب لها ، على حد تعبير لانسون في خطوته الثامنة . (2)

وتبقى الخطوة التاسعة - النجاح والتأثير - التي نجدها عند طه حسين ضمن قوله (3) ((وربما يفرغ رجل للبحث عن شخصية كاتب أو شاعر أو عالم ، فيسلك الى ذلك سبلا مختلفة ، يلتمس شاعره أو كاتبه أو عالمه فيما ترك من الآثار ، ويلتمسه في آثار غيره من المعاصرين ويلتمسه في آثار غيره من الذين جاءوا بعده .)) (4) . ولا نعتقد بوجود أي فرق جوهري بين النجاح والتأثير من جهة والتماس شخصية أديب في آثار معاصريه والذين جاءوا من بعده من جهة أخرى ، اذ كيف تلتمس شخصية أديب في آثار معاصريه اذا لم يكن له نجاح في زمانه ؟ وفي الذين جاءوا بعده اذا لم يكن له تأثير في اللاحقين ؟ ! .

---

1) طه حسين : المرجع السابق ص 50

2) لانسون : منهج البحث ص 411

3) طه حسين : المرجع السابق ص 50

41- Meftah Tahar : Taha Hussayn : sa critique littéraire et ses souces françaises; P.P. 113-128.

مما سبق ذكره ، يمكننا القول أن منهج البحث الأدبي عند طه حسين لا يختلف في شيء عن منهج البحث التاريخي كما حدده لانسون ، اللهم الا من حيث الترتيب في الأسس والمبادىء والخطوات ، حيث قدم وأخر عن قصد أو عن غير قصد ، الا أن المنهج يبقي واحدا ، ومن ثم فالمنهج المقترح في كتاب " في الأدب الجاهلي " هو المنهج التاريخي اللانسوني تأثرا بلانسون نفسه ، أو تأثرا بأعمال وأبحاث " شارل سينيوبوس " في المنهج التاريخي الصرف ، وأعمال الأخوين كروازي ذات المنهج التاريخي في دراسة الأدب . (1)

---

1)- *Meftah Tahar: Taha Hussayn: sa critique littéraire et ses sources françaises . P.P. 113-128 .*

الفصل الثالث :

طـه حسين و التطبيق

المنهج التاريخي

1- نتائج تطبيق المنهج التاريخي في كتاب " تجديد ذكرى أبي العلاء "

سبق القول ان طه حسين ذم في تمهيده لهذا البحث منهج القدماء ، مفضلا عليه منهج البحث التاريخي الحديث . وبينا أن هذا المنهج الحديث يتلخص في مفهوم جديد للتاريخ، وفي طريقة جديدة للتعامل معه . ومن هذا المنطلق حدد خطوات بحثه حول " المعري " وتتمثل في دراسة عصره من مختلف الجوانب ، ثم بلده الذي ولد وتربى وعاش فيه ، فأسرته ، ليخلص من ذلك الى حياته الشخصية ، فتتبعها مرحلة اثر مرحلة : ثم ينتقل من دراسة العوامل المؤثرة في تكوين " المعري " الى دراسة نتاجه ، فدرس أدبه شعراونثرا ، ثم بقية نشاطاته العلمية الأخرى ، لينتهي عند فلسفته . درس كل جوانب نشاط المعري الأدبي والعلمي والفلسفي مبرزا تأثره بسابقيه من العرب وغير العرب ، ثم تأثيره في لاحقيه ، منطلقا في ذلك من الموقف العلمي الذي يرى بأن الظواهر التاريخية ليست منعزلة ، بل هي ثمرة لجهود الاسبقين ، وغذاء للاحقين من الأجيال .

تتبع طه حسين هذه العناصر في خمس مقالات ، مخصصا لكل موضوع مقالة . فدرس في الاولى " زمان أبي العلاء ومكانه "[1] أومايعرف في الدراسات التاريخية بالعصر ، فتحدث عن الشعب العربي ، وموضع تلك الفترة من العصور العباسية المختلفة ، والحياة السياسية ، والاقتصادية والدينية والاجتماعية والخلقية والعقلية بما فيها من علوم فلسفية وتاريخ وجغرافيا، وهيئة ، وآداب وشعر وخطابة وكتابة ، والعلوم الأدبية من لغة ورواية ونحو وصرف وعروض وقافية وخط ، لينتهي بالحديث عن معر ة النعمان بلدة المعري من حيث موقعها الجغرافي ووصفها ، معتمدا في ذلك على المراجع المذكورة في تمهيده للبحث قديمة وحديثة . تحدث في هذا الموضوع مثيرا اشكالية تاريخية عن كل عنصر من العناصر السالفة الذكر ، مستعرضا

1) ـ طه حسين : تجديد ذكري أبي العلاء ص 389 ـ 457 .

الرأي المتعارف عليه حوله ، ثم مبرزا وجه الصواب فيه من جهة ووجه الخطأ من جهة أخرى بالاعتماد على التحليل المنطقي ، ليغلف بذلك رأيا جديدا متعارفا عليه في الدراسات الحديثة ، وكأنه نتيجة منطقية جديدة ، استخلصها من تحليله ذاك . فعندما درس العصر العباسي مثلا ومراحله المختلفة ، انطلق في ذلك من قضية ربط العصور الأدبية بالعصور السياسية وخطل هذه الروءية ، على اعتبار أن الأدب ظاهرة متعددة الجوانب تتأثر بالسياسة من جانب وتوءثر فيها من جانب آخر . كما أن العصور السياسية تنطلق من حوادث ظاهرة معلومة في الزمان والمكان . أما العصور الأدبية فتنطلق من عوامل متعددة في الزمان والمكان يصعب تحديدها زمانيا ، رغم العلم بها . فالعصر العباسي الأدبي لا يبتدىء سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة بالتحديد ، وانما ترجع بدايته الى القرن الثاني للهجرة كله ، حيث بدأ الاتصال المادي للعرب بالعجم ، زمن بني أمية ، يوءتي ثماره من تعارف وتزاوج ونقل للعلوم والفنون ، واقتداء بأنماط حضارية لا عهد للعرب بها . ومن ثم قسم العصر العباسي الى مراحل أو عصور أدبية حسب السمة الغالبة على كل عصر أو مرحلة ، فكانت المرحلة الأولى مرحلة النقل وتمتد طيلة القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث للهجرة .وكانت الثانية تمتد من منتصف القرن الثالث الى منتصف القرن الخامس وكانت سمتها البارزة نضج العقل الاسلامي بعدما هضم كل مانقل اليه من ثقافات الامم الأجنبية . أما المرحلة الثالثة فتبدأ من منتصف القرن الخامس حيث طرأت عوامل أضعفت الآداب العربية ، فبدأ بذلك عصر الانحطاط . (1)

انه لتقسيم منطقي ، يكاد ينسحب على كل ظواهر الحياة، اذ تبدأ عادة بالأخذ عن الغير أولا ليكتمل نموها بعد الهضم ثانيا ، ثم تضعف بعد ذلك ، تاركة المجال لغيرها .

---

1) - طه حسين : المرجع السابق ص 398 - 401 .

ثالثا ، ولكننا نتساءل : أين الدليل التاريخي على ذلك ؟ انه لم يعزز هذا الرأي بالمراجع المذكورة في التمهيد، ولم يورد أدلة تاريخية من التراث العربي في عهد بني العباس توضح ذلك ، واكتفى باستنباط نتائج منطقية ..

وفي المقالة الثانية ، درس حياة أبي العلاء ، متتبعا أطوارها طورا طورا ، انطلاقا مما كتب القدماء والمحدثون عنه ، مناقشا كل قضية مناقشة عقلية تفتقر عادة الى الدليل التاريخي . فعندما تحدث عن شبابه ، وما عرف عنه ابان تلك المرحلة قال : ((وقد اتفق أكثر المؤرخين الذين كتبوا عن أبي العلاء ، على أنه كان في أثناء شبيبته في المعرة يجالس الظرفاء ، ويتصرف في فنون الهزل والجد ، ويلعب النرد والشطرنج (...) فأما مجالسته للظرفاء وتصرفه في الهزل والجد، فأمر ليس فيه نكير عليه ، بعد أن عرفنا ذكاء الشاعر وفطنته ونبوغه في فن الشعر ، وأما لعبه النرد والشطرنج ، فيحتاج الى شيء من التدقيق . وما نشك في احدى اثنتين : اما أن تكون الرواية مكذوبة ، مصدرها المبالغة والاغراق فيما شاع من ذكاء الرجل وقوة حسه ، وصدق فطنته ، واما أن يكون لعبه للشطرنج قد كان بأحجار معلمة تميزها الأيدي ، وذلك شيء لم نصل الى معرفته الآن.))(1)

قبل طه حسين الرأي القائل بمجالسة المعري الظرفاء وتصرفه في فنون الهزل والجد في مرحلة شبابه اعتمادا على " ذكاء الشاعر وفطنته ونبوغه في فن الشعر " وكأن ذلك دليل تاريخي ثابت على أن الذكاء والفطنة والنبوغ في فن الشعر أمور تؤدي بالضرورة الى مجالسة الظرفاء وممارسة فنون الهزل والجد معا ! ، علما بأن تلك العوامل قد تؤدي الى مجالسة الظرفاء ، وقد تبعد صاحبها عن ذلك وربما تدفعه الى مجالسة الظرفاء وغيرهم ، كل حسب ميوله النفسية وظروفه الاجتماعية ، ولا يثبت ذلك الا الدليل التاريخي : مثل شهادة المرء على نفسه ، أو روايات تاريخية موثقة ، الأمر الذي لا نجده عند طه حسين.

---

1) ـ طه حسين : المرجع السابع ص 481 ـ 482 .

ناهيك عن غموض الحكم الذي انطلق منه في دراسة هذه المسألة فهو يوء كد " اجماع أكثر الموء رخين الذين كتبوا عن أبي العلاء ... ولكنه لا يحدد نوعيتهم : أهم من العرب القدامى والمحدثين أوفئة واحدة منهم فقط ، أوكل الذين أرخوا للمعري من عرب وأجانب،أو الذين قرأ لهم طه حسين لاعداد بحثه هذا ؟ انها جملة من التساوءلات تبين أن منطلقه التاريخي يحتاج الى التدقيق من جهة والى الدليل التاريخي من جهة أخرى حتى تكون أحكامه المنطقية صحيحة أو أقرب ما تكون من الصواب .

وفي المقالة الثالثة درس " أدب أبي العلاء " شعرا ونثرا ، فقسم شعره حسب أطوار حياته أولا ، ثم حسب الأغراض ثانيا ، متبعا الأسلوب المنطقي في وصف وتحليل مراحل أو أغراض "المعري " الشعرية . وحتى عندما اعتمد على مرجعين في اثبات تميز شعر " أبي العلاء " الفلسفي عن بقية الشعر الفلسفي العربي ، نجده يذكر المرجعين المعتمد عليهما دون أي تحديد : ((مرجليوث اجتهد في أن يقارب بين أبي العلاء وأبي العتاهية في هذا الشعر الفلسفي ، فزعم أن بين الرجلين تشابها ، وتابعه " سلمون " ولقد كنا نحب أن نجتهد في بيان هذا الوهم الذي وقع فيه هذان العالمان ، لولا أن دائرة المعارف الاسلامية التي يكتبها المستشرقون سبقت الى هذا ، فجعلت قياس أبي العلاء الى أبي العتاهية ظلما وحيفا . اذا كان أبو العتاهية يستقي من الدين ويتقيد به ، وكان أبو العلاء يستقي من الفلسفة ولا يتقيد بالدين وهذا الفرق ظاهر الأثر في شعر الرجلين الرجلين .)) (1)

عندما أراد طه حسين أن يثبت أن شعر أبي العلاء الفلسفي يختلف عن بقية الشعر الفلسفي العربي ، على اعتبار أن المعري يصدر في ذلك عن معلومات فلسفية متعددة المصادر من يونانية الى هندية ، ومن اسلامية الى مسيحية فيهودية ، بينما يصدر غيره من الشعراء العرب عن مواقف دينية اسلامية مثل أبي العتاهية ، أو حكمة تجريبية مثل المتنبي

---

1) طه حسين : المرجع السابق ص 561

أوروبية دينية مسيحية مثل عدي بن زيد ، قال ان مرجليوث زعم ، وان دائرة المعارف الاسلامية قد كشفت ذلك الوهم ! وهنا نتساءل : في أي مرجع " زعم " مرجليوث هذا الزعم ؟ ولماذا عده طه حسين " وهما " ؟ ومن كشف من المستشرقين هذا الوهم في دائرة المعارف الاسلامية ؟ وضمن أي موضوع ؟ وهل سبق تاريخيا رأي دائرة المعارف الاسلامية رأي مرجليوث أو العكس ؟ انها جملة من التساؤلات المنهجية الأساسية في المنهج التاريخي ، لانجد لها صدى عندطه حسين في دراسته لهذه المسألة ، رغم أهميتها في الكشف عن الحقيقة التاريخية . فلو بين بالدليل التاريخي أسبقية رأي مرجليوث لرأي دائرة المعارف لوافقناه في حكمه . أما اذا كان رأي دائرة المعارف سابقالرأي مرجليوث ، فمن الممكن أن نعد رأيه جديدا ، قد نوافقه عليه اذا كان معززا بأدلة جديدة أولانوافقه اذاكان يفتقر الى الأدلة الجديدة : وبغض النظر عن أي الرأيين أسبق ، وعمن كشف " وهم " الثاني ، فان ما يهمنا هو الطريقة العقلية التي اتبعها طه حسين في اثبات آرائه ، دون الاعتماد على الدليل التاريخي .واتبع الطريقة نفسها في مقالته الخامسة حول فلسفة المعري وأصولها : ((نريد بهذه الأصول القاعدة التي اتخذها أبو العلاء طريقا الى بحثه عن الاشياء لا يتجاوزها ولا يتعداها . ونحن نعلم أن اليونانيين والمسلمين من بعد هم ، يختلفون أشد الاختلاف في أصول العلم . فأما اليونانيون فمنهم من يرى أن العقل هو المقياس للعلم ، فما رآه حقا فهو حق . وما رآه باطلا فهو باطل . (..) وهناك طائفة أفلاطونية (..) ترى أن العقل يستمد علمه بالاشياء ، من مصدر آخر غير الحس : هو الاشراق الذي شرحناه عند الكلام على التصوف . فأما السوفسطائية ، فقد أنكروا الحقائق حين لم يستطيعوا أن يجزموابصحة ما ينتهي اليه العقل من نتائج البحث (...) أما عامة الفلاسفة والمتكلمين من المسلمين فيثبتون الحقائق ، ولكن المتكلمين يضيفون الى المصادر التي يستقي العقل منها علمه مصدراآخر هو الشرع الذي يأتي به النبي المرسل من عند الله .)) .(1)

---

1) ـ طه حسين : المرجع السابق ص 585 ـ586

وبعد استعراض موقع المعري من هذه الأصول الفلسفية ، وأوجه الاتفاق معها وأوجه الاختلاف ، استنتج أنه يوناني النزعة في فلسفته الطبيعية والرياضية [1] ، اسلامي أحيانا ويوناني أحيانا أخرى في فلسفته الالهية [2] . متعدد الأصول في فلسفته العملية من هندية الى يونانية الى اسلامية وغيرها . وعلة هذا التعدد في فلسفته ، تلك الحالة الفكرية التي كانت تسم عصره من جهة ، وحالته وظروفه الشخصية من جهة أخرى ، ولذلك استنتج طه حسين أن : ((المسلمين لم يعهدوا بينهم في قديمهم وحديثهم فيلسوفا مثله ، قدجمع بين الفلسفة العلمية والعملية ، ثم بينهما وبين العلم واللغة .)) [3] .

نقب طه حسين في بحثه عن أصول كل ما يتعلق بالمعري ، وأثر ذلك في نتاجه ثم مكانته بين معاصريه ، انطلاقا من أن الظاهرة التاريخية نتيجة لعوامل ، ثم سبب أو عوامل لنتائج أخرى بعد ذلك . لم يسلم في بحثه هذا بروايات القدماء أو المحدثين حول ماعرض له من معلومات وآراء ، بل بحث وحلل وناقش كل خبر أورأي مناقشة عقلية منطقية مستخلصا النتائج المنطقية ليعدها بعد ذلك حقائق تاريخية ، الأمر الذي قد يجانب الحقيقة التاريخية أحيانا . والأرجح أن ذلك يعود : الى أنه لم يكن يحسن آنذاك استغلال المراجع ، على أعتبار أن نظام العمل البيليوغرافي ، والتهميش لم يكن أمرا مألوفا ماديا وعمليا في الجامعة عموما لبداءة وسائل البحث البيليوغرافي وفقر المكتبة . أو الى أنه كان يحسن ذلك نظريا ، الا أن ظروفه الخاصة لم تكن تمكنه من تطبيق ذلك ، فقد كان يعتمد في التحصيل على السماع ، بينما يحتاج العمل البيليوغرافي الى البصر . الأمر الذي كان يصعب عليه . وقد يكون السببان مجتمعين معا . ومع ذلك ، فقد حاول تطبيق المنهج التاريخي الحديث حسب فهمه آنذاك ، وحسب قدراته العقلية والمادية ، فاستنتج أن المعري

---

1) طه حسين: المرجع السابق ص 600

2) طه حسين : المرجع السابق ص 622

3) _ طه حسين : المرجع السابق ص 633.

ظاهرة تاريخية ساهمت ظروفه الخاصة والحياة الثقافية في عصره وماقبل ذلك في نشأته الأدبية والفلسفية ، فجاء شعره متميزا عن شعر معاصريه لتنوع مصادره ، كما جاءت فلسفته متعددة الروى لتعدد أصولها وبذلك عده النموذج على تفاعل الثقافات العربية الاسلامية مع اليونانية والهندية والمسيحية واليهودية . ولولا انطلاق طه حسين من مبدأ اجتماعية الأدب ، واعتماده على علوم ساعدته في كشف مختلف جوانب عقلية المعري وابداعه بالرجوع الى مصادر ومراجع ومناقشة آرائها وأخبارها مناقشة منطقية ، لما فهم العديد من جوانب ابداع المعري الشعري وفكره الفلسفي ، رغم ما في أحكامه ونتائجه من افتقار الى الدليل التاريخي الثابت أحيانا ، لأسباب سبق تبيانها . وعموما يمكننا القول ان هذا البحث الذي كتبه سنة 1914 م ، كان المحاولة الأولى في تكسير تقاليد البحث والتأليف المتعارف عليها ، ومن ثم كان له الفضل الأول في ريادة تطبيق المنهج التاريخي بغض النظر عن النتائج المتوصل اليها ورأينا الحالي فيها .

2 ـ تطبيق المنهج التاريخي في كتاب " في الشعر الجاهلي " .

درس طه حسين الشعر الجاهلي دراسة تاريخية ؛ فرفض آراء القدماء القائلة بوجود شعر جاهلي بلغنا بوساطة الرواية والرواة ، وتساءل : أثمة فعلا شعر جاهلي ؟ وما السبيل الى معرفته ؟ وما مقداره ؟ وبم يمتاز عن غيره ؟ وأسئلة أخرى من هذا القبيل .

لم يدون الجاهليون أشعارهم ، لأن حياتهم بدوية أساسها الحل والترحال ، فلا مجال للثبات ولا لوجود أي تراكم حضاري . ولا وجود كذلك لتواريخ قديمة ثابتة تحدثنا عن أشعارهم وثقافتهم ، شأن تواريخ اليونان والرومان في هذا المضمار . ولا وجود لشعرائهم في تواريخ الأمم والامارات المتاخمة والمعاصرة لهم .ومن ثم لا وجود لأي دليل مادي يثبت جاهلية ما سمي شعرا جاهليا ، فكبر بالتالي شك طه حسين في الشعر الجاهلي

وما كان لهذا الشك أن يزول الا بالدراسة الموضوعية لهذا الشعر ، بغض النظر عن نتائجها.
يرى المنهج التاريخي أن الأدب تعبير عن المجتمع ، فثلاثة أرباع الأثر الأدبي ، موروث اجتماعي ، والربع الأخير ابداع شخصي . وضمن الموروث الاجتماعي يظهر المجتمع بماضيه وحاضره ، بابداعه وثقافته ، فأين يظهر ذلك في الشعر الجاهلي ؟ لقد بحث طه حسين في الشعر الجاهلي عن مظاهر الحياة الجاهلية ، فلم يجد شيئا ذا بال عن الأوثان وبقية المظاهر الدينية للحياة العربية الجاهلية ، ولا عن العبيد ومظاهر العبودية التي كانت من الأسس الهامة في المجتمع الجاهلي ، ولا عن صلة العرب بجيرانهم من فرس وروم وأحباش ولا عن وأد البنات وما تبع ذلك من صراعات نفسية بين العادات والتقاليد الاجتماعية والاحساسات الأبوية نحو هذا الفعل ، ولا عن الغارات التي كان يشنها بعضهم على بعض. بحث عن كل هذا في الشعر الجاهلي ، فوجده خلوا ، فارغا من أي تصوير للحياة الجاهلية عكس القرآن الكريم الذي صور تصويرا دقيقا مختلف مظاهر الحياة الجاهلية فأنكر على العرب عبادتهم الأوثان وجادلهم في ذلك مبينا سخف عبادتهم تلك ، وتحدث كثيرا عن العبيد و الرق حاثا المسلمين على عتق الرقاب ، وتحدث عن الفرس والروم وصراعهما وعن الأحباش وعن وأد البنات والاغارة على بعضهم البعض . كما تحدث عن تجارتهم والرحلة شتاء وصيفا الى غير ذلك من مظاهر الحياة العربية الجاهلية التي تحدث عنها القرآن الكريم : فاستنتج من ذلك أن الشعر الجاهلي ليس من الجاهلية في شيء ، فلا دليل تاريخي يدل على وجوده ، ولا دليل أدبي يستخلص منه لتبيان أصله الجاهلي ، وأن القرآن الكريم أصدق تعبيرا عن الحياة الجاهلية من الشعر الجاهلي . (1) انه لاستنتاج منطقي ، لأن الشعر الجاهلي خلو من الحياة الدينية والعقلية والاجتماعية للعرب في جاهليتهم . ولكن لا ينبغي للباحث المدقق التسليم بالنتائج الأولية على أنها الحقيقة الكاملة ، وهذا ماجعل

---

1) _ طه حسين : في الشعر الجاهلي ص 15 _ 23

طه حسين يبحث في لغة ذلك " الشعر الجاهلي " عله يجد ذلك التنوع اللغوي الذي عرفه العرب بين قحطانية عاربة تنزل اليمن وتتكلم الحميرية ، وعدنانية مستعربة تنزل الحجاز وتتكلم لغة عربية غير الحميرية ، أضف الى ذلك تلك اللهجات العديدة تعدد القبائل شمالا وجنوبا ، الا أنه لم يجد شيئا من ذلك التنوع اللغوي في الشعر الجاهلي، وانما وجد شعرا موحد اللغة هي لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم ، فعمت العرب جميعا .(1) لاأثر لأيّ دليل مادي على وجود الشعر الجاهلي، ولا وجود لمظاهر المجتمع الجاهلي في هذا الشعر ، كما أن بناءه اللغوي لا يظهر أي جانب من جوانب تلك الحياة اللغوية المتعددة التي عرفها العرب قبل أن يوحد القرآن ألسنتهم ، ومن ثم تحول شك طه حسين في وجود الشعر الجاهلي الى يقين ، يتمثل في : ((أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الاسلام ، فهي اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . (.....) وأنا أزعم مع هذا كله أن العصر الجاهلي القريب من الاسلام لم يضع ، وأنا نستطيع أن نتصوره واضحا قويا صحيحا . ولكن بشرط ألا نعتمد على الشعر ، بل القرآن من ناحية ، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى .))(2) وهكذا راح يبحث وينقب عن أسباب انتحال المسلمين للشعر الجاهلي من صراع قبلي أساسه البحث عن المجد والعراقة ، الى صراع ديني بين اليهودية والمسيحية والاسلام ، الى نزعة شعوبية عندما عير الأعاجم العرب بماضيهم البدوي الجلف الى صراعات سياسية بدءا بالصراع بين المسلمين و المشركين، فالصراع بين مكة و المدينة ، الى الصراع السياسي العام حول السلطة منذ وفاة الرسول عليه الصلاة و السلام . وكانت أسباب انتحال العرب للشعر الجاهلي وجيهة ومنطقية تؤيد شكه ، و تثبته

1) - طه حسين: المرجع السابق ، ص 24-41 .
2) - طه حسين: المرجع السابق، ص 7-8 .

منطقيا . ولا عجب في ذلك ، فلقد عرفت أمم كثيرة الظاهرة نفسها في آدابها القديمة[1] عندما تحضرت ، وانتقلت من بداوتها .

أوصلت المنطلقات المنهجية التاريخية طه حسين الى استنتاج أن **مايسمى شعرا جاهليا** ليس من الجاهلية في شيء ، وأن الحياة الجاهلية تظهر في القرآن والتاريخ والأساطير . انها نتيجة منهجية ومنطقية ، الا أنها ليست جديدة ، فقد شك قبله الدكتور أحمد ضيف[2] في صحة الشعر الجاهلي ، اعتمادا على آراء المستشرقين الألمان ، والمستشرق الفرنسي " رينيه باسي " بصفة خاصة[3] ، وكان قد شك قبلهم جميعا ابن سلام الجمحي : ((فلما راجعت العرب الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وماذهب من ذكر وقائعهم . وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الاشعار التي قيلت .))[4] ومع ذلك فان الزوبعة التي أثارتها نتائج بحثه لم يعرف لها مثيل في الأبحاث الأدبية عند العرب ، فالى ماذا يعزى ذلك ؟

أثار كتاب " في الشعر الجاهلي " ضجة كبيرة ، قد يتصور البعض أن تطبيق المنهج التاريخي كان سببا في ذلك ، حيث أوصل الباحث الى ما وصل اليه من نتائج ، ولكن المنهج بريء من كل ذلك ، لأن تحليلا موجزا لتلك الضجة وأسبابها يوضح ماذهبنا اليه .

لقد أثار هذا الكتاب فئات معينة من المثقفين المصريين أولها فئة " المشايخ" الأزهريين والقضاة ورجال الدين ، الذين وجدوا في الكتاب آراء وجملا عديدة توحي بمواقف

---

1) 1 - طه حسين السابق ص 42 - 124

2) - د. ضيف (أحمد) : مقدمة لدراسة بلاغة العرب

3) - *Basset (R): La poésie arabe antéislamique : Ernest Leroux editeur Paris. 1880. P.P. 53-68.*

4) الجمحي (ابن سلام) طبقات فحول الشعراء . تحقيق محمود محمد شاكر . السفر الأول . مطبعة المدني . القاهرة . د.ت ص 46

خطيرة على الاسلام مثل قوله : ((للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل . وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لايكفي لاثبات وجودهما التاريخي ، فضلا عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها . ونحن مضطرون الى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ،و بين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى .)) (1) .

لقد وضع القرآن والتوراة في منزلة واحدة من حيث الصدق التاريخي ، انطلاقا من موقف منهجي واضح يتمثل في أن ورود الاسمين في الكتابين المقدسين ليس دليلا تاريخيا على وجودهما وجودا تاريخيا بالصورة التي يتصوران بها ، اذ قد يكونان مجرد رمزين ، أو مجرد مثال لتقريب فكرة معينة . وهذا الشك لا ينفي وجودهما تاريخيا ، ولكنه يشكك في اثبات ذلك الوجود التاريخي ، انطلاقا من هذا الموقف وحده .

ان المنطلق المنهجي سليم ، ولكن طه حسين لم يوضح ذلك ، بل صاغ فكرته بأسلوب يوحي بتشابه الكتابين المقدسين في صحة ماورد فيهما من أخبار تاريخية . ونظرا لما عرف عن اليهود من تغيير وتحريف في التوراة ، فان وضع القرآن موضع التوراة يعني بالضرورة تماثلهما في التحريف ، وهذا سبب من أسباب الثورة على طه حسين وكتابه .

ومن الآراء التي أثارت حفيظة رجال الدين أيضا قوله : ((وشاعت في العرب أثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة أن الاسلام يجدد دين ابراهيم . و من هنا أخذوا يعتقدون أن دين ابراهيم هذا قد كان دين العرب في عصر من العصور ثم أعرضت عنه لما أضلها المضلون وانصرفت الى عبادة الأوثان (...) وتفسير هذا من الوجهة العلمية يسير أيضا ، فأحبار هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم الا بعد الاسلام ، لاالشيء الا ليثبت أن للا

---

1) - طه حسين : في الشعر الجاهلي ص 26

في بلاد العرب قدمة وسابقة .)) . (1)

لقد شك في هذه المسألة ، لانها صعبة التقبل منطقيا ، ولا يوجد أي دليل مادي أو تاريخي يثبتها ، ومن ثم يخلص الى أن أصل الاسلام لا يبحث عنه في دين ابراهيم الذي لا يوجد له أي أثر وانما يبحث في اليهودية والنصرانية ، الديانتين السابقتين للاسلام ، والمتضمنتين الكثير مما ورد في القرآن ، فيشير بذلك " المشايخ " لأنه يكتب عن هذه الديانات الثلاث بأسلوب يوحي تشابهها وتماثلها ، دون أن يفصح بأنه يقصد اشتراكها في المصدر أو المضمون العام ، الأمر الذي لن يخالفه فيه أحد .

أثار رجال الدين لأن أسلوبه يوحي بتكذيبه القرآن في أخباره عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ،ولانكار أن تكون القراءات السبع منزلة من الله تعالى ، وطعنه في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانكاره أولية الاسلام في بلاد العرب ، وانه كان دين ابراهيم عليه السلام (2) ثار رجال الدين بسبب اشاراته الدينية أو التي لها علاقة بالدين ، ولا نكاد نجدلهم احتفاء بالنتائج الأدبية الصرفة .

كما أثار فئة معلمي الأدب بمدارس الحكومة مثل مدرسة دار العلوم ، ومدرسة المعلمين ، الذين رأى في دروسهم تكرارا لآراء القدماء شأنهم في ذلك شأن الفقهاء : ((هم لم يغيروا في الأدب شيئا .وما كان لهم أن يغيروا فيه شيئا وقد أخذوا أنفسهم بالاطمئنان الى ما قال القدماء وأغلقوا على أنفسهم في الأدب باب الاجتهاد كما أغلقه الفقهاء في الفقه والمتكلمون في الكلام .)) (3)

ولا يرجع رأي معلمي الأدب في طه حسين وكتابه الى نتائجه الأدبية بالدرجة الأولى وانما مرده اعتقادهم أن تهجمه عليهم يعود الى ذلك الصراع القائم بين الجامعة رمز التجديد

---

1) _ طه حسين : المرجع السابق ص81

2) _ سامح كريم : ما ذا يبقى من طه حسين . دار القلم . بيروت . 5 . ت ص.67

3) _ طه حسين : في الشعر الجاهلي ص 04 _ 05

والدعوة الى الفكر الليبيرالي البرجوازي ، وبين الموءسسات العريقة مثل الأزهـــر ودار العلوم ، ولذلك : ((أراد أن يحط ما استطاع من قدر الفئة التي يناصبها العداوة ليخيل الى الناس أن الناس لا يفقدون شيئا بالغاء تلك المعاهد التي يطالب بالغائها ويربحون كثيرا باحلال كلية الآداب في الجامعة الحديثة محلها .)) [1] . انه لصراع واضح بين موءسسات تعليمية وثقافية تمثل طبقات مختلفة ، أي صراع طبقي ، كان طه حسيـــن أداة نشطة فيه ، خاصة وأنه كان يعرف خبايا كل طبقة وأسرارهـــا ، ومـــر عليها ، ومن ثم فان هجوماته كانت هجومات العارف بخبايا الأمور، المدرك لمواطن الضعف عند كل طبقة . كما أثار فئات سياسية ، أوصلت المعركة الى البرلمان والمحكمة ، مستغلة في ذلك ثورة باقي الفئات الثقافية ، لاجل كسر شوكته ، وبالتالي كسر شوكة حزب الدستوريين الأحرار ، [2] الذي جعل منه وسيلة لنشر أفكاره وآرائه الوطنية والليبرالية ، اقتداء بالأمـــم التي تعرف حياة دستورية حقيقية .

وهكذا نلاحظ أن الضجة التي أثارها كتاب " في الشعر الجاهلي " ترجع الى أسباب متعددة ومتنوعة ، أولها وأهمها أسباب غير أدبية وغير منهجية ، وانما هي أسبـــاب دينية وسياسية ونفعية اشترك فيها طرفا الخصام بحظ متماثل من المسوءولية .

كانت ثورة مختلف الفئات على الكتاب وصاحبه ترجع في جملتها الى الصراع الثقافي الذي عرفته مصر في العقدين الثاني والثالث من هذا القرن بين الطبقة الحاكمة ، التـــي كانت تسعى الى اضفاء الصبغة الدينية على النظام ، من منطلق شرعية نظام الخلافـــة ، وبين الطبقة البرجوازية ، التي كانت تهدف الى تغيير نظام الحكم الى نظام مدنـــي ليبرالي متحرر اقتصاديا وفكريا ، اقتداء بالانظمة الاوروبية الحديثة ، وبين طبقة عامـــة

---

1) ـ الغمراوي (محمد أحمد) :النقد التحليلي لكتاب " في الأدب الجاهلي " دار الحكمة 1970 ص 20 ـ 21

2) ـ سامح كريم : ماذا يبقى من طه حسين ص 67 ـ 68 .

الشعب التي كانت تحاول الافلات من القيود الاقتصادية والسياسية والفكرية التي كانت تكبلهـــا .

وتكمن مسؤولية طه حسين في اثارته الفئات المختلفة ، في أسلوبه الايحائي الذي لم يعتمد فيه الدقة الدلالية في الأفكار والمعاني . اذ نراه من حيث الأفكار يورد أفكاراً مثل قصة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، تطرح قضايا منهجية ، الا أنه لا يوضح منطلقه المنهجي في ايراده تلك الأفكار ، الأمر الذي يجعل القارئ يستنتج معاني قد تكون مناقضة للحقيقة .

وبديهي أنه كان مدركا الادراك كله لطريقته هذه ، ولنتائج عمله هذا ، فقد صرح بذلك في مقدمة البحث . لقد كان يهدف الى اثارة القراء ، وخلخلة الواقع الثقافي الراكد ، والفات الأنظار اليه . واستطاع أن يحقق تلك الأهداف : ((لقد أراده مجالا لتفجيرآراء تبلغه هذه الشهرة المدوية ، ولم يكن يعنيه كثيرا صواب تلك الآراء بذواتها ، بقدرما كان يعنيه هز المشاعر والعقول هزا عنيفا ، واثارة الجدل والنقاش حول الكتاب وما فيه وتحريك الركود الذي كان غالبا على الحياة العقلية في تناولها أدبنا القديم .)) (1)

لقد حقق بكتابه هذا الأهداف المتوخاة منه ، فأثار زوبعة نقدية أتاحت له شهرة واسعة ، رغم أنه لم يلتزم فيه كثيرا بأسس المنهج التاريخي ودقته العملية (2) . ذلك المنهج أو المقياس " الأدبي " الذي فضله على بقية المناهج ودعا الطلاب والباحثين الى تطبيقه في دراستهم للأدب العربي القديم ، الا أنه لم يلتزم بتطبيقه الالتزام التام للأسباب السابقة الذكر ، وربما لأسباب شخصية ، حيث نراه لا يراعي كثيرا الدقة العلمية في ذكر

---

1) ـ د. الأسد (ناصر الدين) : ذكرى طه حسين . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة 1977 ص 123 ـ 124

2) ـ د. فيصل (شكري) : ذكر طه حسين . ص 337 ـ 340 .

آراء وأفكار غيره من الباحثين العرب والمستشرقين . فلا يذكر الصفحة التي اقتبس منها الفكرة ولاالكتاب ، مكتفيا باسم " المؤلف " ، وربما لا يذكر حتى اسم المؤلف مكتفيا بمثل قوله : " أجمع القدماء " ! أو " يرى المستشرقون "!تاركا القارىء في حيرة من أمره فهو لا يعرف من ينضوي تحت "القدماء " وهل تقصى طه حسين آراء كل القدماء ؟ أو أنه يقصد القدماء الذين اطلع على آرائهم الى غير ذلك من التساؤلات التي سيطرحها على نفسه من جراء مثل هذه الأحكام التي تحتاج الى دقة منهجية . تلك الدقة المنهجية التي درسها عند " سينيوبوس " في التاريخ و" كرواوزي ولانسون " في دراسة الأدب . وتفسير ذلك أن ظروفه الشخصية لم تكن تساعده على استعمال بطاقات وترتيبها واستغلالها خلال عملية التحرير ، فكان يتحتم عليه الاعتماد على ذاكرته دون الاستعانة بالبصر ، فيخزن المعلومات ، حتى اذا اكتملت في ذهنه الفكرة أو القضية راح يملي أجزاءها ناسبا عناصرها الأساسية الى أصحابها ، ذاكرا أسماء هم أو الفئة التي ينتمون اليها ، دون تدقيق في المصادر والمراجع لأنّ ذلك عمل شاق على كفيف من جهة ولأنّ ظروف البحث المادية في تلك المرحلة الزمانية كانت لا تزال في مراحلها الأولى . فالمكتبات قليلة ، والكثير من كتب التراث الأدبي العربي كان غير محقق وغير منشور . ومن ثم كان من الصعب على الباحث العربي وقتذاك أن يطبق عمليا المنهج التاريخي تطبيقا دقيقا ، فكانت الدعوة الى المنهج خطوة كبيرة وتطبيق بعض أسسه النظرية شيئا جديدا قد يثير زوابع كما حدث مع طه حسين وكتابه في الشعر الجاهلي الذي نستطيع عده ثورة منهجية في ساحة الدرس الأدبي الحديث عند العرب ، بطريقته في الطرح . وليس بما أورد من معلومات منهجية .

3 - تطبيق المنهج التاريخي في كتاب " في الأدب الجاهلي :

رأينا في الصفحات السابقة أن منهج البحث الأدبي الجديد الذي اقتنع به " طـــه حسين " وحث طلابه وقراءه على تطبيقه في دراسة الأدب العربي هو المنهج التاريخي اللانسوني ، كما رأينا أنه لم يلتزم التزاما دقيقا بهذا المنهج في كتابه " في الشعـــر الجاهلي " لأسباب عديدة ، أهمها أنه لم يكن يسعى الى تأليف كتاب علمي دقيق ، بقدر ماكان يسعى الى اثارة القراء والمثقفين وهز الأوضاع الأدبية . واننا لنراه في الطبعـــة الثانية للكتاب تحت عنوان " في الأدب الجاهلي " يوضح منهجه أكثر نظريا ، فيشرح كل أسسه وخطواته العلمية ليبرز في صورة مشابهة ، لحد المطابقة أحيانا ، مع المنهـــج التاريخي اللانسوني . ويلح على ضرورة تطبيقه في دراسة الأدب العربي وتدريسه ، الا أنـــه لا يبدأ بتقديم نموذج تطبيقي لهذا المنهج المقترح في تأريخه " للأدب الجاهلي تطبيـــق أستاذه " لانسون " لهذا المنهج في تأريخه للأدب الفرنسي . (1)

والسؤال الذي يطرح نفسه بالحاح : لماذا لم يطبق المنهج التاريخي الذي اقتنـــع به ودعا له ، في الطبعة الثانية للكتاب ، بعدما حقق الشهرة ، ولفت كل الأنظـــار اليه ، وشغل كرسي الأدب العربي ؟ ولماذا لا نراه يحرص على تطبيقه في موء لفاته الأدبية اللاحقة ؟ يبدو أنه اقتنع بالمنهج التاريخي عندما راى النتائج العلمية التي وصل اليهـــا بفضله البحث الأدبي الفرنسي ، فأحب أن يقتدي العرب بالفرنسيين في دراسة أدبهـــم ومن ثم دعا الى تطبيق المنهج التاريخي ، ولم يطبقه في أبحاثه ، رغم اقتناعه به ، لأسباب ذكر بعضها ، ولم يذكر بعضها الآخـــر .

---

1) - ينظر في ذلك كتاب " لانسون : " تاريخ الأدب الفرنسي بالفرنسية أو مترجمـــا الى العربية ، حيث ترجمة في جزأين سنة 1962 م الدكتور محمود قاسم وراجعته الدكتـــور سهير القلماوي ونشرته الموء سسة العربية الحديثة للطبع والنشر بالقاهرة .

أما الأسباب التي ذكرها ، فتتلخص في أن أوان التأريخ للأدب العربي تأريخا علميا دقيقا لم يحن بعد : ((من هنا نستطيع أن نقول ان الوقت لم يأن بعد لوضع تاريخ أدبي صحيح يتناول آدابنا العربية بالبحث العلمي والفني ، ذلك لأنّ هذه الجهـــود المتفرقة لم تبذل بعد ، ولأن هذه العلوم المختلفة لم تعرف وجهها العلمي الصحيح عندنا بعد . وكيف تريد أن تضع تاريخ الأدب العربي وأنت لم تستكشف ولم تحقق ولــم تفسر كثرة النصوص العربية القديمة في الجاهلية والاسلام ! وكيف تريد أن تضع تاريـــخ الأدب العربي ولم يدون للغة العربية فقهها على نحو ما دون فقه اللغات الحديثـــة والقديمة نحوها وصرفها .ولم يعن الباحثون بوضع المعاجم التاريخية التي تبين لك ـ معتمدة على النصوص الصحيحة ـ تطور الكلمات في دلالتها على المعاني المختلفة : فتمكنــــك بذلك من أن تفهم النصوص الأدبية على وجهها وكما أراد أصحابها .))(1)

انه لسبب منطقي فبدون الوسائل والعلوم السالفة الذكر يصعب على الباحث فهم النصوص الأدبية فهما صحيحا ، ووضعها موضعها الخليق بها ضمن عصرها أولا ، وضمن جنسهـا ثانيا ، وضمن حركة التطور الأدبي وعصوره ثالثا ، خاصة وأن التراث العربي كان وقتــذاك في المراحل الأولى من تحقيقه ونشره . كما أن علوم اللغة العربية والتاريخ كانت ـ آنذاك ـ لا تزال هي الأخرى في مرحلة الاقتباس والتأثر ، ومن ثم لم يكن من السهـــــل على الباحث في ذلك الزمن أن يطبق المنهج التاريخي في دراسته للأدب تطبيقا منهجيــا دقيقـــا .

أما الأسباب التي لم يذكرها ، فتتلخص في ظروفه العامة والخاصة . كـــــان من حيث ظروفه العامة ، كان أديب التيار الليبرالي المتحرر ، وكان هم هذا التيار الأول

---

(1) ـ طه حسين ، في الأدب الجاهلي ص 51 ـ 52

والأساس التخلص من جمود التقليديين بالتشكيك في المسلمات التي تحد المجتمع وفكره من الانطلاق. وهذا ما عمله في دراسته للشعر أو الأدب الجاهلي ، اذ لم يكن هدفه الأساس تطبيق المنهج ، بقدر ما كان الدعوة اليه والاقناع به ، وحث الناس على العمل به ، ليضمن بذلك تخلص فئة من المثقفين من عقلية التسليم بالمتعارف عليه . وهذا هو الاهم عنده ، وعند التيار الفكري الذي كان ينتمي اليه .

أما ظروفه الخاصة ، فتتمثل في شخصيته الأدبية المتعددة الجوانب ، فهو لم يكن عالما أو بحاثة مدققا شأن أساتذته كروازي ولانسون ، وانما كان باحثا وشاعرا وقصاصا ومترجما ومؤرخا وسياسيا ، أي كان من تلك الفئة من الأعلام الموسوعيين الذين يصعب على الواحد منهم التقيد بقيود شخصية معينة لتعدد اهتماماته .

وتتمثل ظروفه الشخصية كذلك في وضعه الصحي ، فقد كان كفيفا لا يستطيع الاعتماد على بصره بينما تحتاج خطوات المنهج العملية الى البصر التدقيق البصري ، ومن الصعب استبدال البصر بالسمع في معاينة ورق مخطوط مثلا ، أو خطه ، أو حالة نسخه المختلفة ، ولذلك أشرف على تحقيق الكثير من النصوص التراثية لعلمه بفنيات التحقيق ، ولكنه لم يحقق بمفرده أي أثر وهذا نظرا لظروفه الصحية من دون شك .

خلاصة القول ان طه حسين عرف المنهج التاريخي نظرية وتطبيقا من أصوليه الأساسيين ، فأعجب به وبنتائجه العلمية في الآداب الأوروبية فدعا الى تطبيقه في دراسة الأدب العربي والتأريخ له تحت اسم " المنهج الأدبي " في مقدمة كتابه في " الأدب الجاهلي " ، وطبقه الى حد ما في كتابه " في الشعر الجاهلي " عندما بنى كتابه كله على فكرة " صدور الأدب عن المجتمع ثم تصويره له " فبحث في الشعر الجاهلي عن مظاهر المجتمع الجاهلي من لغة ودين وعادات وتقاليد ، فلم يجد لذلك أثرا فاستنتج أن الشعر الجاهلي لا يصور الحياة الجاهلية ، ومن ثم لم يعبر عنها ، لأنه موضوع ، بعد فترة

وتتمثل ظروفه الشخصية كذلك في وضعه الصحي ، فقد كان كفيفا لا يستطيع الاعتماد على بصره بينما تحتاج خطوات المنهج العملية الى البصر التدقيق البصري ، ومن الصعب استبدال البصر بالسمع في معاينة ورق مخطوط مثلا ، أو خطه ، أو حالة نسخه المختلفة ، ولذلك أشرف على تحقيق الكثير من النصوص التراثية لعلمه بفنيات التحقيق ، ولكنه

من تغير الحياة الجاهلية . وبحث في أسباب الوضع أو انتحال الشعر الجاهلي بحثا تاريخيا أساسه التفكير المنطقي ، وليس الادلة التاريخية المادية الثابتة لأنها غير موجودة أصلا ومن المنطلق نفسه بحث عن مظاهر الحياة العربية الجاهلية ووجدها في القرآن الكريم والحديث وكتب التاريخ والأساطير ، فاستنتج أن القرآن الكريم أكثر تصويرا للحياة الجاهلية من الشعر الجاهلي ، الأمر الذي جعل الكثير من القراء والمثقفين يفهمون كلامه من حيث ايحاءاته الدينية مهملين الايحاءات الأدبية ومنطلقاتها المنهجية . فكانت تلك الزوبعة الأدبية التي حركت الحياة النقدية العربية وبوأت طه حسين مكانة مرموقة في الساحة الأدبية .

وعموما نستطيع القول أن طه حسين استوعب جيدا المنهج التاريخي وعرضه على طلابه بوضوح تام ، الا أنه لم يطبقه في دراساته تطبيقا دقيقا ، لعدة أسباب منها الموضوعية ومنها الذاتية . ورغم ذلك يبقي من أكبر دعاة اللانسونية في دراسة الأدب العربي .

الباب الرابع

محمد مندور واللانسونية

الفصل الأول

محمد مندور وصلته باللانسونية

1 - حياتـــــه :

ولد محمد مندور في الخامس من جويليـة سنة 1907 م في كفر مندور بالقرب من منيـا القمح بالشرقية في أسرة كبيرة تتكون من تسعة أعمام ووالده وعمة واحدة ، تقاسموا تركـة جده المتمثلة في أربعمائة وخمسين فدانا موء سسين بذلك كفر مندور .(1) كان والده علـى شـيء من التعلم ، فقد كان يقرأ بسهولة ، ولكنه كان لا يستطيع الكتابة . وكان شديد التديـن ينتمي لمذهب " النقشبندية " الصوفي ، فكان يخلو بنفسه من حين لآخر في حجرة صغيـرة أقامها في حقله للذكر.وكانت تصرفات والده مثار اعجابـه ، حيث كان رجلا متسامحا يبغـض العنف والشر على خلاف ما اشتهرت به أسرة مندور كلها من ضراوة وعنف وقوة شكيمة .

أرسله والده في حوالي الخامسة من العمر الى كتاب " الشيخ عطوة " المتكون من حجرة واحدة بنتها أسرة مندور في أرض الوقف ، فتعلم على يديه القراءة والكتابة والحساب وجزء عم وجزء تبارك بالطريقة التقليديـة .

التحق بعد الكتاب بمدرسة الألفي الابتدائية بمنيا القمح ، وكانت تبعد عـن الكفر بحوالي ستة كيلومترات ، عرف فيها مضايقات الطريق وقسوة المدير فكبت الخـوف ملكاته ولم يلمع - على حد قوله - خلال هذه المرحلة أبدا . وهكذا نجح سنة 1921م فـي امتحان الشهادة الابتدائية نجاحا عاديا ، والتحق بالقسم الداخلي لمدرسة طنطا الثانوية

---

1) - اعتمدت في الترجمة لمندور على حديثه مع فوءاد دوارة الذي نشر في مجلة " المجلـة " المصرية عدد ديسمبر 1964 وفبراير 1965م بعنوان " شيخ النقاد يتحدث " ثم نشـره ثانية ضمن كتابه " عشرة أدباء يتحدثون " كتاب الهلال رقم 172 القاهرة 1965 . وهذا المصدر هو أساس ترجمات كل من :

- رياض (هنري) : محمد مندور رائد الأدب الاشتراكي . دار الثقافة بيروت . مكتبـة النهضة السودانيـة 1965
- د. برادة (محمد) : محمد مندور وتنظير النقد العربي دار الاداب ط. بيروت 1979
- د. شكري (غالي) : محمد مندور : الناقد والمنهج دار الطليعة .ط1 بيروت 1981

لعدم وجود مدرسة ثانوية بالزقازيق عاصمة المديرية .

عرف في المدرسة الثانوية الأمن والنظام ونظافة الحياة ، فبدأت مواهبه تتفتح حتى صار الأول على قسمه ، ثم على السنة كلها لينجح في البكالوريا آداب سنة 1925م بترتيب الثاني عشر على القطر كله ، وكان لهذه النتائج أثر كبير حيث اعتقد أهله أنه موهوب وأن المجد ينتظره ، فصدق ذلك ، وامتلأت نفسه ثقة فبذل الكثير من الجهد للتفوق وتحقيق الحلم . كما لفتت اليه هذه النتائج الجيدة أنظار بعض خيار المدرسين في مدرسة طنطا الثانوية مثل الأستاذين السباعي بيومي ، وأحمد هاشم عطية ، اللذين كانا يدرسان له اللغة العربية وآدابها - وصارا فيما بعد أستاذين بكلية دار العلوم - فتبرعا له ولآخذ زملائه المتفوقين بدروس خصوصية في الأدب العربي ، خصصت لقراءة صفحات من أمهات الادب العربي القديم ، مثل " الكامل " للمبرد و " الأغاني " ... و " الأمالي " لأبي علي القالي ، و " العقد الفريد " لابن عبد ربه . فأحب الأدب منذ ذلك الحين ،وراح يقتني أمهات كتب الأدب العربي غائصا في عوالمها ، ومن ثم تشبعت روحه بحب اللغة العربية وأدبها ، وصارت القراءة متعته الأساسية . كان من البديهي أن ينجح مندور في امتحان البكالوريا لما اتسم به من جد واجتهاد طيلة دراسته الثانوية وصادف نجاحه في البكالوريا سنة 1925 م تحول الجامعة الأهلية الى جامعة حكومية رسمية معترف بشهاداتها اداريا ، فالتحق بها مندور عازما على تسجيل نفسه في كلية الحقوق بعد اجتياز السنة الأولى المشتركة بين الحقوق والآداب . كان يريد الالتحاق بكلية الحقوق ليصبح وكيل نيابة مثل أولئك الذين كانوا يحضرون الى الكفر من حين لآخر فتهتز القرية كلها لمقدمهم ، ولكن الدكتور " طه حسين" دخل يوما على طلبة السنة الأولى، وألقى عليهم محاضرة حول " الشعوبية وانتحال الشعر " ثم طلب منهم تلخيصها في خمس دقائق. فأعجب " طه حسين " بملخص مندور ، فاستدعاه لمقابلته ، واستفسره

عن الكلية التي ينوي التسجيل فيها . ولما علم بنية الطالب ، حاول اقناعه بالعدول عن الحقوق الى الآداب ، وأغراه بامكانية توظيفه في الجامعة ، وربما ارساله في بعثة دراسية الى فرنسا ، ولكنه لم يفلح في مسعاه لأن مندور كان يبحث عن الجاه والسلطة والمكانة الاجتماعية ، فاتفق معه أستاذه على دراسة الآداب الى جانب الحقوق ، خاصة وأن دروس الآداب صباحية ، بينما الحقوق مسائية ، وتعهد باعفائه من مصاريف كلية الآداب . كان طه حسين معجبا بمقدرة مندور الأدبية ، فاستعمل مختلف الوسائل والاغراءات لاجتذابه الى قسم اللغة العربية .

كما أعجب بالطالب أستاذ مادة "علم الاجتماع" "هوستليه" الذي راح هو الآخر يحاول اقناعه بأفضلية علم الاجتماع ، وحداثته كعلم ، فتابع دروس هذا القسم أيضا جامعا بذلك بين التخصصات الثلاثة . وهكذا راح يتابع دروس كلية الآداب صباحا ، والحقوق مساء ، وكان ترتيبه الأول على دفعته في اللغة العربية طيلة الدراسة ، وضمن الخمسة الأوائل في الحقوق وعلم الاجتماع حسب تصريحه .

تجلى حب مندور للغة العربية وآدابها - حب اكتسبه ابان الدراسة الثانوية - من محافظته على الرتبة الأولى على الدفعة طيلة سنوات الدراسة الأربع ، اذ من الصعب على أي طالب المحافظة على هذه الرتبة طيلة هذه المدة اذا لم يكن شغوفاً بالتخصص وعلى قدر كبير من الذكاء ، وله استعداد كبير لبذل الجهد الكثير . ولولا ذكاوءه الوقاد ، وقدرته العقلية ، لما استطاع الجمع بين تخصصات ثلاثة والاستفادة منها !.

تعلم في قسم "علم الاجتماع" معرفة المجتمع ومشاكله وعلاقاته المختلفة . وتعلم من قسم الحقوق دقة النظر والتمحيص في اصدار الأحكام والآراء ، واعطاء الكلمة معناها الحقيقي والدقيق ، لأن مصير الانسان قد يتوقف على معنى غير دقيق يلحق به أشنع التهم .

أما في قسم اللغة العربية ، فقد ازداد حبه للغة العربية وآدابها ناظرا اليها بعقل جديد ، دقيق دقة القاضي ، وموضوعي موضوعية عالم الاجتماع . وتتلمذ في هذا القسم

على الدكتور " طه حسين " فأحب على ايقاعه اليونان وثقافتهم الكلاسيكية ، ثم الثقافة الفرنسية في مختلف مظاهرها ، [1] وسمع منه سنة 1925 م محاضراته حول الشعر الجاهلي، فتعلم منها ضرورة التعامل الموضوعي مع الظاهرة الأدبية ، وعدم الأخذ بآراء القدامى الا بعد بحثها وتمحيصها ، واعتماد الشك المنهجي في التعامل مع الأدب القديم ، ورأى النتائج العلمية التي استنتجها أستاذه من دراسته للشعر الجاهلي دراسة منهجية حديثة. [2]

ولا شك أن مندور ، الذي كان طالبا في السنة الأولى ، قد تتبع الضجة التي أثارها كتاب أستاذه ، وقرأ مختلف الردود عليه ، حيث كان الكتاب جملة المحاضرات التي ألقيت عليه وعلى زملائه ، ثم قرأ الكتاب في طبعته الثانية بعنوان " في الأدب الجاهلي " سنة 1927 م ، فعرف منه المناهج النقدية التي استعرضها طه حسين في التمهيد، ودرس بتمعن منهج أستاذه الذي أسماه " المقياس الأدبي " ، والذي رأينا أنه لا يعدو أن يكون شيئا سوى المنهج التاريخي كما درسه عند أساتذته : سينيبوس وكروازي و لانسون [3]

كان مندور يتمتع بقدرات عقلية كبيرة ، اكتشفها طه حسين منذ أول لقاء، فراح يرعى صاحبها ويتتبع خطواته العلمية ، لأنه كان يريد استقطاب العناصر الذكية الجريئة في تقبل الأفكار الجديدة ،قصدتكوين صفوة فكرية تكون طليعة المجتمع المصري ، لذلك وقع الاختيار على مندور للسفر الى باريس - بعد تخرجه وبناء على رتبته الأولى طيلة الدراسة - لمواصلة الدراسة بالسوربون سنة 1929 م ، ولكنه لم يسافر في السنة المذكورة لأن الكلية قررت استبقاء أعضاء البعثة بمصر سنة كاملة لدراسة اللغة الفرنسية

---

1) - د . عوض (لويس) : الثورة والأدب . الكتاب الذهبي لمنشورات روز اليوسف . القاهرة 1971 ص 12

2) - أنظر الفصل الثالث من الباب الثالث ص 225 - 233

3) - أنظر الفصل الثالث من الباب الثالث ص 234 - 237

قبل السفر ، فاستغل * مندور * الفرصة لانهاء دراسة الحقوق التي كانت تدوم آنذاك خمس سنوات الى جانب دراسته اللغة الفرنسية مع أعضاء البعثة .

وكادت المنحة تضيع منه بسبب ضعف بصره ، ولكن " استاذه "خف لمساعدته ، اقتناعا منه بمقدرة تلميذه الادبية وبتفاهة العذر الطبي ، خاصة وأنه كان خير دليل على ذلـــك ! فتدخل لدى وزير المعارف ، وأقنعه بأن الجامعة ستفقد عنصرا حيا لمجرد ضعف بصرة ، وكأنها بحاجة الى حارس مبصروليس لأستاذ مفكر ! فاقتنع الوزير بهذه الحجة المنطقيـــة على ما يبدو ، وبذلك أعفي * مندور من الشرط الصحي ، ولم تضع منه المنحة التي ستصرفـــه على كل ما سمعه منأستاذه ، وسافر الى باريس سنة 1930 م : ((للحصول على ليسانـــس من السوربون في الآداب واللغات اليونانية القديمة واللاتينية والفرنسية وفقهها المقارن مــع حضور محاضرات المستشرقين وتحضير دكتوراه في الأدب العربي مع أحدهم .)) (1)

كانت الجامعة المصرية ترسل طلبتها الى السوربون للتعمق في ميدان من الميادييـــن العلمية بمتابعتهم دروس الليسانس مع الطلبة الفرنسيين ، فيكون نجاحهم في هذه الشهـــادة دليلا قاطعا على اجادتهم اللغة الفرنسية ، واحرازهم على مستوى جامعي حقيقي ، بالاضافـــة الى ذلك تطلب منهم اعداد دكتوراة الجامعة _ التي تتطلب شروطا علمية _ مع أحد المستشرقين حتى تضمن عودتهم بشهادة عليا ، وبذلك تتوفر عندهم الدرجة العليا والمتانة العلمية بغيـــة تكوين هيئة تعليمية كفأة . ولتحقيق هذا البرنامج قضى * مندور * بفرنسا تسع سنوات ، كان لهـا بالغ الأثر في حياته :((ان هذه السنوات هي التي كونتني عقليا وعاطفيا وانسانيا .وباريس مدينة بالغة الخطورة ، فيها الجد والصرامة ، وفيها العبقريات المهلكة ، وقد أخذت مـــن الاثنين بطرف .)) (2)

---

1) _ دوارة (فوءاد) : شيخ النقاد يتحدث ، مجلة " المجلة " ديسمبر 1964 ص 47

2) _ دوارة(فوءاد) : المرجع السابق ص 48

دخل مندور باريس دخول الجائع مأدبة ملوك ، فراح يعد للحصول على الليسانس ،ويحضر محاضرات المستشرقين ، والتحق بمعهد الصوتيات فدرس عروض الشعر العربي دراســة صوتية تجريبية نال عليها شهادة من المعهد المذكور ، كما درس الاقتصاد والتشريع المالي بالسوربون أيضا ونال شهادة على ذلك (1) . والى جانب دراساته المختلفة ولـج مختلف البيئات الثقافية ، فعرف الملاهي والمسارح ، وتتبع الاثار والفنـون المعمارية ، وحضر العروض الموسيقية وقرأ الكثير من الآثار الأدبية قديمة وحديثـة . وعلى الرغم من كون هذه الفترة هي التي كونته عقليا وعاطفيا وانسانيا ، على حـد قوله ، فانه لم يحرزخلا لها سوى على الليسانس الكلا سيكي : ((وهو يتكون من أربـع شهادات عليا كل منها منفصلة عن الأخرى تمام الانفصال . وذلك أن تبدأ بالتقدم لأيهـا شئت وفي أي سنة تريد بعد تمضيتك للسنة الأولى بالجامعة . وهذه الشهادات هي : شهادة اللغة اليونانية القديمة وآدابها ، وشهادة اللغة اللاتينية وآدابها وشهادة اللغـة الفرنسية وآدابها ، وأخيرا شهادة فقه هذه اللغات النحوي .)) (2) .

خلال دراسته هذه ، تعمق في اللغة الفرنسية حتى صار يفكر بها ، وأدرك أن الدراسة بالسوربون تأصيلية ، فثلاثة أرباعها بحث وتمحيص في أصول ومنابع الأدب الفرنسي بالرجوع الى الأدبين اليوناني واللاتيني من جهة ، والرجوع الى أصول اللغة الفرنسية من جهـة أخرى . وكل دراسة تأصيلية هي تاريخية حتما ، لأن : ((مناهج الدراسة في كافة الجامعات اليوم قد أصبحت المناهج التاريخية ، ومن واجبنا أن نسلك مسلكهم فنوفر على أنفسنا قرونا من الزمان .)) (3)

---

1) - د . عوض (لويس) : الثورة والأدب ص 14 - 16

2) - د. مندور (محمد) : كتابات لم تنشر . كتاب الهلال . عدد 175 . القاهرة 1965 ص 95 .

3) د. مندور (محمد): المرجع السابق ص 99 .

تتلمذ في السوربون على العديد من الأساتذة الكبار أمثال " دانييل مورني " خليفة " لانسون " في كرسي الأدب الفرنسي [1] ، وتلميذه الوفي ، والمتعصب لمنهجه ، وكانت دروسه المنهجية والدقيقة مثار اعجاب مندور ، الا أن أكبر موءثر فيه يبقى أستاذه لانسون:

((وان تأثري الأكبر في الحقيقة هو بأساتذة السوربون . وبالنقاد الغربيين، وبخاصة الفرنسيون منهم ، وكذلك بعلماء الجمال والنفس الفرنسيين من أمثال ألبيربابيه ، وبلوك وشارل لالو ، ثم كبير أساتذة الأدب في فرنسا جوستاف لانسون ، الذي وان لم أتتلمذ عليه وهو حي ، الا أني تتلمذت وتأثرت بموءلفاته ، وبخاصة كتابه الدسم العميق عن تاريخ الآداب الفرنسية ، ومقاله عن منهج البحث في الأدب .)) [2]

لقد كان مقال لانسون عن منهج البحث في الأدب نصا يكاد يكون مقدسا عند " مورني" فكانت أبحاثه وكتاباته العديدة حول الأدب الفرنسي تعتمد عليه اعتمادا كبيرا ، وكان حديثه عن أستاذه دوما حديث تعظيم واكبار . [3] فكان يحث تلاميذه على الرجوع الى موء لفات لانسون وتطبيق منهجه في أبحاثهم . وفي الوقت نفسه كان كتاب لا نسون عن تاريخ الأدب الفرنسي عمدة طلبة الأدب الفرنسي ، وبخاصة الأجانب منهم لشموليته وبساطة لغته ودقة معلوماته وبنائه المنهجي ، وبذلك تشبع مندور باللانسونية مع " دانييل مورني " أحد غلاتها أولا ، ثم بدراسته لأشهر موءلفات لانسون نفسه ثانيا . أعجب باللانسونية منهجا للدراسة الأدبية ، لأنها كانت تمثل آنذاك روح السوربون : ((التي كانت تعكس في تلك الفترة القيم الكلاسيكية أو الكلاسيكية الجديدة باعتبارها قيما ثقافية تضمن استمرارية تطورية بدون هزات .)) [4] ورسخت

---

1) ـ الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث ص 59

2) ـ دوارة (فوءاد) : شيخ النقاد يتحدث مجلة " المجلة " فبراير 1965 ص 66

3)- *Compagnon(A): La 3ème Republique des lettres. P. 160 .*

4) ـد. برادة (محمد) : محمد مندور وتنظير النقد العربي ص 42 .

السوربون في نفسه تلك القيم والأفكار الديمقراطية التي غذته بها الجامعة المصرية على يدي أستاذه طه حسين بصفة خاصة ، فأصبح ديمقراطيا اشتراكيا متحمسا لبرودون P.J Proudhon (1809 ـ 1865) المفكر الفرنسي الذي ثار على الديمقراطية الليبرالية المحضة كما تتجلى عند مفكري البرجوازية ، والذي زاوج بين الديمقراطية ممثلة في رأس المال وضرورة توظيفه ثم الاشتراكية ممثلة في العمل وضرورة تنظيمه في مؤسسات تضمن حق العامل وجهده ازاء رأس المال . تمثل مندور الفكر الديمقراطي الاشتراكي، فراح يدعو الى حرية الفكر ، وفصل الدين عن الدولة ، وواجب الدولة نحو المواطن في حقوق على الدولة رعايتها وتوفيرها للمواطن حفظا لكرامته وانسانيته . (1)

كانت اقامته الطويلة بفرنسا فترة تكوينه العقلي والعاطفي والانساني تعلم فيها شتى العلوم والفنون ، و درس خلالها " اللانسونية " من مصادرها المباشرة ، فأعجب بها ، واقتنع بنجاعتها في دراسة الأدب العربي ، فهي ذلك المنهج الأدبي الوسطي الذي وقف موقفا وسطا بين تزمت وتعصب أنصار الاتجاه العلمي في دراسة الأدب أمثال " تين" و " برونتيير " من جهة ، وأنصار الاتجاه الذوقي أو التأثري أمثال " جول لومتر" ، من جهة أخرى . كما توسطت عقليا بين تلك الفورات التجديدية في الابداع الأدبي ودراسته مثل أشعار مالا رمي Mallarmé 1842 ـ 1898) وايلوار Eluard (1895-1952) وفاليري Valéry 1871 ـ 1945 ودراسات شارل بيقي " من جهة ، والدراسات المدرسية العتيقة التي لا تدرس الأثر الأدبي لذاته بحثا عن الحقيقة ، وانما تدرسه وسيلة لغاية لغوية أو بلاغية أو دينية اعتماداعلى نصوص بالية عادة ماتكون خالية من أي رونق أدبي من جهة أخرى .

---

1) ـ د. عوض (لويس) : الثورة والأدب ص 26 ـ 35.

وجد مندور الطالب الشرقي المعجب بتراثه الأدبي العربي - ضالته في اللانسونية . فهي المنهج الأدبي الذي يمكنه من دراسة أدبه دراسة علمية دقيقة تتماشى وعقله القانوني الدقيق، ثم دراسة ذوقية تتماشى وميوله الأدبية التي غذاها أساتذته بدءا بالأساتذة السباعي بيومي وأحمد هاشم عطية في المرحلة الثانوية ، ومرورا بأستاذه طه حسين الذي علمه " المقياس الأدبي " ودراسة الأدب دراسة موضوعية في الجامعة المصرية ، وانتهاء باستاذه "دانييل مورني " أستاذ الأدب الفرنسي بالسوربون وخليفة لانسون وتلميذه الوفي ، فتعلم منهما المنهج وأصوله وتطبيقاته .

عاد الى مصر سنة 1939 م يحمل في جيبه شهادة الليسانس في الأدب الكلاسيكي ، وفي ذهنه معارف شتى ، ومشاريع عديدة .وكان يعتقد أن الجامعة سترحب به ، اعترافا منها بما حصل من معارف ، ولكن أستاذه طه حسين الذي أرسله ليرجع دكتورا ، رفض تعيينه في قسم اللغة العربية لخلو يده من الشهادة المذكورة ، ثم رفضت بقية أقسام اللغات توظيفه ، ولم يجد عميد كلية الآداب آنذاك - احمد أمين - حلا للوضع سوى ساعات في الترجمة من الانكليزية الى العربية . وفي السنة التالية ، افتتحت كلية الآداب المعهد العالي للصحافة ، فأسندت لمندور دروس الترجمة من الفرنسية وآدابها الى العربية ، فأحس بشيء من المتعة والنجاعة في العمل رغم بقاء وضعه الاداري والمالي متدهورا لبقاء علاقته الوظيفية بالجامعة مجرد ساعات يقوم بتغطيتها .وكان الحل الجذري لمشكلته يكمن في الاحراز على الدكتوراه التي راح أحمد أمين يحثه على انجازها مقترحا عليه موضوع " تيارات النقد العربي في القرن الرابع الهجرى " باشرافه ،فأكب على انجاز الرسالة في أقصر مدة ،معتقدا أنه على وشك التخلص من جميع مشاكله الادارية والمالية ، خاصة بعد تأسيس جامعة الاسكندرية (1942) ، وقبول رئيسها الدكتور طه حسين تعيين مندور وزملائه العائدين من فرنسا دون دكتوراه مدرسين بها , اعتقد مندور أن متاعبه ستنتهي بعد احرازه على الدكتوراه وترسيمه

بالجامعة ، ليتفرغ لتحقيق مشاريعه وآماله العلمية التي لم يستطع تحقيقها في جامعة القاهرة ، ولكنه اصطدم مرة أخرى بأستاذه طه حسين ورئيس الجامعة آنذاك ، الذي رفض المشاركة في مناقشة مندور لنيل درجة الدكتوراه أولا ، ثم رفض ترقيته الى رتبة مدرس بعد احرازه على تلك الدرجة العلمية بتفوق ثانيا . ويعتقد مندور أن حنق أستاذه عليه يرجع الى استعانته بأحمد أمين في انجاز الرسالة . بعدما أفسح له مجال الكتابة الصحافية والترجمة لمساعدته ماديا بعد رجوعه من فرنسا خالي الوفاض من الشهادة .

ومن الممكن أن تكون مثل هذه الأحاسيس التي أشار اليها مندور سببا في حنق أستاذه عليه ، ولكن الأرجح أنها لم تكن الوحيدة أو المباشرة . لقد غضب عليه أستاذه لأنه خيب أمله ، بدءا ببقائه مدة طويلة في فرنسا وعودته خالي الوفاض ، ثم لقبوله اعداد الدكتوراه مع أحمد أمين الذي لم يكن مفكرا ليبراليا متحررا ، ثم لتشتيت قدراته وطاقاته العلمية في كتابة مقالات صحافية متنوعة ، فاقتنع أستاذه بضياع أمله وجهوده في تكوين أستاذ جامعي يواصل رؤيته ومسيرته أو يساعده ويؤازره في مهاجمة الانغلاق والجمود ، كما اقتنع بأن تلميذه هذا قد غرق في السعي وراء المادة بشتى الطرق ، (1) وبسبب كل ذلك أعلن عليه الحرب ، فكان السبب في خروج مندور من كلية الآداب بجامعة الأسكندرية سنة 1944 م بعدما كان السبب في دخوله كلية آداب القاهرة سنة 1926 م . خرج من الجامعة سنة 1944م احتجاجا على تعسف أستاذه الذي رفض ترقيته تعسفا على حد قوله ، وخرج منها ، على حد قول أستاذه ، لأن صاحب صحيفة " المصري " عرض عليه ضعف راتبه مقابل توظيفه في الصحيفة الأمر الذي أغراه بالاستقالة والتخلي عن مهنته التعليمية الأكاديمية مقابل مبلغ مالي زائد

---

1) ـ د. الدسوقي (محمد) : طه حسين يتحدث عن أعلام عصره ص 83 _ 84

2) دوارة (فؤاد) : شيخ النقاد يتحدث : مجلة " المجلة " ديسمبر 1964 ص 51_ 52

عن راتبه الجامعي . (1) وبديهي أن مندور لم يستقل لمجرد الاحتجاج على تعسف أستاذه لو لم تكن اغراءات الصحافة تجذبه ، كما انه ماكان ليستقيل لو كان يتمتع بوضعية ادارية مستقرة تضمن له عيشا كريما .

خرج من الجامعة بعد احرازه على الدكتوراه ، ليدخل الحياة من بابها الواسع ، وراح يتنقل بين الصحف والجهات التي تنتمي اليها ، كاتبا مقالات في مختلف الميادين ، فمن السياسة الى المجتمع ، ومن التربية الى الفكر والأدب، وبذلك دخل دوامة الصراعات السياسية التي كانت تدور بين الأحزاب من جهة ، والسراي من جهة ثانية ، والانكليز من جهة ثالثة ، مناديا بالديمقراطية الاشتراكية وحق الشعب في التعلم ، وحرية الفكر ، الى غير ذلك من المبادىء الليبرالية التي زودته بها ثقافته الفرنسية ، فكانت مبادئه تلك كثيرا ما تثير عليه أرباب الصحف الذين كانوا يجدون أنفسهم من حين لآخر في مواقف حرجة مع السراي أو الانكليز أو الأحزاب التي يعبرون عنها بسبب مقالاته المدافعة : ((عن الثقافة الانسانية المتمثلة في الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ليس في حقيقته الا من ترسبات الديمقراطية الليبرالية التي نشأ مندور في كنفها أيام دراسته في الجامعة المصرية وفي السوربون . وهو وان كان قد ثار على المبدأين الأساسيين في الديمقراطية الليبرالية ، مبدأ " دعه يعمل " و " دعه يمر " وأوصى بتدخل الدولة في عمليات الانتاج والتوزيع (...) فهو قد استمسك بذلك المبدأ الثالث من مبادىء الديمقراطية الليبرالية الذي لم يرد في كتب الاقتصاد وانما ورد في آثار الفلاسفة الليبراليين ، ألا وهو مبدأ "دعه يفكر ")) (2)

---

1) د. الدسوقي (محمد) : المرجع السابق ص 84

2) د. عوض (لويس) : الثورة والأدب ص 35

عاش مندور فترة قلقة منذ استقالته من الجامعة حتى أواخر الأربعينات صارع فيها بقلمه قوى التخلف والجمود والاستغلال ، وكانت نتيجتها الشهرة الاعلامية والحاجة المادية ، ولذلك فكر سنة 1948 م في استغلال دراسته القانونية ، فافتتح مكتبا للمحاماة وأقبل عليه الموكلون من كل حدب وصوب لذيوع اسمه في الصحف والمجلات مقرونا بالدفاع عن مبادئ الحرية والعدالة والمساواة والديمقراطية والاشتراكية ، فعرف رخاء ماديا كبيرا .

لم يقنع بالشهرة الاعلامية والرخاء المادي ، وراح يسعى الى تبوإ مكان في الحياة السياسية قد يمكنه من تحقيق بعض آماله الفكرية ، فشارك سنة 1950 م في الانتخابات النيابية وفاز فيها فوزا كبيرا ، وأسندت له رئاسة لجنة التعليم (1) ، فجمع بذلك النجاح من جميع أطرافه : الرخاء المادي من مكتب المحاماة ، والشهرة الاعلامية من كتاباته الصحافية ، والحصانة البرلمانية ومتعة التدريس من دروسه بالمعهد العالي للصحافة ، ومعهد التمثيل ، ثم معهد البحوث والدراسات العربية . (2)

كان نشاطه غزيرا ومتنوعا ، الأمر الذي بدد قواه ، وأعاقه عن انجاز دراسات أكاديمية عميقة ، رغم وفرة نتاجه الموزع بين مختلف المعاهد والصحف . وحتى ذلك النتاج الموزع ، والنشاط المتنوع ، لم يستطع مواصلتهما بسبب مرض عضال اضطره الى اجراء عملية جراحية في المخ ، واستئصال جزء من الغدة النخامية ، فاضطر الى غلق مكتب المحاماة سنة 1954 م ، والاكتفاء بالنشاطات الصحافية والتدريس في المعاهد السالفة الذكر ، بعد انتهاء فترته النيابية (3) ، وبقي يكتب ويدرس الى أن وافته المنية يوم 19 ماي 1965 .

عاش حياة صاخبة ، عرف فيها المجد والشهرة والرخاء الى جانب الفشل والشقاء . أراد أن يصبح وكيل نيابة فأعد العدة لذلك ودرس الحقوق الا أن حلم طفولته لم يتحقق . وأعجب

---

1) - دوارة (فؤاد) : شيخ النقاد يتحدث . مجلة . فيفري 1965 ص 62

2) - دوارة (فؤاد) : المرجع السابق ص 63

3) - د. عوض (لويس) : الثورة والأدب ص 10

به أستاذه "طه حسين" وبمقدرته الأدبية ، فدفعه الى دراسة اللغة العربية وآدابها ليصبح أستاذا جامعيا واسع الأفق ، متحرر الذهن مثل الأساتذة الفرنسيين الذين سيتتلمذ عليهم ، ولكنه - أي طه حسين - صار أكبر عائق أمام تحقق هذا الأمل ، لانه أحس بميل مندور عن المسار المسطر له ، ولم ينتبه الى أن قدراته العقلية والأدبية ستدفعه لا محالة الى شق طريق خاص به . لم يقدم مندور في حياته الصاخبة كل ما كان متوقعا منه ، ولكن خصوصيته تكمن في ذلك ، حيث قدم ما لم يكن متوقعا منه . فلم يكن أستاذا جامعيا محترفا ، متقوقعا في نظريات أو مناهج نقدية يراها البداية والنهاية ، كما لم يكن أديبا مبدعا لا يستطيع ضبط انفعالاته خلال تعامله مع النصوص الأدبية ، وانما كان وسطيا في مختلف كتاباته التي كانت في الأصل محاضرات على طلبة المعاهد التي كان يدرس بها ، أو مقالات صحافية موجهة لعامة القراء .

خلف قائمة طويلة من المؤلفات والمترجمات ، نستطيع تقسيمها بعد التمعن فيها الى : مؤلفات أساسها مقالات صحافية كتبت لعامة القراء ونشرت في مختلف الصحف ، ثم جمعت في كتب .مؤلفات أكاديمية كانت في الأصل بحثا لنيل درجة من الدرجات ثم نشرت في كتب على أصلها الأول أو مع اضافة مقالات اليها . مؤلفات ترجمت الى العربية من الفرنسية ، ومؤلفات أساسها دروسه لطلبة المعاهد المختلفة.كما خلف عددا كبيرا جدا من المقالات المنشورة في الصحف ، جمع البعض منها في كتب ولا زال الكثير منها ينتظر. توضح دراسة هذه المؤلفات والآثار صعوبة ترتيبها ترتيبا تاريخيا دقيقا ، فالكثير منها خال من تاريخ التأليف أو الطبع أو النشر . أما التي نجد فيها تاريخا من هذه التواريخ ، فهو تاريخ نشر الكتاب مجملا ، بينما ترجع موضوعاته المختلفة الى تواريخ عديدة و متباعدة أحيانا ، اذ نشر البعض منها في الصحف ، وقدم البعض الآخر دروسا لطلبة معهد من المعاهد ، وربما كتب البعض الآخر لتكملة الكتاب . وعلى هذا الأساس يصعب

ترتيب موء لفات " مندور " ترتيبا تاريخيا يبين بدقة تطور روء يته النقدية أو المنهجية ومن ثم سنعمد في تتبع روءيته المنهجية الى الاعتماد على أشهر كتبه التي تعتبر معالم تاريخية معروفة في تطوره حسب الترتيب التالي :

1 ـ في الميزان الجديد (1944)

2 ـ النقد المنهجي عند العرب (1944)

3ـ منهج البحث في تاريخ الآداب (مترجم عن لانسون) 1946

4 ـ في الأدب والنقد (1949)

5 ـ الأدب ومذاهبه (1957)

6 ـ الأدب وفنونه (1963)

7 ـ النقد والنقاد المعاصرون ب .ت

8 ـ كتابات لم تنشر (1965) .

ليست هذه العناوين جملة نتاج مندور ، فله كتب وكتيبات عديدة في الدراسة الأدبية مثل " مسرح توفيق الحكيم " و " المسرح النثري " و " الشعر المصري بعد شوقي " و نماذج بشرية " و " في المسرح المصري المعاصر " و" خليل مطران " وغير ذلك من العناوين، لا تتضمن أفكارا نقدية مختلفة عما ورد في كتبه الأساسية . وله كتب ثقافية عامة ضمنها آراءه وأفكاره السياسية والاجتماعية مثل : الديمقراطية السياسية ، الثقافة وأجهزتها ، الموقف الدولي، صلتها بموضوع البحث ضعيفة فلم نحفل بها . وله أيضا مجموعة من الكتب ترجمها عن الفرنسية منها :دفاع عن الأدب لجورج ديهاميل G. Duhamel (1884-1966) من الحكيم القديم الى المواطن الحديث لبوجليه وآخرين ، نزوات ماريان لألفريد دي موسيه ، De Musset (1810-1857) مدام بو فاري لكوستاف فلو بير Flaubert (1821 - 1880) .وواضح أن هذه المترجمات ذات الأهمية البالغة بالنسبة للقارىء العربي قبل الخمسينات من هذا القرن، لا تتصل بموضوع البحث.

تبين بوضوح ذرق " مندور " واعجابه بالثقافة الفرنسية شعراونثرا وفكرا سياسيا .

نرى من تتبع حياة " مندور " الدراسية والعلمية والمهنية أنه تتلمذ على طـــه حسين ، فأعجب الطالب بالأستاذ وبثقافته الفرنسية ذات الأصول اليونانية اللاتينيـــة كما أعجب الأستاذبالتلميذ وقدراته العقلية ، فحاول اعدادة ليكون سنداله في إرساء دعائم تعليم جامعي أكاديمي متفتح ، فساعده - من أجل ذلك - على السفر الى فرنسا ، وهناك تتلمذ على أساتذة الأدب الحقيقيين وتشبع بالثقافة الأوروبية . ففي باريس تتلمـــذ على جملة من أساتذة السوربون منهم دانييل مورني تلميذ لانسون الوفي ، وخليفتـــه وظيفيا في كرسي الأدب الفرنسي بالسوربون ، وعلميا في تطبيـــق المنهج التاريخي والدعوة له في الدروس بالجامعة ، وفي توجيه مجلة التاريخ الأدبي لفرنسا . أعجب مندور بأساتذة السوربـــــون جميعا - على حدقوله - وبصفة خاصة كبير أساتذة الأدب في فرنسا "جوستاف لانسون " الذي وان لم يتتلمذ عليه وهو حي ،الا أنه تتلمذ عليه من خلال كتابـــه من تاريخ الأدب الفرنسي ، ومقالة عن منهج البحث في الأدب [1] وبذلك يكون قد تتلمذ عليه من حيث المنهج التاريخي نظرية وتطبيقا . وبذلك تكون صلة مندور باللانسونية ثابتـــة تاريخا ، باعترافه أولا ، ومن روافد متعددة ثانيا ، فقد تتلمذ على طه حسين تلميـــذ لانسون والأخوين كروازي وسينيوبوس ، ثم تتلمذ على دانييل مورني تلميذ لانسون وخليفته ، وفي الختام يعترف بأنه تأثر بلانسون منخلال كتاباته ، واعتبره كبير أساتذة الأدب الفرنسيين ومن ثم فالصلة ثابتة ، ومعترف بها . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كان للانسونية أثر في كتابات مندور ؟ وكيف يتجلى ذلك ؟ ذلك ما سنحاول الاجابة عنه في الفصليـــــن اللاحقيـن .

---

1) - دوارة (فؤاد) : شيخ النقاد يتحدث ،مجلة " المجلة " عدد فيفري 1965 ص 66

الفصل الثاني

محمد مندور ودعوته للمنهج التاريخي

عاد مندور بعد تسع سنوات من الدراسة والتحصيل في جامعة السوربون على يدي تلاميذ لانسون الى مصر للتدريس في الجامعة ، منبهرا بمستوى وطريقة تعليم اللغة الفرنسية وأدبها فاصطدم باديء الأمر بأستاذة طه حسين لأسباب سبق ذكرها . كما اصطدم بمجمل أساتذة قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة ، وساءت علاقته بالكثير منهم : ((لأن العلاقة بيني وبين أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها كانت قد ساءت بسبب تقرير كتبته عن منهج دراسة اللغة و الأدب في جامعتنا ، و انتقدت فيه الأساليب البالية التي كانت مستخدمة عندئذ، وقدمت نسخة من التقرير الى مدير الجامعة ، وأخرى الى عميد كلية الآداب ، وطالبت في هذا التقرير بانشاء معمل للأصوات وقلب مناهج التدريس رأسا على عقب ، وأحال العميد تقريري الى رئيس قسم اللغة العربية وكان وقتها المرحوم عبد الوهاب عزام . وذات يوم التقيت به في الممر المؤدي للقسم ، وتجرأت وسألته عن رأيه في التقرير فأجاب قائلا : - تقرير ايه ياعم ، أنت جاي تعلمنا ازاي تدرس أمال احناهنا بنعمل ايه ؟

وكان هذا كل ماعرفته عن ذلك التقرير ومصيره .)) (1)

ساءت علاقة مندور بأساتذة قسم اللغة العربية لأنه انتقد أساليبهم في التدريس، كما انتقد المقرر الدراسي ، مقترحا أساليب ومقررات جديدة لم يحدد نوعيتها ، الا أن اشارته الى معمل الأصوات توضح أنه كان يقتدي في اقتراحاته تلك بأساليب ومقررات السوربون .

ويعود مرة أخرى الى قضية تدريس اللغة العربية وآدابها ضمن مقال نشره سنة 1954م منتقدا واقع اللغة العربية وآدابها في الجامعة المصرية مبينا تفاهة المقررات وسخفها وعقم أساليب التدريس الأمر الذي ينعكس سلبا على تطور اللغة العربية وآدابها ،وللخروج من ذلك الوضع التعليمي ، اقترح الاقتداء بالغربيين : ((ولكننا اذا أردنا أن نفهم الأدب بهذا المعنى الواسع ، واذا أردنا أن ندخل فيه أدبنا المعاصر الذي نأخذ ألوانه عن الآداب

---

1) - دوارة (فؤاد) : شيخ النقاد يتحدث . ديسمبر 1964 ص 51 .

الغربية ، تبين عندئذ صدق ما قلناه من قبل من أنه لن يستطيع عندئذ الاستقلال بتدريسه الا من ثقف ثقافة غربية وتشبع بمناهج الغرب على نحو واسع متين .

والعيب الثاني قائم في منهج الدراسة فهو لا يزال التقريري كما عرفته القرون الوسطى مع أن مناهج الدراسة في كافة الجامعات اليوم قد أصبحت المناهج التاريخية ومن واجبنا أن نسلك مسلكهم فنوفر على أنفسنا قرونا من الزمان .)) (1) .

وتقوم مقترحات مندور لتطوير مناهج دراسة اللغة العربية وأساليبها في مجملها على نقطتين أساسيتين : الأولى اخراج مقرر اللغة العربية وآدابها من مضمونه الضيق الذي لا يتعدي الاهتمام بالشعر والنثر ، الى مجال أوسع يتضمن كل الكتابات الجميلة ، والعلوم المساعدة لدراستها ، والمناهج الفكرية واللغات الأجنبية . أما النقطة الثانية فتتمثل في التخلي عن المنهج التقريري الذي ينطلق من مسلمات وآراء مسبقة وأحكام جاهزة تعوق الذهن عن الانطلاق ، والاستعاضة عنه بالمناهج التاريخية اقتداء بالغربيين الذين تقدموا عنا قرونا ، لاعتمادهم على المنهج التاريخي في دراسة لغاتهم وآدابهم ، على حد قول مندور ، وقبله أستاذه طه حسين ، وقبله أستاذه المستشرق الايطالي كارلو نالينو .

ان تطوير دراسة اللغة العربية وآدابها يكمن عند مندور في تبني المنهج التاريخي الذي أعجب به ، من خلال اعجابه بكتابات لانسون . وبديهي أن تثير دعوته هذه سخط قسم اللغة العربية ، لسببين حسب ظني : الأول وهو أن المرحوم عبد الوهاب عزام 1894 - 1959)- رئيس القسم آنذاك - لم يكن من المنبهرين بالثقافة الفرنسية أو المحببين بها ، فقد كان شرقيا قلبا وقالبا ، (2) ومن ثم فان موقفه من دعوة " مندور " الى الأخذ

---

1) د . مندور (محمد) : كتابات لم تنشر ص 99

2) - د. نعمات أحمد فؤاد : قمم أدبية . عالم الكتب . القاهرة . 1966 ص 235- 254

بالمنهج التاريخي ، كما رآه مطبقا في السوربون ، لايعقل أن يكون الا الرفض. أما الثاني فهو أن طه حسين المدافع عن الثقافة الفرنسية بحماس وحامي مندور ، قد تخلى عنه لأسباب سبقت الاشارة اليها ، فساعد بذلك التخلي على كبح دعوة مندور للاعتماد على المنهج التاريخي في دراسة وتدريس اللغة العربية وآدابها ، رغم أن دعوة مندور لا تختلف في جوهرها عن دعوة أستاذه في تمهيده لكتاب في الأدب الجاهلي إ.كان اعجاب مندور بالمنهج التاريخي كبيرا ، ولذلك لم يثنه موقف أستاذه ولا موقف قسم اللغة العربية عن الدعوة له . فراح يكتب المقالات الصحافية داعيا فيها الى الاقتداء بفرنسا في تدريس اللغة والأدب ودراستهما . ففي مقدمة كتابه " في الميزان الجديد " الذي تضمن مقالاته المكتوبة بين سنة 1939 م و 1944، دعا صراحة الى الاقتداء بالفرنسيين : ((منذ عودتي من أوروبا أخذت أفكر في الطريقة التي نستطيع بها أن ندخل الأدب العربي المعاصر في تيار الآداب العالمية ، وذلك من حيث موضوعاته ووسائله ومناهج دراسته على السواء . ولقد كنت أومن بأن المنهج الفرنسي في معالجة الأدب هو أدق المناهج وأفعلها في النفس ، وأساس ذلك المنهج هو ما يسمونه " تفسير النصوص " ، فالتعليم في فرنسا يقوم في جميع درجاته على قراءة النصوص المختارة من كبار الكتاب وتفسيرها والتعليق عليها ، وفي أثناء ذلك يتناول الأساتذة النظريات العامة والمبادئ الأدبية واللغوية بالعرض عرضا تطبيقيا توء يده النصوص التي يشرحونها .)) (1)

وعلى هذا،فان أدق المناهج الأدبية وأفعلها في النفس يتمثل عند مندور في المنهج الفرنسي المعروف " بتفسير النصوص " فاذا ما تذكرنا أن تفسير النصوص هو جوهر المنهج التاريخي وأساسه عند لانسون وأتباعه كما هو مبين سابقا ، ندرك أن دعوة مندور في جوهرها دعوة

1) - د. مندور (محمد) : في الميزان الجديد . دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة دت ص 04.

الى المنهج التاريخي اللانسوني ، الذي يدرس النصوص الأدبية ويفسرها ويعلق عليها بغية الحكم عليها ووضعها موضعها من ابداع موء لفها أولا ، ثم موضعها من الأدب القومي ثانيا[1] . ويصرح بأن رأيه استقر على هذا المنهج التطبيقي لدراسة الأدب العربي ، رغم الصعاب التي قد تواجهه من جراء الظروف الخاصة بالأدب العربي ، مثل فقر المكتبات ، وقلة الدراسات البيليوغرافية ، وفقدان الكثير من النصوص الأدبية وغير ذلك من الصعاب ، ولذلك نراه يوهم القارئ بأنه كون لنفسه منهجا عاما للنقد خلال دراسته وتدريسه لنصوص الأدب العربي في الجامعة سماه " المنهج الذوقي التأثري " .

وبغض النظر عن أصول المنهج الذوقي التأثري ، فان مندور لا يعني بمنهجه الذوقي هذا النزوات التحكمية[2] ، وانما يعني تلك الرواسب العقلية والشعورية التي يستطيع الدارس ابرازها وتعليلها : ((وبذلك يصبح الذوق وسيلة مشروعة من وسائل المعرفة التي تصح لدى الغير .))[3] فالذوق عنده ليس غاية ، وانما وسيلة من وسائل المعرفة ، اذ : ((ليست هناك معرفة تغني عن الذوق التأثري الا أنني مع ذلك أحرص على أن يكون الذوق مستنيرا وفي هذا المجال ـ مجال الاستنارة ـ أميز بين نوعين من المعرفة . فهناك المعرفة الأدبية اللغوية وهذه هي الأساس (...) وأمادون ذلك من أنواع المعرفة كالدراسات النفسية والاجتماعية والأخلاقية والتاريخية وما اليها فهي وان كانت عظيمة الفائدة في تثقيف الأديب ثقافة عامة وتوسع آفاقه ، الا أنني لا أريد أن تطغى على دراستنا للأدب كفن لغوي[4] ، وأنا موء من بأنه من الواجب أن يستقل الأدب بمنهجه عن غيره من العلوم .))

---

1) ـ د. مندور (محمد) : المرجع السابق ص 04

2) ـ د. مندور (محمد) : المرجع السابق ص 05 ـ 06

3) ـ د. مندور (محمد) : المرجع السابق ص 06

4) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 06

تبنى مندور في بداية نشاطه العلمي المنهج الذوقي التأثري حسب مفهوم المنهج التاريخي للتأثر والذوق ، اذ نراه يحدد مفهوم الذوق أو التأثر بأنه رواسب عقلية وشعورية يبرزها الدارس ويعللها ، وبذلك يطرح الالهام الذوقي أو العبقرية على حد تعبير لانسون، ثم يحدد وظيفة الذوق على اعتبار أنه وسيلة من وسائل المعرفة متبعا في ذلك أستاذه لانسون عندما اعترف للنقد التأثري بقيمته النقدية شريطة بقائه مجرد وثيقة أدبية يعتمدها مؤرخ الأدب مع بقية الوثائق في الوصول الى الحقيقة أو الاقتراب منها ما أمكن .

جعل مندور الذوق وسيلة من وسائل المعرفة الأدبية ، لايمانه بأن المعرفة الأدبية تغني عن الذوق ، ولا تمكن دارس الأدب من استكناه لب النص الأدبي ، وهذا ما أوضحه لانسون عندما وضح أن التحاليل الكيميائية لا تبين طعم الشراب مهما كانت صحتها،وأن الذوق أساس كل دراسة أدبية ، شريطة أن يقوم بعملية التذوق من يمتلكون ذوقا رفيعا مدربا،وأن يتذوقوا حسب أسس وقواعد معينة .

يقوم المنهج التأثري عند مندور على المزج بين الذوق والمعرفة عندما جعل التذوق وسيلة من وسائل المعرفة ، ثم عندما جعل المعرفة لا تغني عن الذوق ، فجعلهما مرتبطين من جهة ومتممين لبعضهما البعض من جهة أخرى ، وأخيرا لشرحه مفهوم مصطلح " المعرفة " الذي حدده بالمعرفة الأدبية واللغوية التي تنجم عن قراءة مؤلفات الشعراء والكتاب قراءة فهم ودرس وتذوق بغية الوصول بالأدب الى منهج خاص به مستقل عن بقية العلوم المساعدة التي يحبذ أن يوسع بها الدارس آفاقه دون أن تطغى على تفكيره .

لقد جمع بين الذوق و المعرفة ، وجعل الذوق يقوم على أسس معينة لبلوغ وظيفة واضحة ، ثم حدد مفهوم المعرفة في مجال الدرس الأدبي داعيا الى الاستعانة بالعلوم المساعدة وعدم تطبيق مناهج العلوم الأخرى في الدراسة الأدبية ، شأنه في ذلك شأن لانسون الذي جعل الأفكار السالفة الذكر من أسس المنهج التاريخي . فكان المنهج التأثري الذي دعا اليه

مندور في مستهل حياته العلمية لا يختلف عن اللانسونية في شيء ، وبذلك بدأ حياتـــه العلمية بالدعوة الى المنهج التاريخي تحت مصطلح " المنهج التأثري " . فعندما زعـــم أنه اعتمد المنهج التأثري في " تفسير النصوص " رأينا أنه لم يخرج قيد أنملة عن المنهـــج التاريخي لأنه تبنى رأي لانسون في النقد التأثري من حيث طبيعته ووظيفته . أما النقـــد التأثري ، كما هو معروف عند التأثريين ، فلا يقبل له البتة أن يكون وسيلة ، بل هو غاية في حدذاته . وعلى هذا الأساس كان تذوق مندور لانسونيا بحتا . فعندما يدرس قضيـــة الحكم النقدي عند أي ناقد ، يخلص الى أن الأحكام النقدية اما " ذاتية " تدور حول الجودة والرداءة في سلم للقيم يضعه كل ناقد لنفسه ، واما " موضوعية " مستمدة من حقيقة المادة المنقودة ومرتبطة الى ملابساتها . ثم سرعان ما ينتبه الى عدم وجود أي حكم ذاتي قيمـــي مطلق : ((ذلك لأن كل حكم قيمي لا بد راجع الى حكم واقعي ، فالناقد الذي يحتمي وراء مايسميه ذوقه الخاص انما يحيلك في حقيقة الأمر على مجموعة من الآراء السابقة المقررة التي تبلورت في نفسه بوعي منه أو على غير وعي ، بحيث نستطيع أن نقول : ان الذوق ماهـــو الا راسب من رواسب العقل الخفية .)) (1)

فما ان الذوق راسب من رواسب العقل الخفية ، فذوق كل شخص نتاج عدة عوامـــل من وراثة ونشأة وتربية وبيئة وزمان ، وهذا ماعناه لانسون عندما قال : ((ان ما نسميه ذوقا ليس الا مزيجا من المشاعر والعادات والأهواء .)) (2) وهكذا يرجع مندور الى نقطة البدايـــة ، مهما نفى الحكم الذوقي الخالص ، أي رجع الى المفهوم اللانسوني للذوق ويعيد شرح رأيه في ضرورة تنحية العلم عن الأدب ونقده في مقالة أخرى لا قتناعه بأن العلم شيء ، شـــيء ودراسة الأدب ونقده شيء آخر . فالنقد عنده ليس علما صحيحا أو تجريبيا وانما ((هو فن

1) - د. مندور (محمد) . المرجع السابق ص 122 .

2) - لانسون : منهج البحث في تاريخ الآداب (ترجمة مندور) ص 405 .

دراسة النصوص وتمييز الأساليب، وهذا الفن يستعين بضروب من المعـارف.)) (1)

وبديهي أن هذا المفهوم لا يختلف في شيء عن مفهوم لانسون،فالنقدهو دراسة النصوص بغية" تمييزالأساليب" مع الاستعانة " بعلوم و معارف" مساعدة. انها المصطلحـــــات و المفاهيم نفسها التي تكون المنهج التاريخي، نراها تتردد عند مندور، ونراه يؤكد كـذلـك على عدم الأخذ بالقوانين العلمية المطبقة في العلوم الأخرى مثل علم النفس أو الاجتمـاع لدراسة الظاهرة الأدبية، مدللا على ذلك بنقده تجربة الفرنسيين في هذا المجال في القرن التاسع عشر أمثال "تين" الذي حاول تفسير الظاهرة الابداعية بعوامل العرق والزمان والمكان مستخلصا بطلان هذا الرأي من عدم انسحاب هذه النظرية على كل من وجد من عرق واحد فـي زمان ومكان واحد، لاختلاف الاستعدادات و القدرات بين الناس .

لا يختلف رأي مندور الرافض لعلمنة الأدب في شيء عن رأي لانسون، فهو يتبنىفكـرة انطلاق هذا التيار من مسلمات علمية، لا تختلف في شيء عن المسلمات المذهبية أوالعقايدية بينما تحتم علينا الروح العلمية عدم الانطلاق من مسلمات. وكما تبنى آراء لانسونفي رفـض "علمنة الأدب"، تبنى أيضا مفهومه لتاريخ الأدب عندما استنتج أن التأريخ للأدب عبارةعـن:

((1ـتأريخ لفنون الأدب*Genres Litteraires*(..) 2ـ تأريخ للتيارات العقلية و الأخلاقيـة كدراستنا لتيار شعر اللذة الحسية عند أناكريون و رونسار ومن نحا نحوهما *Les courants*(..) 3ـ تاريخ لعصـور الذوق *Les epoques du gout*)) (2)

هذه الانواع الثلاثة التي قدمها مندور طرقا لتأريخ الآداب المختلفةهي نفسها الطرق التي حددها لانسون بعد شرحه لخطوات منهجه العملية : ((هذه هي العمليات الأسـاسيـة التي تؤدي بنا الى المعرفة الدقيقة الكاملة بالكتاب، وان كانت تلك المعرفة فـي الواقـع

1)ـ د. مندور (محمد) : المرجع السـابـق ، ص 172.
2)ـ د. مندور (محمد) : المرجع السـابـق ، ص 174.

لايمكن أن تبلغ درجة الكمال (...) ثم نطبق تلك العمليات على الكتب الأخرى للموء لـف وعلى كتب الموء لفين الآخرين ونجمع الكتب تبعا لما بينها من وشائج في الموضوع والصياغة وبفضل تسلسل الصياغات، نضع تاريخ الفنون الأدبية ، وبتسلسل الأفكار والاحساسات نضع تاريخ التيارات العقلية والأخلاقية .وبالمشاركة في بعض الألوان وبعض المناحي الفنية المشتركة بين الكتب التي من نوع أدبيواحد ومن نفوس مختلفة نضع تاريخ عصور الذوق .)) (1)

ندرك مما سبق ذكره دعوة مندور الى الأخذ بالمنهج التاريخي ضمنها كتابه الأول " في الميزان الجديد"،ولكن دعوته هذه لم تكن صريحة وواضحة . فهو يستعرض المناهج النقدية التي شاعت خلال القرن التاسع عشر بفرنسا موضحا مساوئها وهناتها ، معتمدا في ذلك على آراء لانسون دون تصريح بها ، ثم يقترح " منهجا جديدا " للنقد أساسه دراسة النصوص الأدبية دراسة ذوقية ، اتضح أنها الروءية اللانسونية للتذوق ، بغية " تمييز الأساليب " وتصنيف الآثار المدروسة اثر ذلك والتأريخ لها ضمن فنون أدبية أو تيارات عقلية وأخلاقية أو عصور للذوق . ويقترح على الدارس للقيام بكل ذلك الاستعانة بمعارف وعلوم مساعدة ـ دون اقحام مناهجها في الدراسة الأدبية ـ في فهم الأثر الأدبي ، واستخلاص المنهج المناسب لدراسة الأدب من الأدب نفسه .

ان هذا المنهج المقترح لا يختلف في شيء عن المنهج التاريخي ، الا أنه لم يرد متكاملا في مقال واحد ، وانما نجده موزعا بين عدة مقالات ، وحين نجمع أجزاءه الموزعة يتكامل أمامنا المنهج التاريخي بعناصره الأساسية ، وبذلك يمكننا القول انه دعا الى العمل بالمنهج التاريخي عملا جزئيا . فلماذا لجأ الى هذه الطريقة في تقديم منهجه المفضل؟هناك احتمالات كثيرة قد تكون جوابا على هذا التساوءل ، الا أن أقربها الى المنطق يكمن في طبيعة

---

1) ـ لانسون : المرجع السابق ص 412

الكتابة الصحافية التي تجبر الكاتب على تجزئة أفكاره - لأسباب فنية - عندما يكون موضوع البحث واسعا، ثم في محاولته الربط بين تحصيله النقدي والمنهجي الذي عاد به من فرنسا وبين التراث النقدي العربي بغية التأصيل لتلك الآراء والأسس النقدية التي أعجب بها ، فيمكنه بذلك أن يزعم أنه يقترح رؤية نقدية لها مكانها البارز في النقد العالمي ، ولها أيضا أصولها في التراث العربي ، وبالتالي فهي ليست استيرادا لأفكار نقدية غريبة عن الأدب العربي ، وليست تكرارا لأفكار نقدية ميتة تجاوزها الزمن .

لقد حدد النقد المنهجي في كتاب " النقد المنهجي عند العرب " ، الذي أحرز به درجة الدكتوراة سنة 1943 م ، بأنه : ((ذلك النقد الذي يقوم على منهج تدعمه أسس نظرية أو تطبيقية عامة ويتناول بالدرس مدارس أدبية أو شعراء أو خصومات يفصل القول فيها ويبسط عناصرها ويبصر بمواضع الجمال والقبح فيها .))(1)

فالأساس الذي بنى عليه موضوعه هو دراسة النقد العربي القائم على أسس نظرية أو تطبيقية أي القائم على منهج ، فالنقد الذي لايقوم على منهج ليس في نظره نقدا ولذلك يلزم نفسه بمنهج ، حتى تكون دراسته نقدا منهجيا ، و يدعو غيره للعمل به : ((ومعنى هذا هو أننا نفضل الأخذ بالمنهج التاريخي حتى عندما نحاول أن نضع للنقد حده ، وهذا هو المنهج الذي استقر الباحثون على جدواه منذ أوائل القرن التاسع عشر الى اليوم ، وبفضله جددت الانسانية من معرفتها بتراثنا الروحي وزادته خصبا .))(2)

وهكذا فضل المنهج التاريخي على بقية المناهج لاجماع الباحثين على جدواه في دراسة التراث الأدبي الأوروبي، فبفضله عرف الأدب الفرنسي تأريخا دقيقا ، مفصلا ، من مختلف

---

1) - د . مندور (محمد) : النقد المنهجي عند العرب . دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة . د . ت ص 05

2) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 11

جوانبه ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فتآليف الأخوين كروازي في التأريخ للأدب اليوناني وتآليف غاستون باري في التأريخ لآداب القرون الوسطى ، وغوستاف لانسون في تأريخه للأدب الفرنسي وأعلامه ، خير مثال على ذلك .

لقد تمثلت رغبة مندور الملحة ، منذ عودته من فرنسا ، في بعث النشاط والحيوية في الأدب العربي ابداعا ودرسا ، فكان يرى بالتالي أن الأخذ بالمنهج وتفصيله أمر حتمي على كل من درس آنذاك في السوربون ، ورآه مطبقا في جل الرسائل الجامعية ،وأساس أشهر التآليف الأكاديمية .

دعا مندور الى اتباع المنهج التاريخي في دراسة الأدب العربي والتأريخ له ، فحدد انطلاقا من ذلك منطلقات بحثه " النقد المنهجي عند العرب " معتمدا على آراء لانسون في كل من " التاريخ الأدبي " و النقد الأدبي ".فالنقد الأدبي هو دراسة للنص الأدبي وتحليله وابراز خصائصه الأسلوبية بالكشف عن خصائص صياغته المثيرة للصور الخيالية والانفعالات الشعورية والاحساسات الفنية ، فهو : ((فن دراسة النصوص والتمييز بين الأساليب المختلفة .)) (1)

أما التاريخ الأدبي ، فهو المرحلة التالية للنقد فيرى رأي لانسون في هذا الموضوع، مقتبسا حرفيا مفهومه للتاريخ الأدبي ، الذي يأتي بعد النقد الأدبي : ((فيجمع تلك المؤلفات تبعا لما بينها من وشائج في الموضوع والصياغة وبفضل تسلسل تلك الصياغات يضع تاريخ الفنون الأدبية ، وبتسلسل الأفكار والاحساسات يضع تاريخ التيارات العقلية والأخلاقية ، وبالمشاركة في بعض الألوان وبعض المناحي الفنية المتشابهة في الكتب التي من نوع أدبي واحد ومن تأليف نفوس مختلفة يضع تاريخ عصور الذوق .)) (2)

يتمثل المنهج التاريخي الذي يحث مندور الدارسين العرب على اتباعه في المنهج

---

1) - د. مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص 14.

2) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 14

التـــاريخـــي الـــــلانســـونـــــي الـــــذي اعـتـمـــــده فــــــــــي بـحـثـــــه هـــذا ، فدرس نصوصا نقدية عربية قديمة ، قصد التمييز بين أساليبها وابراز خصائصها المنهجية ،وتسلسل أفكارها ، وبذلك حدد التيارات النقدية التي عرفهـــا النقد العربي القديم ، أي النقد المنهجي عند العرب . وهكذا نرى أنه دعا من خــــلال كتابه " النقد المنهجي عند العرب " الى اتباع المنهج التاريخياللانسوني في دراســـة الأدب العربي والتأريخ له . وقد جعله اعجابه بهذا المنهج وبصاحبه لا يكتفي بالدعوة اليه في مقالاتـه ، وموء لفاته ، وانما حمله على أن يترجم فوق ذلك مقالة لانسون الشهيرة حـــول " منهج البحث في تاريخ الآداب " ليضع أمام الدارس والباحث العربي " المنهج الصحيـــح" كما حدده زعيمه : ((أما لا نسون فأستاذ للأدب الفرنسي ، تخرجت على يديه أجيال مـــن الأدباء والباحثين الذين يكونون اليوم في فرنسا مدرسة عظيمة الخطر لأنها تجمع بين الاتجاه الفلسفي في النقد والدقة العلمية في البحث ، حتى ليتأتى ما يكتبه أفراد هذه المدرسة مزيجاقويا من التفكير والمعرفة الصحيحة .)) (1)

ترجم هذه المقالة لأنها " منهج " مدرسة عظيمة الخطر في فرنسا ، داعيا الدارسيـــن والباحثين العرب الى اتباعها في دراسة الأدب العربي بغية الوصول الى معرفة هذا الأدب معرفة صحيحة .

ونلاحظ من مقارنة ترجمة مندور للمقالة بالنسخة الأصلية أنه بذل جهدا كبيـــــرا في الترجمة ، فجاءتجمله في معظمها ناقلة للمعنى الأصلي بدقة ووضوح ، الأمر الـــــذي يبين استيعابه التام لمضمون المقالة ، و اقتناعه بما جاء فيهامن أسس نظرية للمنهـــــج وخطوات عملية ، ترددت مرارا فيما بعدذلك في مقالاته ودروسه التي كان يلقيها هنا وهناك .

---

1) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 391

ورغم تشتت جهود مندور المهنية بين الصحافة والتدريس و المحاماة ، والتمثيل النيابي ، وهو ما جعله لاينجز أبحاثا أكاديمية منهجية بعد رسالته للدكتوراه حول النقد المنهجي عند العرب ، فان دعوته للمنهج التاريخي اللانسوني لم تضعف . فقد واصل دعوته تلك ضمن دروسه لطلبة المعاهد ومقالاته الصحافية ، كلما تعرض للنقد الادبي أو التاريخ الأدبي . ففي كتابه " في الأدب والنقد " يعرف طلابه بأن : ((النقد الأدبي في أدق معانيه هو : فن دراسة الأساليب وتمييزها .)) (1) وواضح أنه يكرر مفهوم لانسون للنقد الذي ردده في الكثير من المواضع . ثم يستعرض أنواع النقد الأدبي ، فيتحدث عن النقد " الذاتي أو التأثري" ثم النقد " الشيئي أو الموضوعي " فالنقد " الاعتقادي " . و النقد العلمي والنقد التاريخي ، وشرح هذه المذاهب النقدية شرحالا يختلف في أساسه عن شرح لانسون لها ورأيه فيها ، بل يورد أحيانا جملا مقتبسة حولها من مقالة لانسون . (2) ثم يخصص جزءا من الكتاب لتتبع تاريخ النقد الأدبي منذ اليونان حتى العصر الحاضر ، مستعرضا أشهر النظريات النقدية ومعرفا بكبار النقاد الأوروبيين ، مستخلصا أن النقد الأدبي المعاصر ينقسم الى ثلاثة أنواع :

1 - النقد الصحافي

2 - النقد الجامعي كنقد " لانسون " و" بيديي " و " هازار " و " ستروسكي" و" مورنيه " من أساتذة الجامعة .

3 - نقد رجال الأدب مثل أناطول فرانس ، وأندري جيد .

ومن استعراضه للنقد الجامعي وأعلامه ، يستخلص أن أعلامه السالفي الذكر : ((يمتازون

---

1)- د . مندور (محمد) : في الأدب والنقد . دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة 1949 ص 10

2) د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 10 - 21

بالتحقيق التاريخي ودقة المنهج والروح العلمية .)) (1) وهل هناك نقد أفضل من النقد الذي يتماز بالتحقيق التاريخي ودقة المنهج والروح العلمية ؟ ! .

عرف مندور طلابه بالمنهج التاريخي وأقطابه ، مضفيا عليه صفات يتمنى كل باحث أن يتصف بها ، وبذلك يكون قد دفعهم الى اتباعه دفعا غير مباشر . أما في كتابه " النقد والنقاد المعاصرون " ، فاستعرض أشهر النقاد العرب المحدثين بدءا بالشيخ حسين المرصفي؟1889) ، فميخائيل نعيمة 1889 _ 1988) وعبد الرحمن شكرى 1886 _ 1958) وعباس محمود العقاد ، 1889 _ 1964) وابراهيم عبد القادر المازني 1890 _ 1949)، ولويس عوض 1990) ، لينتهي بيحي حقي 1905 ؟ ، مستعرضا أهم موءلفاتهم وماورد فيها من قضايا نقدية ، ليستخلص اثر ذلك أن النقد العربي الحديث لا يخرج عن ثلاث مدارس نقدية :

1 ـ مدرسة النقد التوجيهي ، وتضم أولئك النقاد الذين ركزوا اهتمامهم على توجيه الأدب والفن الى الحياة والمجتمع منادين بفكرة الأدب الهادف ، القائد للحياة على أساس التفكير الاشتراكي، فطالبوا الأديب أو الفنان بتحمل المسوءولية والالتزام بقضايا شعبه ومجتمعه . (2)

2 ـ مدرسة النقد التفسيري ، وتضم في مجملها أساتذة الأدب الذين : ((يغلب على عملهم دراسة المؤلفات الأدبية التي غربلها الزمن ، فاحتفظ بالجيد منها وطوى الرديء، بحيث لم يعد في دراستها مجال واسع لتقييمها على أساس من الجودة أو الرداءة ، كما أنه لم يعد هناك بالبداهة مجال للنقد التوجيهي فيها ، وانما يعيد أساتذة الأدب تناولها

---

1) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 115

2) ـد . مندور (محمد) : النقد والنقاد المعاصرون . مكتبة نهضة مصر . القاهرة . د .ت ص 198 _ 199

بالدراسة لاعادة فهمها و تفسيرها وتوليد الجديد منها في ضوء ثقافتهم الواسعة وخبراتهم الدائمة التجدد.)) (1)

3 - مدرسة النقد التقييمي ، وتتضمن تلك الأعمال التي تقوم العمل الأدبي تقويما :
((قد يكون تأثريا جماليا خالصا كما قد يكون موضوعيا علميا أو شبه علمي ، فقد كانت لنافيه مشاركة .)) (2)

وواضح أن النقد التقييمي لا يستغني عن التفسير ، كما أن النقد التوجيهي يستعين بالتفسير والتقييم ، قبل أن يصل الى التوجيه ، الا أن السمة الغالبة على أي اتجاه هي التي تكسبه صفة التفسير أو التقييم أو التوجيه . (3)

ان التفكير في هذه المدارس النقدية التي سادت النقد العربي الحديث حسب رأي مندور ، يبين لنا أنه لم يخرج عن المفاهيم التاريخية اللانسونية في نقد الأدب . فالنقد التفسيري لا يختلف في شيء عن دراسة النصوص وشرحها ، والنقد التقييمي مرحلة من مراحل دراسة النصوص ، اذ قبل تقييم أثر من الآثار لا بد من دراسته ، أي تفسيره ، كما أن النقد التوجيهي لا يستطيع الاستغناء عن التفسير والتقييم . فقبل وصول الناقد الى توجيه مجتمعه أوشعبه من خلال التنويه أو التنديد بآثار أدبية معينة ، عليه بتفسيرها وتقييمها تقييما تأثريا أو موضوعيا ، وتبيان مواطن الجمال والقبح فيها ، ومدى صلتها بالمجتمع والحياة والتزام موء لفها بقضايا مجتمعه وعصره ، وبعد عن الانطواء .

ونظرا لتكامل هذه المدارس النقدية وتداخلها ، حسب رأي مندور ، ثم اعترافه بمساهمته في النقد التقييمي ، فانه يكون بذلك قد ساهم حتما في النقد التفسيري أيضا .

---

1) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 201.

1) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 199 - 200 .

3) - د .مندور (محمد) : المرجع السابق ص 199 .

فالناقد لا يقيم أثرا الا بعد تفسيره وشرحه وتحليله ، وتبيان مواطن القبح والجمال فيه .

ويختم كتابه " النقد والنقاد المعاصرون " بمقال يدعو فيه الى منهج نقدي جديد سماه " المنهج الأيديولوجي في النقد " ، استهله بتعريف النقد ، مقررا مرة أخرى بأن : ((هناك شبه اتفاق على أن النقد هو فن تمييز الأساليب .)) (1) ومن المعلوم أن هذا التعريف للنقد لانسوني ، ردده مندور في مقالاته ومؤلفاته منذ عودته من فرنسا ، كما هو مبين سابقا ثم استعرض تطور " النقد الأدبي " منذ عهد اليونان حتى العصر الحاضر ، حيث ظهرت فلسفات أعطت للأدب وظائف وأهدافا في الحياة زيادة عن وظيفته الجمالية : ((كان المنهج التأثري والمنهج الموضوعي هما اللذان يتصارعان في النقد في أواخر القرن الماضي وأوائل الحاضر قبل أن تظهر وتسيطر فلسفات جديدة على وظائف الأدب والفن وأهدافهما في الحياة ، وهي فلسفات لم تعد تسلم للآداب والفنون بأنهما نشاط جمالي فحسب. وأهم هذه الفلسفات : الفلسفة الاشتراكية والفلسفة الوجودية اللتان نتج عنهما منهج نقدي جديد نستطيع أن نسميه بالمنهج الأيديولوجي)). (2)

يتمثل المنهج الأيدلوجي اذن في تطبيق الفلسفة الاشتراكية في دراسة الأدب ، وهو بعبارة أخرى النقد التوجيهي ، كما سماه مندور سابقا ، وبذلك لم يعد لفكرة الفن مكان فالأدب والفن أصبحا في خدمة الحياة وتطويرها نحو الأفضل ، ولم يعد من الممكن أن يظل الأدب مجرد صدى للحياة ، بل أصبح عليه أن يكون قائدا لها ، فقد آن الأوان لكي يلتزم الأديب بمعارك شعبه وقضايا عصره الانسانية . وعلى أساس هذه المنطلقات التزم النقد الأيديولوجي بعدة قضايا أدبية كبيرة مثل : ((قضية الفن للحياة وقضية الالتزام في الأدب والفن ، وقضية الأدب والفن الهادفين ، وقضية الواقعية في الأدب والفن ، وتفضيل

1)- د. مندور (محمد) المرجع السابق ، ص 228.

2)- د. مندور (محمد) : المرجع السابق ، ص 233.

3) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 235

الأدب أو الفن القائد على الأدب أو الفن الصدى .)) [1] وتتلخص خطوات " المنهج الأيديولوجي " النقدية العملية في رأي مندور في : التفسير والتقييم والتوجيه . [2] ومن الواضح أن خطوات هذا المنهج لا تختلف في شيء البتة عن المدارس التي سادت النقدالعربي الحديث واستعرضها " مندور " في كتابه هذا ، وبذلك تكون دعوته الى " النقد التوجيهي أو " النقد الأيديولوجي " والتزامه به ، مساهمة منه في المدارس النقدية التي عرفها النقد العربي الحديث ، لأنها تتماشى وتطوره العقلي والفلسفي والسياسي .

مارس النقد التفسيري ـ شرح النصوص ـ وأعجب به ، لما أعجب بالنقد التقييمي مارسه لاقتناعه بالفكر الديمقراطي الاشتراكي الذي كان قد تجلى نقديا في اللانسونية ، فتشبع في السوربون . لقد اقتنع بالفكر الديمقراطي الاشتراكي منهجا فكريا ، كما اقتنع باللانسونية منهجا في دراسة الأدب يتماشى وزوعيته الديمقراطية الاشتراكية للحياة [3] فدعا طلابه وقراءه منذ بداية نشاطه النقدي الى اعتماد المنهج التاريخي ـ اللانسونية ـ كلية أو جزئيا في دراساتهم .

وعندما تغير نظام الحكم بمصر سنة 1952م ، وظهر التوجه الاشتراكي في أجهزةالدولة وتولى مجموعة من المثقفين الاشتراكيين الاشراف على المؤسسات الثقافية ، اقتنع مندور بالفلسفة الاشتراكية منهجا في الحياة السياسية والاجتماعية ، وبالنقد الأيديولوجي منهجا في دراسة الأدبونقده تماشيا مع فلسفته الجديدة [4] فدعا الطلبة والقراء الى المنهج الأيديولوجي " الذي لا يختلف في حقيقته عن المنهج التاريخي ـ كما يستشف من شرح مندور له

---

1) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 236

2) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 237 ـ 238

3) ـ أنظر الفصل الأول من الباب الرابع ص 250

4) ـ دوارة (فوءاد) : شيخ النقاد يتحدث .مجلة "المجلة" فبراير 1965. ص 65

الا في وظيفة التوجيه ، توجيه الأدب والأديب الى الالتزام بقضايا الشعب والعصر.

لقد تشبع مندور بالمنهج التاريخي ، فدعا الى اتباعه جزئيا أو كليا لأنه المنهج الذي يتماشي ورؤيته الفكرية والسياسية للحياة ، فلما غير منهجه السياسي ، لم يغير منهجه النقدي ، وانما أضاف اليه وظيفة نقدية جديدة تتطلبها الرؤية الجديدة للمجتمع والعلاقات المنظمة للمجتمع بالسلطة هي وظيفة " التوجيه " للقارىء في فهم النص الأدبي ، وتوجيه المبدع نحو قضايا وموضوعات ابداعية ان طرقها بأساليب معينة ساهم في بناء مجتمع اشتراكي يبني على أسس وعلاقات تختلف عن أسس المجتمعات التقليدية البالية وعلاقاتها . وبذلك نستطيع القول انه لم يغير منهجه النقدي في كتابه " النقد والنقاد المعاصرون " رغم دعوته الى " المنهج الأيديولوجي " ذلك انه احتفظ بالمنهج التاريخي تحت تسميات مختلفة . ومن ثم فان المنهج الأيديولوجي هو المنهج التاريخي مع اضافة وظيفة نقدية جديدة عليه هي التوجيه تماشيا مع التوجه الاشتراكي للدولة ومؤسساتها الثقافية آنذاك .

تحدث مندور في كتاب " الأدب وفنونه " عن " فن النقد " ضمن سلسلة محاضرات ألقاها على طلبته سنة 1962م فأعاد الحديث عن نشأة " النقد التأثري " وملازمة تطوره لتطور الفنون الأدبية الأخرى أولا ، ثم لتطور المذاهب الفلسفية ثانيا لأنها الاطار العقلي الذي ينطلق منه الناقد ، عادة ، في تعامله مع الظاهرة الأدبية واستخلاص قوانينها لتصبح قواعد متبعة ، حتى يتغير المجتمع بفعل فلسفة جديدة ، أو تأتي فلسفة جديدة لتفسيرها . فينطلق منها الناقد مرة أخرى في دراسة الظاهرة الأدبية ، فيتطور النقد بتطور الأدب من جهة والفلسفة من جهة أخرى .

لقد تتبع تطور فن النقد الأدبي منذ عهد اليونان حتى القرن التاسع عشر ، مفيضا في الحديث عن كل من هيبوليت تين ونظريته الشهيرة ، ثم برونتيير ومحاولته تطبيق نظرية

داروين التطورية في دراسة الادب ، وأخيرا "سانت بوف " الذي يعده أكبر نقاد فرنسا ، بل ربما يكون أكبر نقاد العالم بطريقته في رسم لوحات نقدية للأدباء . ثم يشير الى أن القرن التاسع عشر عرف نقادا لا يقلون أهمية عن نقاد فرنسا مثل الناقد الالماني " لسنج *Lessing* 1729 - 1781 صاحب كتاب " لا وكون " (1)

لقد عرف النقد الادبي ازدهارا كبيرا في القرن التاسع عشر ، لازدهار الفنون الأدبية وتنوعها ، وظهور فنون جديدة كالرواية مثلا ، وتعدد الأغراض المسرحية ، ثم تعدد الفلسفات وتطور وسائل الاتصال الثقافي بصفة عامة ، والادبي بصفة خاصة ، وانتقال مجال القراءة الأدبية والنقدية من طبقة محدودة ، هي طبقة الكهان والنبلاء في العصور الوسطى ، الى طبقات عديدة تضم البرجوازية وفئات أخرى من الشعب ، وانتشار المؤسسات التعليمية وتطورها ، فأدى كل ذلك إلى ظهور مناهج نقدية جديدة ، أهمها حسب مندور : ((المنهج العلمي الجامعي الأكاديمي الذي يوازن بين كافة المناهج ويأخذ من كل ما يلائمه بعد تسديده والتخلص من أخطاره .ولعلنا نجد خير توضيح لهذا المنهج الخاص بدراسة الادب والتأريخ له في المقال الجامع المانع الذي كتبه أستاذ الأدب الفرنسي الأكبر " جوستاف لانسون " ضمن سلسلة " مناهج البحث في العلوم" وقد ترجمناه الى العربية .)) (2)

وعلى هذا فان أهم المناهج النقدية يتمثل في المنهج العلمي الجامعي الأكاديمي كما حدده لانسون الأستاذ الأكبر ، على حد تعبير مندور سنة 1963 م ،ويبين لنا مدى لانسونية مندور حتى بعد المرحلة الأيديولوجية التي نادى فيها بالأدب الهادف والالتزام والواقعية ، وهي مرحلة كانت في اعتقادي استجابة لموجة فكرية وسياسية عمت البلاد فترة من الزمن .

---

1) - د. مندور (محمد) : الأدب وفنونه . دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة . د . ت ص 139 - 146

2) - د : مندور (محمد) : المرجع السابق ص 146

وعندما انتقل الى شرح وظائف النقد الأدبي وتعريفه ، أورد تعريف لانسون للنقد والمتمثل في أنه : ((فن تمييز الأساليب .))[1] أما فيما يتعلق بوظائف النقد فانه يكرر الوظائف التي ذكرها في كتاب " النقد والنقاد المعاصرون "أي الوظائف الثلاث التي عدها مدارس نقدية سادت النقد العربي الحديث ، وهي : التفسير والتقييم والتوجيه[2] ، وهي وظائف متداخلة ، لا تخرج عن المنهج التاريخي ، الا في وظيفة التوجيه التي حملتها الفلسفة الاشتراكية مسؤولية أكثر مما حملتها الديمقراطية الاشتراكية ، تلك الفلسفة التي غذت فكر مندور في السوربون ، وجعلته يتبنى المنهج التاريخي الأكاديمي في دراسة الأدب ويدعو للعمل به منذ عودته سنة 1939 م من فرنسا حتى وفاته ، والدليل على ذلك أنه لخص قبل وفاته بثلاثة أشهر نظريته النقدية كالتالي : ((النقد الأدبي هو فن تمييز الأساليب على أن نأخذ لفظ الأسلوب بمفهومه الأوروبي الواسع عندما نقول ان الأسلوب هو الرجل نفسه ، ووظائف النقد هي التفسير والتقييم والتوجيه .))[3]

لقد ختم مندور نشاطه النقدي ، الذي استغرق خمسا وعشرين سنة ومر بمراحل خلع عليها تسميات مختلفة ، بقوله بأن النقد هو " فن تمييز الأساليب " على حد تعبير لانسون الذي كان يعني بذلك الذوق التاريخي في دراسة الأدب :((يجب أن يكون لنا في الأدب وفي الفن ذوقان : ذوق شخصي يتخير المتع والكتب واللوحات التي نحيط بها أنفسنا ، وذوق تاريخي نستخدمه في دراستنا ، وهو ما يمكن أن نعرفه بأنه (فن تمييز الأساليب))[4]. ومعنى ذلك أن مندور بدأ نشاطه النقدي لانسونيا وانتهى لانسونيا ، رغم التسميات التي كان يطلقها من حين لآخر، اما تمويها لايهام القارئ بأنه ابتكر منهجا جديدا ، واما تماشيا

---

1) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 147

2) ـ د .مندور (محمد) : المرجع السابق ص 147

3) ـ دوارة (فؤاد) : شيخ النقاد يتحدث .مجلة " المجلة " فبراير 1965 ص 71

4) ـ لانسون :منهج البحث في تاريخ الآداب . (ترجمة . د . مندور) ص 405

مع تيار جديد فرضوجوده في ميدان النقد.ولم يتخلص خلالكل من أسر اللانسونية - وهذا من حيث الدعوة اليها - التي كانت تتلاءم وميوله الأدبية من جهة ، وعقليته القانونية من جهة أخرى ، كما كانت تتلاءم وفلسفة الديمقراطية الاشتراكية التي اعتنقها أثناء دراسته بالسوبون.(1)

لقد اقتنع مندور باللانسونية ، فدعا طيلة حياته النقدية للأخذ بها في دراسة الأدب العربي تلميحا أحيانا وتصريحا أحيانا أخرى ، وكان متمثلا ومستوعبا لها الاستيعاب التـــام، الأمر الذي دفعه الى ترجمة مقالة لا نسون حول منهج البحث في الآداب التي تعد دستـــور اللانسونية وذلك حتى يضع أمام القارىء والباحث العربي المنهج المفضل لديه فيأكمـــل صورة ، فهل طبقها في دراساته التطبيقية على الأدب العربي أو لم يطبقها ؟ ذلكماسيتضـــح في الفصل التالـــي .

---

1)- د . مندور (محمد) : مذهبي في النقد . مجلة " المجلة " عدد 103 . القاهرة يوليو 1965 . ص 58 - 60 .

الفصل الثالث

محمد مندور وتطبيقه للمنهج التاريخي

نشرمندور العديد من الكتب ، حوت مقالاته المنشورة في الصحف والمجلات ، ثم محاضراته التي كان يلقيها على طلبة المعاهد المختلفة . وحين نستعرض كتبه ، يتضح لنا أنها لم توء لف تأليفا منهجيا أكاديميا ، فهي مزيج من المقالات الموجهة لعامة القراء ، كتبت على عجل لمسايرة سرعة صدور الصحف والمجلات ، ثم مواعيد الدروس التي كان يلقيها على طلبة المعاهد المختلفة ، مثل معهد البحوث والدراسات العربية ، ومعهد الفنون المسرحية ومعهد الصحافة ، وكانت كلها دروسا تهدف الى تعريف الطلبة بأجناس أو مذاهب أو تيارات أو شخصيات أدبية تعريفا عاما . فكان يقدم فيها معلومات أدبية مدرسية ليست وليدة البحث والتنقيب الأكاديميين ، وانما هي معلومات مستقاة من الكتب المدرسية . ولذلك جاءت موء لفاته خلوا من التطبيق المنهجي الصارم للمنهج التاريخي الذي دعا الى اتباعه طيلة حياته النقدية كما سبق القول : فطبيعة المنهج التاريخي المدققة الصارمة المبنية على التروى والتأني لا تتماشي والنقد الصحافي السريع الذى لا يهدف الى استكناه الحقيقة بقدر مايهدف الى تعريف عامة القراء بمعلومات عامة أو اطلاعهم على وجهة نظر خاصة ، ولا تتماشي أيضا والدروس العادية الموجهة الى طلبة المعاهد قصد تعريفهم بمعلومات أدبية عامة . لذلك يلتزم فيها مندور بتطبيق المنهج التاريخي تطبيقا دقيقا ، مكتفيا فيجل كتاباته بالنقد التأثري حسب المفهوم اللانسوني ، ولا تستثني من كتبه سوى بحثه الأكاديمي " النقد المنهجي عند العرب " الذي أعده لنيل درجة الدكتوراه، ودعا في مقدمته الى العمل بالمنهج التاريخي ، مصرحا بأنه سيطبقه في بحثه هذا : ((ومعنى هذا هو أننا نفضل الأخذ بالمنهج التاريخي حتى عندما نحاول أن نضع للنقد حده ، وهذا هو المنهج الذي استقر الباحثون على جدواه منذ أوائل القرن التاسع عشر الى اليوم ، وبفضله جددت الانسانية من معرفتها بتراثنا الروحي وزادته خصبا .)) انه ليصرح بعزمه على تطبيق المنهج التاريخي لأنه حسب رأيه - المنهج الذي أجمع الباحثون على جدواه من جهة وجددت الانسانية بفضله معرفتها بتراثها

1) - د . مندور (محمد) : النقد المنهجي عند العرب ص 11

من جهة أخرى ، ولذلك عزم تطبيقه في بحثه هذا حتى في محاولته وضع حد للنقد عند العرب أي انه كان يريد أن يطبق مبادىء المنهج التاريخي وأسسه وخطواته عند بحثه عن مفهوم " النقد " في النقد العربي القديم . فكيف كانت نتائج هذا التطبيق ؟

لقد قصد بعنوان " النقد المنهجي " : ((ذلك النقد الذي يقوم على منهج تدعمه أسس نظرية أو تطبيقية عامة ويتناول بالدرس مدارس أدبية أو شعراء أو خصومات يفصل القو فيها يبسط عناصرها ويبصر بمواضع الجمال فيها .)) [1]. وعلى هذا الاساس دار البحث حول النقد العربي القديم القائم على أسس نظرية وخطوات عملية أو على واحدة منها على الأقل ، دون الاهتمام بتلك الأحكام والآراء النقدية التي كانت تصدر عن الشعراء أو حكام الأسواق لا فتقادها الى الأسس النظرية ، وعدم اتباعها خطوات عملية .

استعرض مندور موءلفات النقد العربي القديم :((منذ أول كتاب وصل الينا في النقد و تاريخ الأدب وهو كتاب " طبقات الشعراء " الذي كتبه ابن سلام الجمحي في القرن الثالث الهجري ، كما تتبعناه الى أن تحول النقد الى بلاغة علي أيدي أبي هلال العسكري.)) [2] يبحث فيها عن الأسس النظرية أو الخطوات العملية التي تضفي على الأثر النقدي صفة المنهجية [3] ، وتساعد الناقد على تمييز الأساليب المختلفة ، باظهاره خصائص الصياغة وتحليلها ، ليأتي موءرخ الأدب ، بعد ذلك ، فيكمل العمل اعتمادا على النتائج النقدية المتوصل اليها ، فيجمع الموءلفات تبعا لما بينها من وشائج في الموضوع و الصياغة واضعا [4] تاريخ الفنون الأدبية أو تاريخ التيارات العقلية الأخلاقية ، أو تاريخ عصور الذوق ، حسب

---

1 ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 05

2) ـ د .مندور (محمد) : المرجع السابق ص 05 ـ 6

3) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 14

4) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 14

نوع الوشائج القائمة بين الاثار المختلفة.لقد بحث مندور عن كل ذلك في آثار النقد العربي القديم ، على أساس هذه المنطلقات المنهجية التاريخية اللانسونية ، بدءابأول أثـــر نقدي عرفته العرب وانتهاء بموء لفات القرن الخامس الهجري التي اعتبرها نقطة تحـول النقد العربي القديم الى بلاغة ، فجاء بحثه في قسمين أساسيين ، أولهما تاريخ النقـد من ابن سلام الى ابن الأثير ، وثانيهما موضوعات النقد ومقاييسه .

أولا : تاريخ النقد من ابن سلام الى ابن الأثير :

استهل مندور تأريخه للنقد العربي بدراسة كتاب " طبقات الشعراء " لابن سلام الجمحي فاستعرض الكتاب وطريقة تاليفه على ضوء المنطلقات المنهجية التي حددها لنفسه ، فبحث عن منهج الكتاب المتمثل في تقسيم ابن سلام للشعراء حسب مقياس زماني الى جاهليـيــن واسلاميين ، ثم حسب مقياس مكاني بمدى انتشار هم في الحواضر مثل مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين ، الا أن هذين ((الفصلين لم يكوناعنده الا اطارين كبيرين أدخل فيهما تقسيمه للشعراء على أساس من النقد الادبي .))[1] وهذا أمر طبيعي ، فالنقد مرحلة أولـى في الدرس الادبي منهجيا . فهل كان نقد ابن سلام منهجيا أو كان امتدادا للنقد العربـي في الجاهلية وعهد بني أمية ؟ ذلك النقد الذوقي الذي كان يفتقر الى شروط الذوق مـن دربة ومعرفة ومراجعة وتعليل ، أي أنه لم يكن متقيدا بالروح العلمية والمنهجية ، مكتفيا بالاحساس الفني .[2] أسئلة لن يجيب عنها سوى البحث التاريخي المنهجي. بحث في كتـاب ابن سلام عن الأسس المنهجية ، فلم يجد منها الا " الدربة والممارسة "[3] التي يشترطها ابن سلام في الناقد ، حيث يقول : ((وقال قائل لخلف : اذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه

1) ـ د .مندور (محمد) : المرجع السابق ص13

2) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 16 ـ 17

3) ـ د. مندور (محمد): المرجع السابق ص 18

فما أبالي، قلت أنت فيه وأصحابك . قال : اذا أخذت درهما فاستحسنته ، فقال الصراف: انه رديء ! فهل ينفعك استحسانك اياه .)) (1)

فهذا دليل على كون الدربة والممارسة أساسا نقديا عند ابن سلام . ثم بحث عن الخطوات العلمية التي يوجبها المنهج التاريخي ، فلم يجد منها الا انتباه ابن سلام الى " تحقيق النصوص وصحة نسبتها " (2) تفاديا لتلك الأشعار التي وضعتها القبائل عندما استقلت شعرها، أو وضعها الرواة . فالروح القبلية كانت سببا في افساد نسبة الشعر والشعراء على هذا النحو .

ولتحقيق النصوص ونسبتها الى أصحابها ، انتبه ابن سلام في رأى مندور الى ضرورة تحلى الناقد بالروح العلمية في التحليل والتعليل . (3)

وما عدا هذه الملامح المنهجية القليلة التي استخلصها من كتاب ابن سلام ، فانه لم يعثر على أسس نظرية أو خطوات عملية تضع نقد ابن سلام ضمن النقد المنهجي فهو : ((لم يسبب أحكامه بتحليل لنص أو ذكر لصفات مميزة . وان أورد خصائص جاءت عامة غامضة غير دقيقة لقوله عن أبي ذوءيب الهذلي " انه شاعر فحل لاغميزة فيه ولا وهن " (...) واذن فابن سلام لم يتقدم بالنقد الفني الى الأمام شيئا كبيرا وان كان صدر في تحقيقه للنصوص عن مذهب صحيح ، وحاول أن يدخل في تاريخ الادب العربي اتجاها نحو التفسير ومحاولة للتبويب تقوم على أحكام فنية ، ولهذا نستطيع أن نظل عند ملاحظتينا السابقتين من عدم صدور النقد - كفن لدراسة النصوص وتمييز الأساليب - عن منهج مستقيم وروح علمية في تعليل الأحكام)) (4) أقر مندور بريادة ابن سلام للنقد العربي واستعداداته المنهجية - كما تتجلى

---

1) - الجمحي (ابن سلام) : طبقات فحول الشعراء (تحقيق محمود محمد شاكر) السفر الأول مطبعة المدني . القاهرة . د . ت ص 07

2) - د . مندور (محمد) : النقد المنهجي عند العرب ص 19

3) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 20

4) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 22

في كتابه - الا أن عدم اعتماده على النصوص الشعرية أولا ، وانسياقه وراء النقد الذوقي الخالي من الشروط المنهجية ثانيا ، جعل مندور يخرجه من زمرة النقاد المنهجيين ، لخلو عمله من أسس المنهج التاريخي أو خطواته كما فهمه مندور وكما جعله منطلقه في الدراسة والتحليل . وهي نتيجة منطقية اذا نحن أخذناها بمقياس المنطلقات ، الا أن مندور غالى كثيرا في تشدده مع ابن سلام الذي كان يتعامل مع مادة شعرية لما تثبت بعد ، وفي عهد كان الاهتمام فيه منصبا على مجالات أخرى من الدرس ، ومن ثم فان مجرد اهتمام ابن سلام بدراسة الشعر والشعراء في تلك الفترة بالذات دليل قوي على تمتعه بعقلية نقدية ذواقة تنحو منحى علميا حسب ظروف عصره . ثم واصل تأريخه للنقد العربي بدراسته كتاب " الشعر والشعراء " لابن قتيبة ، فبحث فيه عن الأسس النظرية والخطوات العملية للمنهج المتبع ، فلاحظ أن الموءلف لم يأخذ أسوة بابن سلام بفكرة الطبقات وانما اعتمد على التفكير المنطقي المجرد في معالجة القضايا النقدية ، وبخاصة قضية القديم والجديد في الشعر حيث كان موقفه ثورة نقدية : ((صادرة عن نظر فلسفي أكثر من صدورها عن حكم استقراء من طبيعة الشعر القديم والحديث ونسبة الجودة في كل منهما ، أو قربهما من مثل أعلى في الشعر .)) (1) وذلك من خلال قوله : ((ولم أسلك ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له ، سبيل من قلد ، أو استحسن باستحسان غيره . ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر (منهم) بعين الاحتقار لتأخره.بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائله .)) (2)

---

1) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 23

2) ابن قتيبة :الشعروالشعراء.دارالثقافة . بيروت 1964. ص 10.

لم يتعامل ابن قتيبة مع النصوص الشعرية نقداو تحليلا، وانماراح يفكر تفكيرافلسفيا مجردا في قضية الشعر انطلاقا من قضية نقدية شغلت النقد العربي آنذاك هي قضية " اللفظ و المعنى" ، فقسم الشعر الى (1) :

1- شعر حسن لفظه و جاد معناه .

2- شعر حسن لفظه و حلا فاذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.

3 - شعر جاد معناه و قصرت ألفاظه .

4- شعر تأخر لفظه و تأخر معناه .

و بديهي أن هذا التقسيم منطقي يتماشى و التفكير الفلسفي المنطقي ، ولكن التراث الشعري العربي لم يصدر عن هذا التقسيم ، ولم يتقيد به . فالشعر قد لا يكون حسن اللفظ ولا جيد المعنى وليس بالضرورة سيئهما . كما أن القصيدة قد تكون جيدة اللفظ في مواضع حسنته في مواضع أخرى، والأمر نفسه ينسحب على المعنى. ومن هنا استنتج مندور أن ابن قتيبة لم يصدر عن منهج نقدي في نقده للشعر و الشعراء، رغم تمتعه بروح علمية تتجلى في بعده عن التعصب للقديم أو عليه ، وضرورة اعمال الفكر و الذوق الشخصي ، فهو: ((لم ينقد النصوص نقدا تحليليا (...) وانما أورد في كتابه "الشعر والشعراء" أخبارا و قصصا عن الشعراء المختلفين ثم بعضا من أشعارهم دون مناقشة ولا حكم الا أن يكون حكما تقليديا يرويه عن الغير ولا فضل له فيه (..) و العيب الواضح في نظرات ابن قتيبة يرجع الى منهجه العقلي، فهو تقريري النزعة في كل شيء، وهو أحد تفكيرا منه احساسا أدبيا . وهو لا ينظر الى الظواهر نظرة تاريخية ، بل نظرة منطقية ، تتناول الأشياء كما تعرض في آخر مراحلها .)) (2)

ان ابن قتيبة لم يكن ناقدا في رأي مندور، لأنه لم يكن يتمتع بذوق أدبي يمكنه من

---

1)- ابن قتيبة : المرجع السابق ، ص 12- 15.

2)- د. مندور (محمد): النقد المنهجي عند العرب ، ص 31.

دراسة النصوص الشعرية ، وانما كان صاحب تفكير فلسفي منطقي، فكان يتعامل مع القضايا الأدبية تعاملا فكريا مجردا ، فجاءت آراؤه النقدية أحكاما تقريرية أملاها التفكير المنطقي تفتقر الى التطبيق النقدي، ومن ثم انعدمت عنه الأسس المنهجية أو الخطوات العملية النقدية التي تتماشى و مفهوم النقد عند مندور، ولذلك أخرج ابن قتيبة من تيار النقد المنهجي. واذا سلمنا مع مندور بأن ابن قتيبة لم يطبق مقاييسه الشعرية على الشعراء الذين أوردهم في كتابه ، فان الاهتداء الى تلك المقاييس المنطقية حول قضية" اللفظ والمعنى" و موقفه من القديم و الجديد" اضافة الى بقية القضايا النقدية التي ضمنها مقدمته الكتاب أمر يستحق التنويه . فالتفكير الفلسفي قاعدة يقوم عليها كل منهج نقدي حديث، ولا وجود لمنهج نقدي لا يستند على فلسفة معينة ، وأكبر مثل على ذلك المنهج التاريخي سليل الفلسفة الوضعية .

كانت أفكار ابن قتيبة وآراؤه النقدية ، وهي سليلة التفكير المنطقي، خطوة في طريق بناء منهج نقدي يساير الرؤية الفلسفية الناشئة وقتذاك . فلما خبا التفكير الفلسفي الطليق عند العرب، لم تتبع خطوات ابن قتيبة خطوات أخرى، فبقي جهده خارجا عن النقد المنهجي ابن الفلسفة الوضعية . . . .

و درس مندور بعد ابن قتيبة منهج أصحاب " البديع " من خلال كتاب البديع لعبد الله بن المعتز (247هـ ـ 296 هـ) وكتاب " نقد الشعر" لقدامة بن جعفر، فرأى أن كتاب " البديع" ما هو الا تنظير لجملة من طرق الأداء في الشعر سماها المحدثون " البديع " و نظر لها ابن المعتز ، فقسمها الى خمسة أقسام : الاستعارة ، و التجنيس، و المطابقة ، و رد أعجاز الكلام على ما تقدمها، و المذهب

الكلامي [1] . وأراد بتأليفه هذا الكتاب أن يثبت : ((أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من أبواب البديع .)) ، [2] فالظاهرة موجودة بوجود الشعر ، وانما يرجع الفضل الى المحدثين في الانتباه لوجودها ، كما يرجع فضل الريادة في التأليف في هذا الفن اليه : ((ولعل بعض من قصر عن السبق الى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا في فضيلته فيسمي فنا من فنون البديع بغير ما سميناه .)) [3] . ولكن دراسة مندور التاريخية لهذا الكتاب جعلته يتساءل : ألم يكن لكتاب أرسطو " الخطابة " وفن الشعر" دور في تأليف ابن المعتز لهذا الكتاب ؟ الواقع أن كتاب " الخطابة " : ((يتحدث عن " العبارة " ويذكر الاستعارة والطباق والجناس ورد الأعجاز على ما تقدمها ، وهذه أربعة من الخمسة التي ميزبها ابن المعتز مذهب المحدثين ، الخامس وهو المذهب الكلامي، فذكر ابن المعتز نفسه أنه قد أخذه عن الجاحظ وهو في الواقع ليس من خصائص الصياغة الجديدة بل هو منهج عقلي .)) [4]

لا يستبعد اذن أن يكون ابن المعتز قد استفاد من مصطلحات أرسطو للبديع وتقسيماته كما عرفتها الحياة الفكرية العربية وقتذاك بدلالات ومناهيم مضطربة ، ثم أخذ عنه التوجه العام وطريقة تحليل هذه الظواهر مطبقة على اللغة العربية ، فحق له أن يزعم بذلك ريادة هذا الفن عند العرب . ولكن عمله هذا لم يتعد التفكير في تقسيمات ومقاييس بلاغية - بتأثير أو بغير تأثير من أرسطو - بحث عنها بما لها من فروع مستحسنة أو مستقبحة في القرآن والحديث والشعر قديمه وحديثه ، دون أن يجعلها مقاييس نقدية ينطلق منها أو يطبقها في دراسة نصوص شعرية ونقدها وتحليلها بصورة ملائمة .

---

1) - ابن المعتز (عبد الله) : كتاب البديع (تحقيق كراتشكوفسكي) دار المسيرة ط 3 بيروت 1982

2) - ابن المعتز (عبد الله) : المرجع السابق ص 03

3) - ابن المعتز (عبد الله) : المرجع السابق ص 2 - 3

4) - د . مندور (محمد) : النقد المنهجي عند العرب ص 62

ثم درس كتاب " نقد الشعر " لقدامة بن جعفر انطلاقا من أسس وخطوات المنهج التاريخي ، فوجد الكتاب مجرد : ((بناء هيكلي منطقي تضوره قدامة بعقله المجرد)) (1) وهذا انطلاقا من تعريفه الشعر : ((انه قول موزون مقفى يدل على معنى)) (2) ، ثم أقام نظريته النقدية على ائتلاف عناصر تعريفه ، أي ائتلاف كل من : اللفظ والمعنى والوزن والقافية مع بعضها البعض في بناء هيكلي يقبله العقل ، ولكنه لا ينطلق من الشعر البتة ، على غرار ما فعله ابن المعتز قبله ، ويقرر بناءه بعيدا عن الواقع الشعري .

تساءل مندور بعد النتيجتين المنهجيتين المستخلصتين من دراسة الكتابين السالفي الذكر إذا كان كلمن ابن المعتز و قدامة بن جعفر قد خطوا بالنقد العربي خطوة منهجية إلى الأمام ؟ ولكن منطلقه المنهجي جعله يجيب : ((ذلك ما لا يمكن القول به ، فالنقد كما عرفنا هو " فن دراسة الأساليب " ومن الواضح أن هذين الكتابين لا يتناولان نقد الشعر نقدا موضعيا ، وانما هما كتابان علميان قصدا الى ايضاح مبادىء ووضع تقسيمات ، فهما خلو من النقد الذي يتناول الأبيات ذاتها ، فينظر فيها من جميع جوانبها .)) (3)

أخرج مندور ابن المعتز وقدامة بن جعفر من أعلام النقد المنهجي لأنهما لم يصدرا في عمليهما عن أسس منهجية ، ولم يلتزما بخطوات عملية في دراسة الشعر ، بل لم يدرساه على الاطلاق ، وانما وضعا أسسا بلاغية نقدية مجردة ، فجاء نقدهما شيئا من التنظير النقدي كان من الممكن أن يتطور الى مناهج نقدية تطبيقية لو بادر صاحباه بالتطبيق ، فلما اكتفيا بالتنظير لم يجد اللاحقون نماذج تطبيقية ، فبقيت تلك الجهود مجر د محاولات تنظيرية لا تنوء هل أصحابها للانضواء تحت لواء " النقد المنهجي " .

---

1) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص68

2) ـ قدامة بن جعفر : نقد الشعر (تحقيق مصطفى) مكتبة الخانجي ط 3 القاهرة 1978ص17

3) د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 73 ـ 74 .

وبديهي أن منطلقات " مندور " المنهجية في بحثه هذا تؤدي الى استنتاج مثل هذه النتائج بالنظر الى الواقع النقدي السائد آنذاك . ومع ذلك يبقي السؤال المطروح بالحاح هل يصح منهجيا دراسة أفكار وآراء نقدية وتحليلها بناء على أسس منهجية ظهرت متأخرة بقرون عن تلك الأفكار والآراء النقدية ، ثم الحكم بعدم منهجيتها لأنها لا تتماشي وتلك الأسس المنهجية التي لم تكن قد ظهرت بعد ؟ ! . عندما انتهى دراسة قضية " القدماء والمحدثين " في الشعر العربي (1) والخصومات النقدية التي أثارتها بين المتعصبين للقدماء والمتعصبين للمحدثين ، أخرج الصنفين من دائرة " النقد المنهجي " لتعصبهما وصدورهما عن أسس عاطفية أو ذوقية غير علمية مثل " الصولي " زعيم المتعصبين للحديث ، وآستنتج أن كل الجهود النقدية السابقة : ((كانت سببا في تأليف الآمدي كتابه الفريد في النقد العربي " الموازنة بين الطائيين " ففيه نجد خلاصة كل ما ألف في النقد قبل الآمدي كما نجد منهجا للنقد ومقدرة عليه ، واستقصا للأحكام ، وتقيدا بالموضوع ، وقصدا في التعميمات ، وبعدا عن التعصب.)) (2) فالكتاب منهجي ، لصدوره عن أسس منهجية وخطوات عملية كان المؤلف قد صرح بها ، ثم طبقها عمليا في كتابه ، فيحدد منهجه في الصفحات الأولى : ((وأن أبتدىء بذكر مساوىء هذين الشاعرين لأختم (بذكر) محاسنهما . وأذكر طرفا من سرقات أبي تمام ، واحالاته ، وغلطه ، وساقط شعره ، ومساوىء البحترى في أخذه من معاني أبي تمام ، و غير ذلك من غلطه في بعض معانيه . ثم أوازن من شعريهما بين قصيدة وقصيدة اذا اتفقتا في الوزن والقافية واعراب القافية ، ثم بين معنى ومعنى ، فان محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك (تنكشف) ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما

---

1) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 75 ـ 98

2) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 98

فجودة من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه وأفرد بابا لما وقع في شعر يهما من التشبيه ، وبابا للأمثال ، أختم بهما الرسالة ، ثم أتبع ذلك بالاختيار المجرد من شعريهمـا و أجعله موء لفا على حروف المعجم ، ليقرب تناوله ، ويسهل حفظه ، وتقع الاحاطـة به ، ان شاء الله تعالى .)) (1)

لقد حدد الآمدي منهجه في دراسة شعر أبي تمام والبحتري تحديدا دقيقا ، يتمثـل في دراسة مساوىء الشاعرين ثم محاسنهما من خلال تتبعه للمعاني والأوزان والقافيـة والأخطاء والاحالات والتشبيه والأمثال ، وغير ذلك من الموضوعات والقضايا المشتركـة بينهما ، دون تدخل منه لتفضيل هذا على ذاك ، أوحث للقارىء على التحزب لهذا ضـد الآخر، وانما يكشف المحاسن والمساوىء عند كليهما بموضوعية ونزاهة وحياد تاركا الحكـم للقارىء : ((وأنا أذكر بإذن الله في هذا الجزء (الثاني) المعاني التي يتفق فيهمـا الطائيان ، وأوازن بين معنى ومعنى ، وأقول : أيهما أشعر في ذلك المعنى بعينـه . فلاتطالبني أن أتعدى هذا الى أن أفصح لك بأيهما أشعر عندي على الاطلاق ، فاني غيـر فاعل ذلك ، لأنك ان قلدتني لم تحصل لك الفائدة بالتقليد .وان طالبت بالعلل والاسباب التي أوجبت التفضيل ، فقد أخبر تلك فيما تقدم بما أحاط به علمي من نعت مذهبيهمـا وذكر مساويهما فيسرقة المعاني من الناس (وانتحالها) ، وغلطهما في المعاني والألفاظ)) (2)
اتبع الآمدي في دراسته للطائيين منهجا نقديا متكاملا ، فكان محايدا وموضوعيا في تعاملـه مع مادة البحث ، وكانت أسسه النظرية واضحة ، وخطوات العملية محددة ومنظمة ، فدرس المحاسن والمساوئ عند الشاعرين معتمدا في ذلك على علل وأسباب ليوضح الخبايـا

---

1) ـ الآمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر) : الموازنة بين شعر أبي تمام والبحترى . تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف بمصر . ج1 . ط 2 . 1972ص 57

2) ـ الآمدي : المرجع السابق ص 410

والزوايا ، تاركا الحكم النهائي للقارىء : ((ونحن وان كنا نحتفظ بالنظر في تنفيذ الآمدي لهذا المنهج أو عدم تنفيذه كاملا ، الا أننا نستطيع أن نستخلص منْ أقواله هذه روحه في الدرس ، فهي روح ناضجة ، روح منهجية حذرة يقظة .)) (1)

تتجلى روح الآمدي العلمية في أسس منهجية نادى بها مثل الموضوعية والحياد والتذوق المبني على المعرفة والدربة في دراسة الشعر ، والتخصص العلمي ، والممارسة . (2) وذلك مما مكن مندور من تتبع أسس المنهج التاريخي وخطواته عند الآمدي ، فوجده يدقق في تحقيق النصوص ويمحصها ، قبل أن يصدر رأيه على العكس من سابقيه أمثال " الصولي " ثم يناقش السابقين في أحكامهم مناقشة علمية دقيقة ، دون اعتبارها حقائق علمية مسلم بها ، (3) مع ذكره للآراء المتناقضة ومناقشتها مناقشة تفصيلية . كما لاحظ أن الآمدي : ((لم يكن يجهل شيئا لا من علوم اللغة العربية وآدابها التقليدية فحسب ، بل ولا من العلوم الفلسفية المستحدثة ، وان تكن العلوم لم تبهره ولا ضللت أحكامه عن الأدب والشعر .)) (4) ولذلك درس الشاعرين دراسة لغوية وبلاغية لابراز المعاني المختلفة عندهما على ضوء ثقافة العصر :

استخلص مندور من الأسس المنهجية المبثوثة في حنايا الكتاب ، والخطوات العملية المتبعة في دراسة شعر الشاعرين ، وامكانية تطبيق كل ذلك في دراسات أخرى على شعراء آخرين أن النقد العربي أصبح منهجيا : ((هذا هو الآمدي الناقد ، بحثنا في منهجه وروحه وثقافته وعلاقته بالنقاد السابقين له . وحددنا أهميته من الناحية التاريخية (...) وقد أصبح النقد منهجيا كما رأينا عند الآمدي وكما سنرى عند عبد العزيز الجرجاني .)) (5)

---

1) ـ د . مندور (محمد) : النقد المنهجي عند العرب ص 100

2) ـ الآمدي : المرجع السابق ص 410 ـ 419

3) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 104 ـ 106

4) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 119

5) ـ د . مندور : (محمد): المرجع السابق ص 162

أصبح النقد العربي في رأي مندور منهجيا مع الآمدي لأنه اتبع أسسا منهجية،وخطوات عملية، مطبقا كل ذلك على النصوص الشعرية للشاعرين مع الاستعانة من أجل ذلك بالعلم والثقافة والذوق بموضوعية ونزاهة وحياد ، تاركا حرية الحكم النهائي للقارىء . ان هذه الأسس والخطوات لتعتبر عناصر أساسية في المنهج التاريخي الذي يعده مندور النقد المنهجي، ولذلك عد نقد الآمدي منهجيا بالمعنى العلمي لكلمة منهج .

درس مندور الحركة النقدية التي عرفها النقد العربي القديم بالصراع بين أنصار القديم وأنصار الجديد في الشعر ، وبين أن الفريقين لا يمتون الى النقد المنهجي في شيء، لصدورهما في الآراء والأحكام النقدية عن : أحكام قيمية ، ومواقف مسبقة وأهواء ، مستثنيا من تلك الحركة " الآمدي " الذي عده أول ناقد منهجي عرفه النقد العربي القديم ، لدراسته شعر البحتري وأبي تمام في كتابه " الموازنة " دراسة منهجية ، لها أسسها وخطواتها، والتزامه بالروح العلمية ، واعتماده على الذوق والدربة في معالجة شعر الشاعرين ، والجمع بين الذوق والمعرفة دون أن يحرص على صدار حكمه النهائي ، ثم لصلاحية تطبيق منهجه على شعراء آخرين ، وبذلك فهو نقد منهجي حقيقي عملي ، طبقه صاحبه ومن الممكن أن يطبقه غيره .

بعد أن عرض مندور المعركة النقدية حول القديم والجديد ، وتعصب طرفي المعركة وصدورهما عن أهواء ومواقف مسبقة ، مما جعله يخرج الفريقين من دائرة النقد المنهجي ، وصل الى النتيجة نفسها حين تعرض للمتعصبين للمتنبي والمتعصبين عليه ضمن تلك المعركة النقدية التي عرفها النقد العربي القديم ، وكان المتنبي موضوعها . (1) فتعصب له فريق ، وتعصب عليه فريق ثان من منطلق عاطفي انفعالي ، وليس عن مقاييس نقدية ثابتة ، أو خطوات عملية : ((هذا ملخص للخصومة التي أثارها المتنبي حيثما سار ، ولما حركت

---

1) _ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 163 _ 248

تلك الخصومة من نقد رأينا أن الأهواء قد لعبت فيها دورا كبيرا سواء في حلب أو في بغداد .))[1] وما دامت الأهواء هي المحرك لهذه الخصومة ، فان ما صدر عنها من أحكام نقدية لا يعد نقدا منهجيا ، اللهم الا ما صدر عن الجرجاني صاحب " الوساطة " ثم الثعالبي صاحب " اليتيمة " .[2]

قدم مندور نبذة موجزة عن حياة القاضي الجرجاني ومؤلفاته المفقودة والموجودة مستخلصا منها أن روح القضاء والفقه والتاريخ هي السمة العقلية التي اتسم بها كتاب " الوساطة " للجرجاني[3] : ((فهذاكما ترى رجل يقدس العلم ، ويرى فيه نبل الانسان ، ويدعو الى البعد به عن الهوى والتعصب ، وهو يقول بالمحاجة النزيهة التي تذعن للحجة تقيمها))[4]

استنتج هذه النتيجة من مؤلفات الجرجاني ، ومن كتابه " الوساطة " بصفة خاصة، حيث أوضح أن العلم يتنا في والتعصب أياكان نوعه ومصدره ، ومن ثم قرر أن جل الدراسات التي قامت حول المتنبي قبله لم تصدر عن روح علمية نزيهة : ((ومازلت أرى أهل الأدب منذ ألحقتني الرغبة بجملتهم ، ووصلت العناية بيني وبينهم - في أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي فئتين : من مطنب في تقريظه ، منقطع اليه بجملته ، منحط في هواه بلسانه وقلبه ، يلتقي مناقبه اذا ذكرت بالتعظيم ، ويشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم ، ويعجب ويعيد ويكرر ، ويميل على من عابه بالزراية والتقصير (...)وعائب يروم ازالته عن رتبته فلم يسلم له فضله ، ويحاول حطه عن منزلة بوأه اياها أدبه (...) وكلا الفريقين اما ظالم له أوللأدب فيه :))[5] هذه الموضوعية في البحث ، جعلها الجرجاني ديدنه في دراسة " المتنبي" ، فلا

---

1) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 248

2) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 248

3) - الجرجاني (القاضي) : الوساطة بين المتنبي وخصومه (تحقيق محمد أبو الفضل وعلي محمد البجاوي) دار العلم . بيروت . د . ت ص 49 - 54

4) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 251

5) - الجرجاني (القاضي) : المرجع السابق ص 03

هو معه ولا هو ضده ، وانما درس ما عيب عليه باحثا عن ذلك العيب عند القدماء ثـــم المعاصرين مستنتجا أنه أخطأ في معنى أو بيت مثلما أخطأ غيره ، فلا ضير من ذلك علـى جودة القصيدة التي ورد بها العيب ، اذ لا يجوز لناقد أن يحكم حكما كليا من جزئيـة . كما درس ما استحسن عنده باحثا عن أشباه ذلك عند غيره من المتقدمين والمتأخرين مستنتجا أنه لم يكن الوحيد في الاجادة ، وبالتالي لا لزوم للغلو في التقريظ والتنويه والاستحسان ، فان وجد ذلك ، فالمتنبي شاعر عظيم .

لخص مندور منهج الجرجاني في قياس الأشباه والنظائر ، مقيما على أساس ذلـك وساطته بين المتنبي وخصومه ، دارسا كل القضايا النقدية التي أثارتها الخصومة (1) ، قضيـة قضية ، باحثا عن أشباهها ونظائرها عند الشعراء العرب منذ الجاهلية حتى زمن المتنبي . ان ابراز أشباه ماعيب على المتنبي ونظائرها ، وما استحسن عنده ، يوضح لنا وجوه التحامل عليه أو المغالاة في استحسان أشعاره : ((ورأيت السلامة في أن أقتصر من هذه (الوساطة) على حسن التبليغ وحسن التأدية ، وتقريب العبارة ، وجمع المتفرق ، ثم أقف منكمـا حجزة وأخرج عنكما صفرا ، فقدأديت عن كل فريق ما تحملته ، وسلمت من الميل فيما تكلفته . وكما لا أحكم على خصمك بالخطأ في كل ما يذكره ، فكذلك لا أبعدك من الصواب في أكثر ما تصفـه .)) (2) .

ان منطلق الجرجاني في وساطته علمي واضح ، يتمثل في النزاهة والحياد ودراسـة القضية النقدية في شعر الشاعر ومقارنتها بأشباهها ونظائرها في شعر شعراء آخرين ، تاركـا الحكم النهائي لمن يرغب فيه فوضع بذلك منهجا تطبيقيا طبقه في دراسته للمتنبي ، ويمكن تطبيقه في دراسة شعراء آخرين ، الأمر الذي جعل مندور يستنتج أن الجرجاني : ((قـد

---

1) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 256

2) - الجرجاني (القاضي) : المرجع السابق ص 415

أخذ بمنهج قضائي في معظم كتابه ، وأن القسم الذي يحتوي على نقد حقيقي أي موضعي هو الجزء الأخير . وناقدنا رغم ذلك قد أورد في الجزئين من كتابه الكثير من الحقائق الهامة عن الأدب وعن تاريخ الأدب العربي ، كما كتب عدة صفحات يجدر بنا أن نتدبرها ونحن نضعه في المرتبة الثانية بعد الآمدي . (..) وأما الصفات التي تكبرها في الجرجاني فهي صفات العلماء التي تتميز بالتواضع والحذر والنزاهة وعدم التحيز والعدل ، وتلك صفات تعظم بها قيمة كل نقد صحيح .)) (1)

لقدرسم الجرجاني بغض النظر عن تحيزه للمتنبي أو عدم تحيزه له ، وعن مدى التزامه بمعاييره الفنية ، طريقة منهجية واضحة ودقيقة قابلة للتطبيق على شعراء آخرين ، تتمثل في الحياد والنزاهة والدربة والصدق والذوق ، وفي خطوات عملية تقوم على دراسة القضية النقدية في شعر الشاعر أولا ، ثم البحث عن أشباهها ونظائرها عند غيره باتباع تسلسل تاريخي في دراسة الشعراء ، والانتقال من البيت الى القصيدة فالغرض ، وبذلك جمع بين التسلسل التاريخي في تتبع الظاهرة الأدبية أو النقدية من جهة ، والانتقال من الجزء الى الكل من جهة أخرى واضعا بذلك أسسا منهجية واضحة ودقيقة لمنهجه المتبع في وساطته .

وهكذا حق لمندور أن يدخل الجرجاني ضمن أعلام النقد المنهجي عند العرب ، فقد كان منهجيا في نقده نظرية وتطبيقا ، بغض النظر عن رأينا الآن في نقده ذلك ، أشار بكتاب " الوساطة " أذهان العلماء منذ القديم ، ولذلك قال فيه الثعالبي :((ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة في اظهار مساوىء المتنبي ، عمل القاضي أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره ، فأحسن وأبدع وأطال وأطاب، وأصاب شاكلة الصواب، وآستولى

---

1) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 307

على الآمدي في فصل الخطاب ، وأعرب عن تبحره في الأدب وعلم العرب وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد فسار الكتاب مسير الرياح . وطار في البلاد بغير جناح.)) (1) وهذا الاعجاب به هو الذي جعل الثعالبي يخصص في " اليتيمة " فصلا للمتنبي ، درس فيه أخباره وماعيب عليه في شعره ، وما استحسن فيه . اقتصرت دراسة مندور ليتيمة الثعالبي على الباب الخامس من الجزء الأول المخصص للمتنبي ضمن الخصومة النقدية التيكان هذا الشاعر محورها . درس الثعالبي المتنبي انطلاقا من واقع الخصومة بين المتعصبين له أو المتعصبين عليه ،محددا منهجه بدقة ووضوح منذ بداية الباب قائلا : ((وأنا مورد في هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه ، وما يرتضي وما يستهجن من مذاهبه في الشعر وطرائقه . وتفصيل الكلام في نقد شعره ، والتنبيه على عيونه وعيوبه ، والاشارة الى غرره وعرره ، وترتيب المختار من قلائده وبدائعه ، وبعد الأخذ بطرف من طرق أخباره ومتصرفات أحواله ، وما تكثر فوائده وتحلو ثمرته ، ويتميز هذا الباب عن سائر أبواب الكتاب كتميزه عن أصحابها بعلو الشأن في شعر الزمان ، والقبول التام عند أكثر الخاص والعام .)) (2)

لقد درس المتنبي حسب مخطط دقيق واضح ، فأورد نبذة عن حياته وأخباره منذ طفولته حتى وفاته ، وما تبع ذلك من تحزب له أو عليه ، واعتمد في الوصول الى ذلك على الروايات، ثم تحدث عن المعاني التي أخذها الكتاب والشعراء عن المتنبي ، ثم سرقاته عن غيره ، ثم المتكرر في شعره ، من المعاني : ((وهذا باب لم نجد له مثيلا عند النقاد . وهو عظيم الأهمية لأن تكرار الشاعر لبعض المعاني قد يدل على امتلائه بها وانشغاله بأمرها حتى لنستطيع أن نرى فيها أفكاره الأساسية .)) (3) كما تحدث عن معايب شعر المتنبي ومقابحه.

---

1) ـ الثعالبي : يتيمة الدهر (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) مجلد 2 ج 4 . دار الفكر بيروت . د . ت ص 04

2) ـ الثعالبي : اليتيمة مجلد 1 ج 1 ص 111

3) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 310

محاسنه وروائعه وبدائعه ، للانتهاء بالحديث عن آخر شعره ووفاتــه .

أدرك مندور من دراسة الثعالبي للمتنبي أنه : ((" فراء " يخيط آراءغيره بعضهـــا الى بعض ، فهو جامع أكثر منه ناقدا أو موء لفا . (...) والثعالبي رجل ضعيف الشخصيــة حتي لنكاد نجزم بأنه لارأي له في شيء ، وانما هي انتقادات الصاحب والحاتمي وآراء عبد العزيز الجرجاني وغيرهم تخير من بينها وتظمها .)) .[1]

عاب مندور على الثعالبي اعتماده في نقد المتنبي وتبيان محاسنه ومساوئه على آراء وأحكام أعلام عصره كالصاحب 938م ـ 995 م) وعبد العزيز الجرجاني ، وحق له ذلــــك. فالثعالبي يورد الرأي النقدي والأبيات الشعرية الدالة عليه ، دون مناقشة للرأى أو الأبيات، فلا يزيد شيئا عن الجمع والتنظيم والترتيب، ومع ذلك فقد اتسم عمله بتنظيم منهجي ، حيث قسم " أهل العصر " من شعراء وكتاب وأعلام تقسيما جغرافيا حسب أشهر الأقاليم ، ثم درس أعلام كل اقليم مبتدئا بنبذة عن حياة العلم وأخباره ، مستعرضا شعره أو نتاجه ، مبينا ما أخذه عن غيره ، وما أخذه الغير عنه ، ثم ما يعاب عليه وما يستحسن عنده ، مستشهدا على كل ذلك بآراء كبار النقاد من ابن سلاّم الجمحي حتي عصره ، وبذلك جاء كتاب" اليتيمة " نموذجـــا في النقد العربي القديم للجمع والتنظيم و الترتيب، وهي بعض أسس النقد المنهجي ، ولعـل هذا ما جعل مندور يستدرك رأيه في الثعالبي : ((وبانتهائنا من الحديث عن " اليتيمـــة" ننتهي من الحديث عن النقد المنهجي ، الذي قدم لنا الثعالبي في فصله هذا عن المتنبـــي نموذجا له ، عندما يختصر ويجمع ويبوب في نقط موجزة واشارات عابرة .)) [2]

عد مندور الثعالبي آخر حلقة في سلسلة التأريخ للنقد المنهجي عند العـــــرب قديما ، بعدما أخرج نقد الطبقات والنقد القيمي فلسفيا كان أوبديعيا لعدم انطلاق هـــذه

---

1) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 308

2) ـ د : مندور(محمد) : المرجع السابق ص 319

الأصناف النقدي) من دراسة موضعية للشعر واكتفائها بالتنظير مع استشهاد البعض منها - كالنقد البديعي - بنماذج من الشعر العربي ، وعدم استشهاد البعض الآخر كالنقد القيمي ذي الأسس الفلسفية عند ابن قتيبة وقدامة بن جعفر .

يتجلي النقد المنهجي عند العرب قديما عند مندور في أرقى درجاته عند الآمدي في الموازنة ، ثم الجرجاني في الوساطة ، وذلك لصدورهما عن منهج دقيق ذي أسس وخطوات عملية ، وواضح يتميز بالروح العلمية أولا والذوق الأدبي المدرب ثانيا ، ثم دراستهما شعر الشاعر دراسة تحليلية تطبيقية على أسس منهجية وخطوات عملية ، مع التحقيق والتدقيق للنصو ، ومراجعة آراء السابقين وترك الحكم النهائي للقارىء ، فقدما بذلك دراستين نقديتين تطبيقيتين قابلتين للتطبيق على شعراء آخرين . ولذلك اعتبر مندور الناقدين قمة النقد المنهجي ، لأن الكثير من أسس المنهج التاريخي وخطواته العملية تضمنها الكتابان صراحه أو تضمينا . ثم ألحق بالناقدين المنهجيين الثعالبي ، لا تباعه هو الآخر في دراسته للمتنبي خطة دقيقة وواضحة ، وبنائه كتاب " اليتيمة " بناء منجيا حتي في التلخيص والجمع والتنظيم والترتيب . وأكاد أجزم أن اعجاب الثعالبي بالآمدى والجرجاني واعتماده عليهما في دراسته للمتنبي من الأسباب التي جعلت مندور يلحقه بأعلام النقد المنهجي لاعجابه بالرجلين . وعموما ، فان تتبع مندور لحركة النقد العربي القديم ، انطلاقا من المفاهيم و الخطوات المنهجية للمنهج التاريخي ، مكنته من استخلاص مراحل النقد العربي القديم المتمثلة في :

1 - مرحلة التقعيد والتنظير دون الاعتماد على التطبيق . (النقد القيمي النظر)

2- مرحلة النقد التطبيقي : (النقد المنجي)

3 - مرحلة الجمع والتبويب والترتيب (النقد المنهجي مع بداية ضعفه)

4 - مرحلة الجمود البلاغي . (النقد البلاغي) .

ثانيا : موضوعات النقد ومقاييسه :

بعد أن أرخ مندور للنقد المنهجي عند العرب قديما من خلال أعلامه ، انتقل الى دراسة موضوعات ومقاييس ذلك النقد في القسم الثاني من كتابه " النقد المنهجي عند العرب " متبنا المنهج التاريخي ، منهجه المفضل : ((والذي تحرص على ايضاحه هو أننا عندما نحاول أن ندرس النقد العربي دراسة تقريرية لن نخرج لذلك عن المجال التاريخي ، بل سنظل مقيدين بآراء النقاد الذين عرضنا لهم فيما سبق ، نبسطها ونناقشها . واذن فلن نغير في هذا الجزء شيئا من منهجيا وانما نحاول هنا أن نستعرض تاريخ مسائل النقد ، بعد أن استعرضنا في الجزء السابق تاريخ النقاد ومناهجهم .)) (1) ومن استعراضه لمسائل النقد العربي توصل الى أن أهم الموضوعات النقدية التي شغلت السامع أو القارىء أو الناقد منذ الجاهلية تتمثل في الموازنة والسرقات .

-1 - الموازنة : لاحظ مندور ظهور الموازنة عند العرب منذ الجاهلية ، وكانت في مراحلها الأولى أحكاما جزئية خالية من التعليل : ((ظهرت الموازنة اذن كمفاضلة ، ثم طبقات تقوم على مقاييس فنية ، أو وفقا للأهواء وعصبيات العشائر ، وهذا النوع من النقد لا طائل تحته ، لأن الأحكام فيه مقتضبة غير مفصلة ولا صادرة عن مناهج مستقيمة ، وهو يدل على روح بدائية ساذجة هي روح البداوة ، البعيدة طبعا عن الروح العلمية كل البعد . وأما الموازنة التي نريد أن ندرسها هنا في الموازنة المنهجية ، وتلك لا نجدها الا عند الآمدى الذي كتب فيها كتابا نعتبره كما قلنا من أهم ما خلف العرب من تراث .)) (2)

1) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 340

2) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 343

اكتملت الموازنة موضوعا نقديا في كتاب " الموازنة " عندما أصبحت قائمة على أسس منهجية حددها الآمدي ، وخطوات عملية اتبعها في موازنته وفي استطاعة غيره اتباعها في الموازنة بين شعراء آخرين : وتقوم الموازنة عموما على المحاجة التي يجمع فيها الدارس حجج أنصار كل شاعر وآرائهم ، ومناظرتها بحجج الخصوم وآرائهم ، على أن تكون هذه المحاجة في القضايا العامة ، لينتقل بعد ذلك الى الموازنة التفصيلية مستعرضا فيها كل الجوانب الشعرية التي تجمع الشاعرين - موضوع الموازنة - أو تفرقهما ، مثل الوزن والقافية والمطلع واللغة والمعاني والسرقات والسبق الى معان وغير ذلك من الجوانب ، معتمدا على دربته وذوقه الأدبي وعمله ، مع الالتزام بالأسس المنهجية التي حددها لنفسه . صارت الموازنة عند الآمدي موضوعا نقديا منهجيا لأنها تطورت من مجرد مفاضلة ذوقية أساسها الأهواء والعصبية ، الى مفاضلة منهجية أساسها الحجج المنهجية ، مع استنباط الخصائص والمميزات من المادة الأدبية المنقودة نفسها . أي صار الناقد يصدر في موازنته من دراسته وتحليله للنص الشعري . الأمر الذى جعل الموازنة قابلة للتكرار و التطبيق على العديد من الشعراء والكتاب ، وبذلك صارت تيارا نقديا ، حسب الروءية التاريخية للدرس الأدبي. (1)

2 - السرقات : وتعد من أهم القضايا النقدية ، فهي الأساس في تحديد أصالة الشاعر أو الكاتب . ولقد أثار هذا الموضوع اهتمام النقاد العرب قديما ، وبصفة خاصة منذ ظهور الشاعر أبي تمام وانقسام النقاد الى أنصار للقديم باحثين في شعره عن سرقاته ، وأنصار للجديد . فلما ظهر " المتنبي " قامت حوله خصومة جديدة ، حاول فيها أعداؤه تجريحه باظهار سرقاته .

أدرك مندور من خلال تتبعه لكتب " السرقات " أن ماكتب قديما حول هذا الموضوع يقوم على أساس التجريح، مع تفاوت في درجته : ((ولقد كان لنشأة تلك الدراسات وسط

---

1) - د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 356

الخصومات أثر سيء في توجيهها ،فرأيناها تسعى قبل كل شيء الى تجريح الشعراء ، ولهـذا لم تستقم المبادىء التي اتخذت فيها فيصلا ، كما أنهم لم يفرقوا بين السرقة وغيرها .)) (1)

فلم يفرق العرب بين : لا ستيحاء ، واستعادة الهياكل ، والتأثر ، والسرقة بمعنى أخذ جمل أو أفكار أصيلة وانتحالها دون الاشارة الى مصدرها .

وعلى الرغم من أهمية موضوع السرقات في النقد عموما ، فان نشأتها العربية بطابع تجريحي لم يمكنها من التطور منهجيا ، والدليل على ذلك أن العديد مما كتب في هذا الموضوع قد طواه النسيان ، اللهم الا مولفات قليلة ابتعدت عن الطابع التجريحي ، والتزمت شيء من الروح العلمية مثل نظرية الآمدي في السرقات التي أقامها على أن : ((السرق لا يكون الا في " البديع المخترع الذي يختص به الشاعر " وأنه لا سرقة : 1 ـ في العام المشترك من المعاني ، 2 ـ الألفاظ المباحة الشائعة .)) (1)، ثم آراء عبد العزيز الجرجاني ، لاتباعه فيها نظرية الآمدي مع تفصيله لمعنى " المعنى العام " الذي أضاف اليه " المعني الخاص الذي أصبح كالعام المشترك " لكثرة شيوعه . وتكتمل نظرية " السرقات " عند عبد القاهر الجرجاني ، بتفسيره " العام المشترك " و " الخاص "

تفسيرا فلسفيا ، فهو : ((يسمي النوع الأول (عقليا) والثاني (تخييليا) ، فالعقلي هو ما كان وليد التجارب اليومية ، وهو ما يمكن أن نسميه بالحكمة العملية (...) والثاني تلك المعاني التي يولدها الشعراء دون أن تلاقي حقيقة أو تصور واقعا .)) (4) وهكذا تكتمل

---

1) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 359

2) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 366

3) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 367

4) ـ د . مندور (محمد) : النقد المنهجي عند العرب ص 368

نظرية " السرقات " في النقد العربي القديم ، بتحديد ما يعد سرقة عندما يكون الأخذ في التخييلي أو الابداعي ، ومالا يعد سرقة وهو الأخذ في العقلي أو العملي. وعلى الرغم من أن النقاد العرب قسموا السرقة الى أنواع : السرق ، الغصب ، الاغارة ، الاختلاس، الى غير ذلك من أنواع السرقة ؛ فان مندور لايرى : ((أية فائدة في التمهل عندها ، لأنها لم تبصر بجديد ، وانما [illegible] تحل المبادىء التي سبق أن أوضحناها ، وهي أشبه ما تكون بأوجه البديع الخمسة والثلاثين التي أورها العسكرى كما أنها صادرة عن نفس الروح .)) (1)

لا فائدة من تقسيمات السرقات الأدبية ، لأنها عقلية ، افتراضية ، لم تستنبط من الشعر العربي ، ولا تفيد في تحليل الشعر ، ولم يطبقها أحد تطبيقا كاملا في دراسة نص من النصوص .

كان موضوع " السرقات " من أهم موضوعات النقد العربي ، ولكن طابعه التجريبي حادبة من الروح العلمية ، فلم يتطور منهجيا ، وتحول الى تقسيمات شكلية لا يستفاد منها شيء ، ولم يتحول الى نقد تطبيقي موضعي يستمد أسسه من طبيعة النصوص الأدبية وبذلك لم تتطور السرقات الأدبية الى نقد منهجي تطبيقي ..

استعرض بعد الموضوعات مقاييس النقد العربي القديم ، منطلقا من تصنيفه النقد العربي الى نقد قيمي ، ونقد وصفي ، يختلفان من حيث طبيعتهما وأهدافهما . فالأول يقوم على تقويم قصيدة بالجودة أو الرداءة بناء على مقاييس عادة ما تكون ذوقية صرفة . أما الثاني فيقوم على مناهج أساسها المقارنة والموازنة والمفاضلة ، ولكن الفصل بينهما نادر ، لتلازمهما وحاجة الناقد المنهجي اليهما معا .

ومثلما ميزبين النقد القيمي والمنهجي ، ميز كذلك بين النقد النظري والموضعي ،

---

1) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 369

2) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 375 ـ 376

مخرجا من دائرة اهتمامه كتابات ابن سلام وابن قتيبة وقدامة بن جعفر وابن المعتز لطابعها التنظيري وخلوها من النقد الموضعي . كما أخرج من دائرة اهتمامه الكتابات النقدية التي جعلت من نقد الشعر همها للاستدلال على اعجاز القرآن بطريقة الاستدلال العكسي مثل كتاب " اعجاز القرآن " لأبي بكر الباقلاني[1] (ت 403 هـ) .

تقودنا هذه التقسيمات الى ملاحظة عناية مندور بالنقد الموضعي : ((ما كتب في نقد الشعر لذاته وما كتبه نقاد مختصون ، ألفوا كتبهم لهذه الغاية .))[2] فالنقد الموضعي هو ذلك النقد الذي كتب في نقد النص الأدبي في ذاته ولذاته . وبمعنى آخر ، هو النقد الذي ينطلق من النص لشرحه وتحليله والحكم عليه ، اعتمادا على الذوق أولا والمعرفة ثانيا ، بناء على استعانة الناقد بالنقد القيمي ، أو الذوق ، والنقد الوصفي ، أو المعرفة . يبين هذا التحليل لمقاييس النقد العربي التزام مندور برؤية المنهج التاريخي للنقد حتى في بحثه عن مقاييس النقد العربي القديم .

تطورت مقاييس النقد العربي من قيمية الى منهجية ومن نظرية الى موضعية لتبلغ قمة تطورها والمتمثل في المنهجية والموضعية عند كل من الآمدي وعبد العزيز الجرجاني . فهما اللذان درسا الشعر لذاته دراسة موضعية بتطبيقهما النقد القيمي والوصفي ضمن أسس منهجية وخطوات عملية ، واتفاقهما في الكثير من المقاييس والخطوات العملية[3] ، كما سبق تبيان ذلك في الصفحات السابقة .

تتبع مندور مقاييس النقد العربي القديم فوجدها تتجلى في عز نضجها المنهجي عند الناقدين الآمدي والجرجاني لجمعهما بين الذوق الأدبي والمعرفة الأدبية ، فكانا بذلك أقرب النقاد العرب القدامى الى مفهوم " مندور" للنقد باعتباره " فن تمييز الأساليب .

---

1) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 377 ـ 381

2) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 380

3) ـ د . مندور (محمد) : المرجع السابق ص 385 ـ 388

ذلك المفهوم الذي حفظه من أستاذة المنهجي لا نسون وبقي يدعو له طيلة حياته .

لقد طبق مندور المنهج التاريخي في كتابه " النقد المنهجي عند العرب " تطبيقا بلغ فيه حد التعسف أحيانا . فمن حيث الأسس المنهجية العامة لم ينطلق من مسلمات أو آراء مسبقة ، وانما عمد الى تحليل موضوعه ، متتبعا مختلف عناصر الموضوع ودراستها في مضانها ، فرجع من أجل ذلك الى المصادر الأصلية مطبوعة ومخطوطة ، ودرس الناقد من خلال كتابه أو كتبه ليصنفه مع أمثاله الذين يشترك معهم في الخصائص النقدية ، ثم يحكم على المجموعة انطلاقا من مفهومه للنقد المنهجي النابع من روءية تاريخية ، وذلك قاده الى رفض كل الكتابات النقدية العربية التي لم تحفل بالنقد الموضعي (التطبيقي) للنص الأدبي فأخرج بذلك من دائرة النقد المنهجي كل الكتابات النقدية النظرية بمختلف أنواعها (فلسفية ، بلاغية ، أخلاقية) وكل الكتابات النقدية التي كان همها الاستدلال على اعجاز القرآن أو الحديث .

لا يسع المتتبع لمندور في منطلقاته النقدية ، وتحليلاته لكتب النقدالعربي وتصنيفه لها ، الا الاقتناع بالنتائج المتوصل اليها . ولكن شيئا من التفكير في تطبيقه للمنهج التاريخي اللانسوني على النقد العربي القديم والنتائج الناجمة عن ذلك ، يجعلها فمحس بغلوه ومغالاته في اخضاعه ظواهر النقد العربي القديم لمفاهيم نقدية منهجية لم تظهر الا حديثا . ومع ذلك فان تطبيقاته الصارمة والدقيقة ، والنتائج المنطقية المحصل عليها تجعلنا نعجب بعمله رغم الاحساس بالغلو الذي دفعه الى اخراج كل المؤلفات النقدية العربية القديمة التي لم تلتزم بمفهومه للنقد - فن تمييز الأساليب - من دائرة النقد المنهجي ، ناسيا أن هذا المفهوم لم يظهر الا بعد قرون وقرون من التطور النقدي، وأن السابق لا يتبع اللاحق في الأحكام والقوانين .

اعتبر الآمدي والجرجاني الناقدين المنهجيين الحقيقيين ، لا تباعهما في كتابيهما " النقد

الموضعي " ، أي النقد التطبيقي ، ومن ثم كان من الأسلم أن يحدد موضوعه كالتالي :

" النقد المنهجي التطبيقي عند العرب " حتي تكون نتائجه أقل تعسفا فالمنهج قد يكـــون تطبيقيا ، وقد يكون نظريا عقليا صرفا ، ومن ثم فان الربط بين المنهجية والتطبيقية أمـــر يحتاج الى اعادة نظرا . يمكننا القول عموما أن مندور طبق المنهج التاريخي اللانسونـــــي تطبيقا صارما ، بعدما دعا له دعوة واضحة صريحة ، في كتابه " النقد المنهجي عند العرب" الذي كان بداية التطبيق الدقيق للمنهج التاريخي ، بعد فترة من الدعوة له ، بدأت كمـــا رأينا سابقا ، بعودة كل من الدكتورين أحمد ضيف وطه حسين من فرنســـا .

الخاتمة

تطورت العلاقات العربية الفرنسية بتطور الأمتين عبر الزمن ، فمن صراع ديني مسلح بين الايمان والكفر في الفتوحات الاسلامية لجنوب فرنسا ، وفي الحروب الصليبية ، الى صراع حضاري ذي أوجه متعددة : ديني مع الارساليات المسيحية التبشيرية ومدارسها التعليمية التي انتشرت في مختلف الأقطار العربية تعلم العلوم الحديثة واللغات الأوروبية ، والفكر الأوروبي الحديث ، وكان لفرنسا فيها نصيب وافر. وجه سياسي عسكري اقتصادي مع حملة نابليون على مصر وماتتج عنها من اعجاب المصريين واقتدائهم بفرنسا في تنظيم الدولة وتأسيس موء سسات تعليمية مدنية :

وثقافي مع البعثات الدراسية التي أوفدها محمد علي باشا لفرنسا من أجل اعداد اطارات كفوءة يبني بها دولته العصرية اقتداء بفرنسا . وكان رفاعة رفعت الطهطاوي خير مثال على أثر البعثات الدراسية في تمتين العلاقات الثقافية العربية الفرنسية : فرغم سفره مع البعثة الى باريس اماما وواعظالها ، فأنه رجع منها شعلة من العلم والمعرفة ، عمل أكثر من ثلث قرن على تطوير التعليم المدني والصحافة العربية والترجمة والادب ، مقتديا في ذلك بما شاهد في فرنسا التي كانت توذجه الفكرى الأعلى ، وبذلك كان أول وسيط بين الثقافتين العربية والفرنسية • كانت نتيجة العوامل السالفة الذكر أن تطورت الصحافة العربية وآزدهرت ، وظهرت موء سسات تعليمية مدنية عليا كالجامعة الأهلية بمصر . كانت الصحافة تترجم من اللغات الأوروبية بصفة عامة والفرنسية بصفة خاصة الأفكار الأدبية والنقدية وغيرها لتغذية صفحاتها العديدة ورغبة قرائها . وكتب فيها نقاد هواة أفكارا نقدية مستوحاة من النقد الفرنسي مثل الشيخ نجيب الحداد ومحمد روحي الخالدى وقسطاكي الحمصي الذين تتلمذوا في مـ... الارساليات التبشيرية ، ثم كتبوا عن الادب الفرنسي ونقده وأعلامه ، فقدموا للقارىء العربي مصطلحات وأفكارا نقدية لاعهد له بها مثل قضية احتفاء الشعر العربي بالمحسوسات واكتفائه بوصف الأشياء وصفا ماديا بفعل بيئته الصحراوية الجزداء التي حدت خياله ، ولذلك لم يستطع

الشاعر العربي الابداع في المحتوى أو المضمون ، وراح ينمق في الشكل محتفيا باللفظ ،مقيدا نفسه بأوزان محدودة ثابتة ، وقواف محدودة ، وذلك ما لم يسمح له بالانطلاق في عوالم الخيال والابداع . كما تحدثوا عن علاقة الأدب بالمجتمع وآرتباطهما ، والصدق في الابداع الأدبي ، ووحدة الموضوع ، الى غير ذلك من القضايا النقدية المستوحاة من آداب أخرى، نقلها أولئك النقاد الرواد الى القارىء العربي في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، وبذلك كان للصحافة دور أساسي في التوسط بين النقد العربي والنقد الفرنسي في مطلع القرن العشرين . أما الجامعة، فقد اقتبست النموذج التعليمي الفرنسي ، فاستقدمت المستشرقين الذين نقلوا النموذج التعليمي والمنهجي الأوروبي بصفة عامة والفرنسي بصفة خاصة والمتمثل في دراسة الأدب دراسة تاريخية . فلما أرادت الجامعة الاستعاضة عن أولئك المستشرقين ـ لأسباب عديدة ـ بمصريين ، أرسلتهم الى فرنسا لمواصلة دراساتهم العليا، وآكتساب المعارف والمناهج ، فاتصل أولئك الطلبة بالجامعة الفرنسية فوجدوا المنهج التاريخي اللانسوني المنهج المتبع في دراسة الأدبوالتأريخ له .

لم تظهر اللانسونية فجأة ولا حالة منفردة ، وانما جاءت نتيجة لمراحل من التطور الفكري العلمي بلغ أوجه مع بداية القرن التاسع عشر في أوروبا عندما تطورت العلوم ، وصار المنهج التاريخي أساس التطور السريع لعلم اللغة والتاريخ وغيرهما من العلوم بفضل الفلسفةالوضعية التي زودته بالروح العلمية ومكنته من التلاوءم مع كل علم على حدة .ومع تطور وآزدهار علم التاريخ في المانيا أولا وفرنسا ثانيا ، أنتبه بعض أساتذة الأدب الى صلاحية تطبيق فنيات وأسس الدرس التاريخي الصرف في دراسة الأدب القديم والتأريخ له اعتمادا على الوثائق والعلوم المساعدة والالتزام بالموضوعية والحياد والنزاهة ، وبذلك صارت فنيات المنهج التاريخي الصرف طريقة متبعة في التأريخ للآداب القديمة والوسطى . وهنا ظهرلانسون ـ في نهاية القرن التاسع عشر ـ ولاحظ انقسام النقدالأدبي بين طرفين متذبذبين

أحدهما علمي يحاول اخضاع الدرس الأدبي الى القوانين العلمية الصرفة ولو تعسفا ، والآخر تأثري ذوقي يحاول التخلل من أي قيد معرفي في تذوقه للنص الأدبي ، كما لاحظ تلك التجارب المنهجية التي قام بها بعض سابقيه ومعاصريه في دراستهم الآداب القديمة دراسة تاريخية اقتداء بعلماء التاريخ ، فدرس ذلك الوضع النقدي والعلمي ، وآستخلص منه المنهج التاريخي المطبق في الدرس الأدبي ، الذي سمي باللانسونية . وتتمثل اللانسونية في الجمع بين المعرفة الأدبية الكامنة في عمليات يقوم بها الباحث قصد كشف الحقيقة ما أمكن من جهة والذوق الأدبي المدرب القائم على أسس من جهة أخرى ، والالتزام بالحياد والموضوعية والنزاهة في التعامل مع الظاهرة الأدبية ، والاستعانة بعلوم مساعدة مثل التحقيق والتاريخ والفلسفة وعلم اللغة التاريخ والدين وغير ذلك في فهم النص الأدبي فهما صحيحا بالنسبة لعصره ، ثم بالنسبة الينا ،ودراسة النص الأدبي ذاته دون الاكتفاء بما قيل فيه أو عنه بغض النظر عن مصدر ذلك القول ، ثم اخضاع النص المدروس الى خطوات عملية يقوم بها الباحث تتلخص في تحقيق النص أولا ، ثم شرحه ثانيا ، ثم البحث عن أصوله ومصادره ثالثا ، وتبيان تأثيراته المختلفة رابعا ، والحكم عليه حكما موضوعيا بناء على كل ماسبق ذكره خامسا ، وبذلك سيستطيع الباحث أن يصل الى الحقيقة الأدبية أو يقترب منها ما أمكن فيخدم أدبه القومي أولا ، ويخدم العلم البشري ثانيا ، فتتحقق بذلك غاية اللانسونية .

قامت اللانسونية على أساس الفلسفة الوضعية ، ثم تطعمت بأفكار الاشتراكية الديمقراطية مع توسطها بين التزمت العلمي والتطرف الذوقي ، فكانت منهجا وسطيا في أسسه الفلسفية ومضمونه المنهجي ، الأمر الذي جعل الكثير من الدارسين يقبل عليها ويتبناها ، فكثر بذلك أتباع لانسون ، وحملوا معهم اللانسونية الى مختلف أنحاء العالم ، ومنهم أولئك الطلبة العرب الذين أرسلتهم الجامعة الأهلية (المصرية) لتستخلف بهم المستشرقين .

كان أحمد ضيف أول عربي تتلمذ حسب علمي على لانسون وزملائه وتلاميذه ، فأعجب

باللانسونية في حدود قدراته العقلية وتكرينه المعرفي والعلمي الذي اكتسبه من دراسته الأزهرية والدرعمية ، ولما رجع الى مصر دعا طلابه الى اتباع الغربيين في مناهج البحث، وبين لهم أن المنهج التاريخي هو أساس التطور الذي بلغته الآداب الغربية ، ومن ثم فان الاقتداء بالغربيين في تطبيق المنهج التاريخي أمر ضروري ، رغم ادراكه أن الوضع العلمي العربي لم يكن يسمح آنذاك بالتطبيق الدقيق لهذا المنهج . وحاول تطبيق المنهج في دراسته للغنائية في الشعر العربي ، والنقد الأدبي عند العرب ، والأدب الأندلسي ، اعتمادا على أن الأدب ظاهرة اجتماعية يصدر عن المجتمع ويصوره فيما يخص دراسته للنصوص الابداعية ، ثم اقتناعا بأن النقد الأدبي الحق هو ذلك النقد الذي يتبع أسسا وخطوات في دراسة الأثر الأدبي بمعنى أن النقد الأدبي لا ينبع الا من النصوص الأدبية . وكانت نتائج منطلقاته التاريخية هذه ، واعتماده على بعض خطوات المنهج التاريخي تتمثل في أن الشعر العربي غنائي منذ نشأته الأولى ، حيث دفعت البيئة الصحراوية العربية الشاعر العربي ذا العرق السامي الى وصف مايرى في تلك البيئة الجرداء ، فجاء شعره ماديا حسيا ، ضعيف المضمون ، حمل الشاعر على الاعتناء باللفظ والشكل . ولما جاء الاسلام ، انبهر العرب بالنص القرآني واعجازه ، فاكتسب اللفظ العربي بذلك قداسة ، وزاد المضمون الشعرى هزالا ، بينما ازدادت العناية باللفظ على حساب المعنى ، فانغلق الشاعر العربي في دائرة اللفظ و الشكل ، و انعكس ذلك أيضا على النقد العربي .

كانت نشأته ذوقية محضة تتلاءم و طبيعة الشعر العربي، الا أن الاسلام زاده تقيدا عندما صارت اللغة مقدسة ، ففقد النقد العربي مجال المضمون بحكم البيئة وطبيعة الشعر العربي، كما فقد مجال الشكل و اللفظ للقداسة المكتسبة ، ومن ثم لم يحفل النقد العربي بدراسة النصوص الأدبية دراسة تطبيقية ، وانما راح يقلد النحو في وضع قواعد و قوانين نظرية مستمدة من التفكير الفلسفي و المنطقي ، و لكنها لم تطبق على النصوص الأدبية ولم تكن قابلة للتطبيق

لأنها لم تستنبط من الأدب نفسه ومن هنا لم يعرف العرب نقدا أدبيا منهجيا تطبيقيا ، وانما عرفوا نقاد اكبارا لم يكن لمناهجهم وآرائهم النقدية أي أثر في تطوير الأدب العربي.

وتلا أحمد ضيف ، في دراسة اللانسونية ، ونقلها الى العرب طه حسين الذي درس المنهج التاريخي في الجامعة الأهلية ضمن دروس المستشرق كارلو نالينو ، ثم تعمق فيه عندما درس في السوربون علم التاريخ على أساطين المنهج التاريخي الصرف ودرس اللانسونية على لانسون وزملائه وتلاميذه مطبقة على الآداب الأوروبية القديمة الفرنسي ، فوجد فيها بغيته والوسيلة التي تمكنه من الخروج من عقلية الجمود في التعامل مع الأدب ، ولذلك أعجب بها كثيرا ، فتبني كل مفاهيمها وآرائها ازاء النقد العلمي والتأثري ، ودعا طلابه لاتباعها في مقدمته لكتاب " في الأدب الجاهلي " ضمن منهجه المفضل المقياس الأدبي " ، ثم طبقها في دراسته الشهيرة للشعر الجاهلي ، عندما تبنى فكرة صدور الأدب عن المجتمع وتصويره له ، فبحث في الشعر الجاهلي عن ملامح المجتمع الجاهلي ، كما تصورها كتب التاريخ والسير ، فلم يجدها أثرا ، فاستخلص أن مايسمى شعرا جاهليا لا يمت الى الجاهلية في شيء وبالتالي فهو موضوع لأسباب عديدة بحث عنها ضمن ذلك التغيير الجذري الذي عرفه المجتمع العربي مع مجيء الاسلام وانتشاره وما نتج عن ذلك من آثار وتغيرات اجتماعية ، وبالمقابل بحث عن مظاهر الحياة الجاهلية ، فوجدها ، واضحة المعالم في القرآن الكريم والحديث النبوي ، فاستنتج أن القرآن والحديث أقرب الى الحياة الجاهلية مما يسمى شعرا جاهليا ، منطلقا في كل ذلك من مقولة أن أي نص من النصوص عبارة عن تراكم ثقافي نابع من مجتمعه وبالتالي فهو يصدر عنه ويصوره . ولكن أسلوب طه الايحائي ، وأهدافه الفكرية المتمثلة في مهاجمة واثارة التزمت والجمود استجابة لأفكار وآراء وتصورات الطبقة البرجوازية الليبراليه التي انتمي اليها وصار مفكرها الأدبي ، جعلت العديد من المثقفين والقراء من رجال الدين والتعليم ، لا يرون في دراسته للشعر الجاهلي

ونتائجه المنهجية الا الايحاءات الدينية الصرفة بعيدا عن أية خلفية منهجية ، ولذلك رأوا في دراسته ونتائجه ما لا يعد أمرا جوهريا بالنسبة للدرس الأدبي، وكانت تلك الزوبعة التي أثارها طه حسين تكمن في رأينا في تطبيقه للمنهج التاريخي تطبيقا قاده الى نتائج منطقية صاغها بأسلوب ايحسائي متعدد المعاني ، ومع ذلك فان هذا المنهج التاريخي نفسه كان سببا في شهرته الواسعة ، كما كان سببا في زعزعة الواقع النقدي العربي، الأمر الذي جعل الكثير من الطلبة العرب يعجبون بطه حسين ، ويحاولون الاقتداء به ، وهم لا يدرون أنهم يقتدون باللانسونية .

ومن طلبة طه حسين في هذا المجال محمد مندور ، الذي درس الأدب العربي بإيعاز من أستاذه ،فتتلمذ عليه ، ودرس كتابه " في الأدب الجاهلي" فعرف " المقياس الأدبي "الذي حوى أسس اللانسونية وخطواتها . ثم ساعده أستاذه على السفر الى باريس ، حيث تتلمذ على تلميذ لانسون الوفي " دانييل مورني " وأعجب به ، كما أعجب كثيرا بلانسون نفسه من خلال كتاباته ، وخاصة مقالته حول المنهج ، وكتابه عن تاريخ الأدب الفرنسي ، فتتلمذ بذلك على أعلام اللانسونية من عرب وفرنسيين ، وكان اعجابه بها شديدا ، فدعا هو الآخر الى اتباعهافي دراسة الأدب العربي والتأريخ له منذ عودته من فرنسا حتى وفاته ، ودعا لها تحت أسماء كثيرة، فمن شرح للنصوص ، الى النقد التأثري الى النقد الأيديولوجي الى المنهج التاريخي .

وأوضحت دراسة هذه المصطلحات أن مندور لم يخرج طيلة حياته النقدية عن المفاهيم اللانسونية رغم تغيير الأسماء ، فعرض اللانسونية على القارئ العربي عرضا دقيقا وواضحا لدرجة أنه ترجم مقالة لانسون منذ سنواته المهنية الأولى حتى تكون منطلقا للباحثين العرب في دراساتهم .

وطبق اللانسونية كذلك في كتابه " النقد المنهجي عند العرب " ، فانطلق هو الآخر شأنه في ذلك شأن أحمد ضيف ، من أن النقد الأدبي الحق هو " فن تمييز الأساليب " الذي

لا ينبع الا من دراسة النصوص الأدبية دراسة تطبيقية . وعلى هذا الأساس التاريخي،تتبع أعلام النقد العربي تتبعا تاريخيا دارسا آثارهم النقدية نفسها، فاستخلص أن أعمال كل من ابن سلام وابن قتيبة وقدامة وابن المعتز لاتنبع من دراسة النصوص الأدبية ؛ وانما هي قواعد و قوانين عقلية فلسفية منطقية أو بلاغية بديعية، وضعها أصحابها اعتمادا على تفكير نظري مجرد، لم يسمح لهم بتطبيقها على النصوص الأدبية ،ولم يسمح لغيرهم أيضا فبقيت مجرد نقد نظري لاعلاقة له بالأدب،ومن ثم لا يعد هؤلاء النقاد منهجيين

وخلال تتبعه التاريخي للنقد العربي، وجد أن الآمدي وعبد العزيز الجرجاني، لا ينطلقان في دراستيهما من تعصب لشاعر أو عليه، ولا يحاولان وضع قواعد نظرية ،وانما حددا لنفسيهما أسسا نقدية عامة تتسم بالروح العلمية من موضوعية ونزاهة ،وغيرذلك،وطبقاخطوات عملية في دراستيهما النقديتين، تاركين الحكم النهائي للقارئ،فكانا يمثلان بحق النقد التطبيقي النابع من الآثار الأدبية نفسها والقائم على قواعدنظرية عامة ضمن خطوات عملية واضحة ودقيقة قابلة للتطبيق على شعراء آخرين، فاعتبرهما قمة النقد المنهجي عندالعرب بمفهومه التاريخي . ودرس موضوعات النقد العربي ومقاييسه من المنطلق المنهجي نفسه فلاحظ أن النقد العربي عرف موضوعين كبيرين هما" السرقات"و" الموازنات"، ومن تتبعه التاريخي لهما توصل الى أن نشأة" السرقات" التجريحية أدخلتها ضمن النقد القيمي النظري فكانت مساهمة هذا الموضوع النقدي الهام في تطور النقد العربي محدودة . أما الموازنات فقد تطورت من نقد نظري الى نقد منهجي مع الآمدي و الجرجاني، فتلاءم النقد القيمي مع السرقات سلبا، وتلاءم النقد المنهجي مع الموازنات ايجابا. وهذا ماجعل من الموازنات الموضوع النقدي المنهجي عند العرب .

ان هذه النتائج لترينا أن مندور قد طبق اللانسونية تطبيقادقيقا صارما لحد الغلو أحيانا، فتوصل الى نتائج نقدية منطقية تحتمها منطلقاتهاالمنهجية، ومن ثم فاننانستطيع أن نعتبره مثالا يدل على مدى نضج اللانسونية في النقدالعربيالحديث نظرية وتطبيقا، فقد

كانت له القدرة على الجمع بين الدعوة والتطبيق ، بغض النظر عن موقفنا من نتائج تطبيقاته ورأينا فيها .

بعد أن مضى هذا الجيل من أعلام النقد العربي ، الذين تأثروا باللانسونية ، ودعوا لاتباعها ، دعوة صريحة أوغير صريحة ، جاءت أجيال أخرى من أعلام النقد العربي الحديث، تتلمذوا على أولئك الأعلام الرواد من العرب ، أو تتلمذوا على أتباع لانسون في فرنسا ، أو تتلمذوا على الفريقين معا ، وكتبوا دراسات أدبية أكاديمية كشفت الكثير من حقائق الأدب العربي لاتباعها المنهج اللانسوني عن دراية وربما عن غير دراية في بعض الأحيان فظهرت دراسات أكاديمية جادة مثل دراسات شوقي ضيف عن الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، والفن ومذاهبه في النثر العربي ، وعن شوقي شاعر العصر الحديث ، والأدب العربي المعاصر في مصر ، وسلسلة تاريخ الأدب العربي بأجزائها المختلفة ، ودراسة محمد غنيمي هلال عن الأدب المقارن ، والحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، الرومانتيكية

ودراسة عبد المحسن طه بدر عن تطور فن الرواية العربية ، وعن الأديب والمجتمع ودراسات سامي الدهان وتحقيقاته لديوان أبي فراس الحمداني ، وديوان أبي الوليد صريع الغواني ، والأمير شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، ودراسة جودت الركابي عن الشعر في عهد الأيوبيين (بالفرنسية) ، وعن الأدب الأندلسي ، والأدب العربي من الانحدار الى الازدهار ، وتحقيق دار الطراز لابن سناء الملك ، ودراسة شكري فيصل عن المجتمعات الاسلامية ، وتطور الغزل من الجاهلية الى الاسلام . ودراسات على جواد الطاهر وتحقيقاته في العراق عن منهج البحث الأدبي ، والشعر السلجوقي ، وعن الطغرائي : حياته وآثاره ، ولامية العجم . ودراسة ناصر الدين الأسد في الأردن عن مصادر الشعر الجاهلي والقيان والغناء في الجاهلية ، وعن محمد روحي الخالدي رائد المنهج التاريخي ، وخليل

بيدس رائد القصة الفلسطينية . ودراسة الشاذلي بويحي في تونس عن الحياة الأدبية في افريقيا (بالفرنسية) ، وتحقيق : قراضة الذهب لابن رشيق .

أما في الجزائر فكانت دروس أبو العيد دودو وكتاباته في الأدب المقارن والاداب الأجنبية ، وبعض مؤلفات عبد الله الركيبي مثل القصة القصيرة في الجزائر ، والشعر الديني في الجزائر ، ومبارك جلواح ، وبعض مؤلفات عبد المالك مرتاض أيضا مثل : فن المقامات في الأدب العربي ، وفنون النثر الأدبي في الجزائر ، ومؤلفات المشارقة الذين درسوا في مختلف الجامعات الجزائرية الطرية التي نفذ منها المنهج التاريخي الى الدرس الأدبي في الجزائر . ذكر هؤلاء الأعلام على سبيل المثال ، وهناك أسماء كثيرة لها دراسات أكاديمية جادة في دراسة الأدب العربي من منطلق تاريخي ، أساسه الرؤية اللانسونية الوسطى التي تتلاءم والكثير من الأوساط العربية المثقفة . ولاشك أن أبحاثا ودراسات حول هؤلاء الأعلام الذين ذكروا أو الذين لم يذكروا ستبين دور المنهج التاريخي عموما واللانسونية بوجه خاص في دارسة العقل العربي من خلال دراسته للأدب العربي وقضاياه من منطلقات تاريخية لانسونية ، فتشرح وتوضح سر بعض الأحكام والنتائج الغامضة أو المرفوضة أو المحبذة . فبمعرفتنا لأسباب أحكامنا وآرائنا نعرف أنفسنا أكثر ، ولا أفضل للانسان من أن يعرف نفسه حق معرفتها ، وهذا ما سعت هذه الرسالة الى المساهمة فيه . والأمل معقود على دراسات أخرى لباحثين آخرين في مواصلة هذا الجهد الكبير الذي لا يستطيع فرد واحد القيام به ، على رأى لانسون وأتباعه من الفرنسيين والعرب وبذلك تنمو معرفتنا الأدبية وتتطور ، فنتطور معها ، وتلك هي سنة الحياة .

لقد أفادت اللانسونية الأدب العربي كثيرا، اذ بفضلها كشف العديد من الباحثين العرب و المستشرقين عن الكثير من نصوص الأدب العربي، فحققوها وشرحوها و درسوها

و أنجزت بفضلها أيضا دراسات أدبية أكاديمية قيمة صححت الكثير من المفاهيم والأخطاء ، فاستفاد الدرس الأدبي العربي بذلك أيما فائدة . و لكن دراسة الأدب عرفت تطورا منهجيا سريعا في العديد من البلاد الأوروبية و الأمريكية ، حيث ظهرت مناهج عديدة أثرت الدرس الأدبي عند تلك الأمم ، خلاف الدرس الأدبي عند العرب الذي لم يتمكن بعد من التحرر كلية من أسر الرؤية التاريخية التي أفادته كثيرا في النصف الأول من القرن العشرين .

وعلى هذا الأساس أستطيع القول ان اللانسونية قدمت للأدب العربي خدمات جليلة ، ولكن الوقت حان لتجاوزها بالبحث و التفكير في الأسس و المقومات المنهجية للأدب العربي قديمه وحديثه ، ثم باستخدام ما جد من مناهج البحث الأدبي ، حتى لا تصبح عائقا لتطور الدرس الأدبي العربي .

فهرس الأعلام

- أ -

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

ـ د ـ

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ض -

ـ ط ـ

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

الببليوغرافيا

قائمة المصادر والمراجع

1 - المراجع العربية :

د . الأسد (ناصر الدين) :

1 - محمد روحي الخالدي رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1970

2 - ذكري طه حسين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1977

الآمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر) :

3 - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري (تحقيق السيد أحمد صقر) ، دار المعارف ج 1 ط 2 . القاهرة . 1972

د . الأمين (عزالدين) :

4 - نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر ، دار المعارف ط 2 . القاهرة 1970

د . برادة (محمد) :

5 - محمد مندور وتنظير النقد العربي، دار الآداب ، ط 1 ، بيروت 1979

بوحسن (أحمد) :

6 - الخطاب النقدي عند طه حسين ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط 1 بيروت 1985

الثعالبي (أبو منصور) :

7 - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ، مجلد 1 ، 2 الأجزاء 1 / 4 دار الفكر ، بيروت ، د . ت

الجبرتي (عبد الرحمن) :

8 - عجائب الآثار في التراجم والأخبار (تحقيق حسن محمد جوهر وعبد الفتاح ...

لجنة البيان العربي ، الجزء الرابع ، القاهرة ، 1956

9 - عجائب الآثار في التراجم والاخبار (تحقيق حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي) ، لجنة البيان العربي، الجزء السادس ، القاهرة 1966

الجرجاني (القاضي عبد العزيز) :

10 - الوساطة بين المتنبي وخصومه (تحقيق محمد أبو الفضل ومحمد البجاوي) ، دار القلم ، بيروت ، د :ت

الجمحي (ابن سلام) :

11 - طبقات فحول الشعراء (تحقيق محمد محمود شاكر) ، السفر الأول ، مطبعة المدني ، القاهرة ، د .ت

د . حجازي (محمود فهمي) :

12 - أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1974 .

الحداد (نجيب) :

13 - مقابلة بين الشعر العربي والشعر الافرنجي (منشورة ضمن كتاب المنفلوطي مختارات المنفلوطي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، د . ت

14 - مسرحيات نجيب الحداد (اختيار وتقديم د. محمد يوسف نجم) . دار الثقافة ، بيروت .

د . الحسيني (اسحق موسى) :

15 - النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1967

الحمصي (قسطاكي) :

16 - منهل الوراد في علم الانتقاد ، الجزء الأول والثاني ، مطبعة الأخبار ، القاهرة ، د .ت

الخـالـدي (محمد روحي) :

17- تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوكو، مطبعة الهلال، ط 2 ، مصـر 1912 .

18 - تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب و فيكتور هوكو، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، ط 4، دمشق 1985 .

د. الخطيب (حسام) :

19 - الأدب العربي المقارن : البداءات والتطورات الأولى . بحث ضمن أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب ، ديـــوان المطبوعـات الجامعية ، الجـزائـر 1985 .

د. الدسوقي (محمد) :

20- طه حسين يتحدث عن أعلام عصره ، الدار العربية للكتاب، ط 3 ، ليبيا - تـونس ، 1982 .

دوارة (فؤاد) :

21- شيخ النقاد يتحدث،مجلة " المجلة "،عدد ديسمبر، القاهرة 1964.

22- شيخ النقاد يتحدث،مجلة "المجلة" عدد ديسمبر، القاهرة 1965.

ديـاب (عبد الحـي):

23- التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة 1968 .

رياض (هنـري) :

24- محمد مندور رائد الأدب الاشتراكي، دار الثقافة بيروت، مكتبـة النهضـة السودانيـة ، الخـرطـوم 1965 .

الزركلـي (خير الدين):

25- الأعـلام ، ج 1، 2 ، 5 ، دارالعلم للملايين، بيروت 1980 .

سامح (كريم) :

26 ـ ماذا يبقي من طه حسين ؟ دار القلم ، ط 2 ، بيروت ، 1977

د . السكوت (حمدي) و د مارسدن (جونز) :

27 ـ طه حسين ، منشورات الجامعة الأمريكية ، القاهرة ،1975

د . السواميري (كامل) :

28 ـ الأدب العربي المعاصر في فلسطين ، دار المعارف ، مصر ، 1979

د. شرف (عبد العزيز) :

29 ـ طه حسين وزوال المجتمع التقليدي ، الهيئة المصرية العامة للكتـــاب، القاهرة ، 1977

د . شكري (محمد فؤاد وآخرون) :

30 ـ بناء دولة مصر محمد علي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1948

د . شكري (غالي) :

31 ـ محمد مندور : الناقد والمنهج ، دار الطليعة ، ط 1 ، بيروت ، 1981

د . الشيال (جمال الدين) :

32 ـ تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1950

33 ـ تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصرمحمد علي دار الفكر العربي، القاهرة 1951

الصاوى (محمد أحمد) :

34 ـ باريس ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1933

د .ضيف (أحمد) :

35 -مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ط1 ، مطبعة السفور ، القاهرة ، 1921

36- بلاغة العرب في الأندلس ط 1 مطبعة مصر ، القاهرة ، 1924

37 - أنا الفريق ، مجلة " الثقافة " الأعداد 2 ، 3 ، 4 ، 6 ، 8 لجنة الثقافة والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1939

د : طه حسين :

38 - تجديد ذكرى أبي العلاء ، ضمن سلسلة من تاريخ الأدب العربي لطه حسين ، المجلد الثالث ، دار العلم لملايين ، ط 1 ، بيروت ، 1974

39 - فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، (ترجمه من الفرنسية عبد الله عنان) سلسلة الأعمال الكاملة ، المجلد الثامن ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1975

40 - حديث الأربعاء ، ج 1 ، دار المعارف ، ط 11 ، القاهرة . د .ت

41 - حديث الأربعاء ، ج 3، دار المعارف ، ط10، القاهرة ، د. ت

42 - في الشعر الجاهلي ، ط1 ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1926

43 - في الأدب الجاهلي (ضمن سلسلة من تاريخ الأدب العربي) ، المجلد الأول ، دار العلم للملايين ، ط 2 ، بيروت ، 1970

44- المجمل في تاريخ الأدب العربي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1929

45 - المفصل في تاريخ الأدب العربي ، ج 1 مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة . د .ت

46 - الأيام ، ج 1 ، ط 59 ، دار المعارف ، القاهرة ، د .ت

47 - الأيام ، ج 2 ، ط 29 ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت

48 - الأيام ، ج 3 ، ط 06 ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت

49 - مستقبل الثقافة في مصر ، (سلسلة الأعمال الكاملة) ، المجلد التاسع ، دار الكتاب اللبناني ، ط 1 ، بيروت ، 1973

الطهطاوي (رفاعة رفعت) :

50 - تخليص الابريز في تلخيص باريز (تحقيق ونشر د . محمو فهمي حجازي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1974

د . عامر (عطية) :

51 - تاريخ الأدب المقارن في مصر ، بحث ضمن أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1985

عبد الجواد (محمد) :

52 - تقويم دار العلوم ، دار المعارف ، القاهرة ، 1952

عبود (مارون) :

53 - رواد النهضة الحديثة ، دار الثقافة ، بيروت ، 1966

العقيقي (نجيب) :

54 - من الأدب المقارن ، ج 2 مكتبة الأنجلو المصرية ، ط 3 ، القاهرة 1976

علبي (أحمد) :

55 - طه حسين : رجل فكر وعصر ، دار الآداب ، بيروت ، 1985

د . عوض (لويس) :

56 - الثورة والأدب ، الكتاب الذهبي المنشورات روز اليوسف ، القاهرة ، 1971

57 - الموءثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية العالية ، القاهرة 1963

الغمراوي (محمد أحمد) :

58 - النقد التحليلي لكتاب " في الأدب الجاهلي " ، منشورات دار الحكمة ، 1970

د . فيصل (شكري) :

59 - ذكرى طه حسين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1977

ابن قتيبة

60 - الشعر والشعراء ، دار الثقافة ، بيروت ، 1964

قدامة بن جعفر :

61 - نقد الشعر (تحقيق كمال مصطفى) ، مكتبة الخانجي ط 3 ، القاهرة 1978

د . القط (عبد القادر) :

62 - الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، دار النهضة العربية ، بيروت 1978

الكيالي (سامي) :

63 - الأدب العربي المعاصر في سوريــة ، دار المعارف ، ط 2 ، القاهــرة 1968

د . الكيلاني (ابراهيم) :

64 - مقدمته لترجمة كتاب ريجيس بلا شير : تاريخ الأدب العربي ، الجزء الأول ، الدار التونسية والموءسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986

د. مرزوق (حلمي) :

65 ـ تطور النقدوالتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1983

ابن المعتز (عبد الله) :

66 ـ كتاب البديع (تحقيق كراتشكو فسكي) ، دار المسيرة ، ط 3 ، بيروت 1982

د. مندور (محمد) :

67 ـ في الميزان الجديد ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة د.ت

68 ـ النقد المنهجي عند العرب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة د. ت

69 ـ في الأدب والنقد ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة 1949

70 ـ الأدب وفنونه ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، د.ت

71 ـ النقد والنقاد المعاصرون ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، د. ت

72 ـ كتابات لم تنشر ، كتاب الهلال ، عدد 175 ، القاهرة ، 1965

73 ـ مذهبي في النقد، مجلة "المجلة" القاهرة عدد 103 يوليو 1965

نالينو (كارلو) :

74 ـ تاريخ الآداب العربية ، دار المعارف ، ط 2 ، القاهرة ، د. ت

د. نجم (محمد يوسف) :

75 ـ المسرحية في الأدب العربي الحديث ، دار الثقافة ، ط 3 ، بيروت 1980

د . نعمات أحمد فؤاد :

76 ـ قمم أدبية ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1966

الياقي (ادوار سامي سبانخ) :

77 نجيب الحداد المترجم المسرحي ، معهد البحوث والدراسات العربية

القاهرة 1976

2 ـ المراجـــع المترجمـــة :

تيجم (فان) :

78 ـ الأدب المقارن (مجهول المترجم) ، دار الفكر العربي ، د. ت

جب (هاملتون) :

79 ـ دراسات في حضارة الاسلام (ترجمة د . احسان عباس وآخرون)،

دار العلم للملايين ،ط 3 ، بيروت ، 1979

حوارني . (ألبرت) :

80 ـ الفكر العربي في عصر النهضة 1798 / 1939 (ترجمة كريم عزقول)

دار النهار للنشر ، ط 3 ، بيروت ، 1977

رينو (جوزيف) :

81 ـ الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطليا وسويسرا (ترجمة د . اسماعيل

العربي) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دار

الحداثة لبنان، 1984

كاري (جان ماري) :

82ـ مقدمته لكتاب ماريوس فرانصوا غويار : الأدب المقارن(ترجمـــة

محمد غلاب) لجنة البيان العربي ، القاهرة ، 1956

لانسون (جوستاف) :

83 ـ منهج البحث في تاريخ الأدب (ترجمة د . محمد مندور) منشـــور ضمن كتاب مندور : النقد المنهجي عند العرب ، دار نهضة مصــــر للطبع والنشر ، القـاهرة د . ت

وارين (أوستن) و ويليك (رينيه) :

84 ـ نظرية الأدب (ترجمة محي الدين صبحي) ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب و العلوم الاجتماعية ، دمشق ، 1972 .

3- المراجع الفرنسية :

-Baldensperger (Fernand) :

85- Litterature Comparée: le mot et la chose, Revue de littérature comparée. N° 01. Paris . 1921.

-Basset (René) :

86- La poésie arabe anté-islamique, Ernest leriux editeurs Paris . 1880 .

-Beuve (Sainte) :

87- Oeuvres, T1 , Bibliothèque de la pléade. Gallimard , paris1956

-Bonjean (F.J) et Deif (Ahmed) :

88- Histoire d'un enfant du pays d'égypte: Mansour . F. Rieder et Cie editeurs, paris , 1924.

89- Histoire d'un enfant du pays d'egypte: El-Azhar. Les editions Rieders, paris , 1927

-Bouvier (E):

90- Les lettres françaises au 20eme siecle. P. u. f . paris1962.

-Brunetière (Fernand) :

91- L'évolution de la poésie française au 19eme siècle. Librairie Hachette, ??, paris 1893.

-Compagnon (Antoine) :

92- La troisieme république des lettres, editionsdu seuil, paris1983

- Deif (Ahmed) :

93- Essais de sur le lyrisme et la critique litterairechez les arabes, jouves et Cie éditeurs, paris 1917 .

- Delfau (Gerard) et Roche (Anne):

94- Histoire, litterature, edition Seuil , paris 1977.

-Dupeux (Georges) :

95- La société française (1789/ 1960); Armand colin, paris1964.

- Escarpit (Robert) :

96- Histoire de l'histoire de la litterature, In histoire des litteratures, T3, encyclopédie de la pléade). Gallimard, paris1958.

- Hugo (victor):

97- Cromwel (préface), G. Flammarion, paris 1968.

- Lanson (Gustave) :

98-Histoire de la littérature française. librairie hachetteparis1979

99-Essais de methode, de critique et d'histoire littéraire. Hachette , paris 1965 .

100- Methode de l'histoire litteraire et hommes et livres, Ressources paris- genève , 1979 .

- Meftah (Tahar) :

101- Taha Husayn: sa critique litteraire et ses sources françaises maison arabe du livre , Tunis . 1976 .

- Ouvrage collectif :

102- Melanges offerts par ses amis et ses élèves à Mr Lanson, librairie Hachette . paris 1922 .

- Moreau (Pierre) :

103- Le victorieux 20ème siècle , Plon , 3ème Ed , Paris

- Peres (H) :

104- La litterature arabe et l'islam, librairie d'amérique et d'orient , paris 1977 .

- Peyré (Henri) :

105- Introduction au livre de Lanson : essais de méthode, de critique et d'histoire litteraire, hachette, paris1965.

- Pommier (Jean) :

106- Dialogues avec le passé, librairie Nizet, paris 1967 .

- Rudler(Gustave) :

107- Techniques de la critique et de l'histoire litteraire. Ressources, paris-genèv , 1979 .

- Simon (P. H.) :

108- Histoire de la litterature française au 20ème siècle. T1 Armand Colin . paris 1967 .

- Société des amis de l'école normale supérieure :

109- Gustave Lanson, (1857-1934), société des amis de l'école

normale supérieure. paris 1958 .

- Société d'histoire littéraire de la France :

110- Problèmes et methodes de l'histoire littéraire, colloque du 18 novembre1972. Armand colin. paris 1974 .

- Tadié (Jean Yves) :

111- La critique littéraire au 20ème siècle. Belfond. Paris 1987 .

- Taine (H) :

112- Histoire de la littérature anglaise, librairie hachette Paris 1863 .

- Thibaudet (Albert) :

113 - Physiologie de la critique. Librairie Nizet paris1971.

-Tieghem (Philippe Van) :

114- Dictionnaire des littératures. T1 P.u.F paris 1968.

115- Dictionnaire des littératures. T2 P.u.F paris 1968 .

-Tuffrau (Paul):

116- Complément du livre de Lanson: Histoire de la littérature française, Hachette . paris 1979 .

4- المعاجم :

- 117- Grand Larousse encyclopédique. T2,233,4.5,9. paris 1973.

- 118- Dictionnaire encyclopédique d'histoire. T3. Bordas. paris 1987.

- 119- Nouveau Larousse Universel . paris

الفهرس

فهرس الموضوعات

تصويبات

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
أ	8	ثمة	ثم
جـ	10	ثمة	ثم
4	15	الكاثوليلية	الكاثوليكية
28	12	جامعة	جامدة
35	3	المصطحات	المصطلحات
39	17	الأمم :	الأمم : ((
43	3	1896	1894
43	9	ثمة	ثم
44	13	ثقم	ثم
51	12	ثمة	ثم
52	16	ثمة	ثم
55	1	دريفوس	دريفوس (1)
56	13	ثمة	ثم
57	6	ثمة	ثم
59	17	ثمة	ثم
67	10	متطباته	متطلباته
69	16	ثمة	ثم
70	19	ثمة	ثم
77	2	ثمة	ثم
83	6	ثمة	ثم